حول تفسير

سورة الملك

بقلم

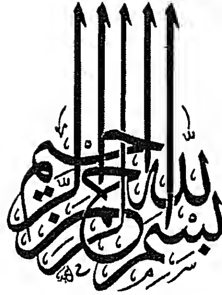
الإمام المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله عنه

يطلب من مكتبة دار الفلاح

حلب أقيول - أمام جامع أسامة



أيّها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلّما قرأت في كتاب من كتبي ، وأهدِ ثوابها إلى العلاّمة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسّنّة ، المفسّر والمحدّث بالأسانيد المتصلة ، عن كبار المحدّثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلاميّة - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي - سيّدي وشيخي والدي الكريم ، **الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني** رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيرًا ، إنّه هو السميع العليم .

آمين

حول

تفسير سورة الملك

بقلم
عبد الله سراج الدين

مكتبة دار الفلاح
حلب - أقيول

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

مؤسسة

الشام للطباعة والتجليد

دمشق - هاتف: ٢٢٢٤٥٢٢ - ٢٢٤٩١٤٣ ص.ب ٢٥١٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه، والتابعين، وعلينا معهم أجمعين.

سورة الملك

هي: مكية عند الجمهور، وتسمى: سورة تبارك، والمانعة، والمنجية، وهي تدافع عن قارئها ـ كما سيأتي.

وقد جاءت في فضائلها أحاديث كثيرة، أذكر جملة منها:

أولاً: هي تشفع بقارئها حتى يغفر الله تعالى له:

روى أبو داود، والترمذي وحسنه واللفظ له، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ سورة في القرآن ثلاثون آية شَفَعَت لرجل حتى غُفِر له، وهي: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾».

ورواه النسائي وابن ماجه وغيرهم كما في: (الترغيب).

ثانياً: هي المانعة، هي المنجية، تُنجي قارئها من عذاب القبر:

روى الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضَرَب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خباءه على قبر، وهو

لا يَحسب أنّه قَبْرٌ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها.

فأتى ـ ذلك الصحابي ـ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أَنَّه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «هي المانعة، هي المنجية، تُنجيه من عذاب القبر».

فكان صاحب القبر صحابياً يقرأ كل ليلة سورة الملك؛ فحفظتْه ونجَّته من عذاب القبر، وأكرمه الله تعالى بتلاوتها في قبره كل ليلة، وقد أَسْمع الله تعالى قراءته لذلك الصحابي الذي ضَرب خِباءه على القبر.

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينام حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، عزاه في: (الجامع الصغير) إلى الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، والحاكم ورمز لصحته.

فيسن قراءتها كل ليلة كما نص على ذلك العلماء:

فقد روى ابن مَرْدُوْيَه، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، أَنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يقرأ: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾، السجدة و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ كلَّ ليلة، لا يدعهما في سفر ولا حَضَر.

وروى ابن مَرْدُويه عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي

صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر»[1].

قال المناوي أي: الكافَّة لَهُ ـ أي: للعذاب ـ عن قارئها إذا مات وَوُضع في قبره، ولو أنّها قرئت على ميت لمنعت عنه العذاب.

قال: وَيُؤخذ منه ندب ما اعتيد ـ أي: ما اعتاده المسلمون ـ من قراءة خصوص هذه السورة للزوّار على القبور. ا هـ.

كما أنَّه يُطلب قراءة سورة يسٓ على الأموات:

فقد جاء في الحديث عن معقل بن يسار رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قَلب القرآن يسٓ، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلاّ غفر الله تعالى له، اقرؤوها على موتاكم».

قال في: (الترغيب): رواه أحمد، وأبو داود والنسائي واللفظ له، وابن ماجه، والحاكم وصححه.

ثالثاً: إنها تدافع عن قارئها حتى تُدْخله الجنة:

فعن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سُورَةٌ من القرآن ما هي إلا ثلاثون آية، خاصمتْ عن صاحبها حتى أدخلته الجنة، وهي: تبارك» ـ وفي رواية: «وهي سورة تبارك».

---

(١) كذا في: (الجامع الصغير) قال العلامة المناوي: رمز المصنف لحسنه. قال الحافظ ابن حجر في أماليه: إنه حسن. اهـ ويؤيد هذا الحديث ما تقدم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي.

رواه الطبراني في: (الأوسط) وكذا في: (الصغير) ورواه الضياء المقدسي، وقال الحافظ الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. ا هـ كذا في: (الجامع الصغير) وشرحه، وقد رمز الحافظ السيوطي لصحته.

والمراد بصاحبها: أي: المداوم على تلاوتها، ولذا جيء بلفظ: الصاحب ـ كما قال المناوي.

رابعاً: إنها كثيرة النفع والخير والبر لقارئها:

روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وَدِدتُ أَنَّها في قلب كل مؤمن» ـ يعني: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

قال في: (الترغيب): رواه الحاكم وقال: هذا إسناده عن اليمانيين صحيح، ورواه الحافظ السيوطي في: (الفتح الكبير).

فقد أحبَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أَنّ كل مؤمن يَحفظ سورة تبارك عن ظهر قلب، وما ذاك إلا لكثرة خيرها، وكبير فضلها، ومِنْ شأن الحافظ عن ظهر قلب أَنْ يُكثر من قراءة ما قد حفظ لئلا يُنسى.

وأخرج الطبراني وابن مَردويه بسند جيد، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كنا نسميها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المانعة، وإنَّها لفي كتاب الله تعالى سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب) كذا في: (الدر المنثور) وغيره.

خامساً: محافظتها على قارئها من جميع جوانبه في قبره:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (يُؤتى الرجل في قبره، فيؤتى من قِبَلِ رِجليه فتقول رجلاه: ليس لكم على ما قِبلي سبيل،

قد كان يقوم علينا بسورة الملك، ثم يُؤتى مِنْ قِبَل صدره، فيقول: ليس لكم على ما قِبلي سبيل، قد كان وَعَى ـ أي: جمع ـ فيَّ سورة الملك، ثم يؤتى من قِبَل رأسه، فيقول: ليس لكم على ما قِبلي سبيل قد كان يقرأ بي سورة الملك ـ فهي المانعة، تمنع من عذاب القبر).

رواه الطبراني، وابن الضُّرَيْس، والحاكم وصححه، والبيهقي في: (شعب الإيمان) كما في: (الدر المنثور)، وهذا الموقوف له حكم المرفوع لأنه لا يُدرك بالرأي.

سادساً: شفاعتها لقارئها لأجل أن ينجيه الله تعالى من النار:

أخرج عَبْدُ بن حُميد في: (مسنده) واللفظ له، والطبراني والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لرجل: (ألا أُتْحِفُك بحديث تفرح به)؟

قال: بلى.

قال: (اقرأ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ وعلِّمها أهلك، وجميع وَلَدك، وصبيان بيتك، وجيرانك، فإنَّها المنجية، تَشفع يوم القيامة لقارئها عند ربه، وتطلب له أَنْ ينجيه من عذاب النار، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر).

قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لَوَدِدتُ أَنَّها في قلب كل إنسان من أمتي»[1].

فقد أحبها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكل مسلم

---

(١) انظر: (الدر المنثور) و(تفسير ابن كثير) وغيرهما.

ومسلمة، أن يحفظها، ويقرأها كل ليلة، فإنّها المانعة والمنجية من عذاب القبر، وما أَحوج العبد إلى ما يُنجيه ويحفظه من عذاب القبر، حين يصير في القبر.

وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتعوذ من عذاب القبر، فسورة تبارك هي ـ كما تقدم في الحديث ـ المانعة، وهي المنجية، وتشفع بقارئها كما تقدم.

وهذا من باب عالم المِثال، الثابت بالكتاب والسنة، كما جرى عليه العارفون والمحققون، وذلك أَنّ هنالك عالماً تتظاهر فيه: الأرواح والمعاني، والأعمال والأقوال، والمُغَيَّبات، وتتمثل فيه بأمثلة صُورية مرئية، تتناسب مع الحال الذي تمثلت فيه ـ كما بينت ذلك تفصيلاً مع الادلة والأمثلة في كتابي: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) فارجع إليه ينفعك الله تعالى إن شاء الله تعالى.

ومِنْ ذلك ما رواه مسلم وغيره ـ أي: من جملة ما جاء في عالم المثال الحديث المروي عن أبي أمامة رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اقرؤوا القرآن فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه: اقرؤوا الزهراوين(١): البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غَمامتان، أو غيايتان(٢)، أو فِرقان من طَير صوافَّ، تُحاجَّان عن صاحبهما، اقرؤوا البقرة فإنَّ أخذها بركة،

---

(١) أي: النَّـيِّرتين، تثنية الزهراء.

(٢) قال العلامة المناوي: «كأنهما غمامتان» أي: سحابتان تُظلان قارئهما من حرّ الموقف، ومن كَرب ذلك اليوم المهول، و(الغيايتان) تثنية غياية بمثناة تحتية وهي: ما أظل الإنسان.

وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلَة» أي: السحرة[1].

ومن ذلك ما جاء في: (مسند) الإمام أحمد، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأله: «أيُّ آية في كتاب الله أعظم»؟

قال: الله ورسوله أعلم. فردَّدها مراراً ثم قال أبيّ: آية الكرسي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر ـ أي: يا أبا المنذر ـ والذي نفسي بيده: إنَّ لها لساناً وشفتين تُقدِّس الملِكَ عند ساق العرش».

وأصل هذا الحديث في: (صحيح) مسلم.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يُؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تَقَدَّمهم سورة البقرة وآل عمران».

قال: وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهنَّ بعدُ قال: «كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ، يحاجَّان عن صاحبهما»[2].

وروى الإمام أحمد وغيره، عن بريدة رضي الله عنه قال: قال

---

(١) قال ابن كثير: لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها والله أعلم. اهـ

(٢) قال في: (الدر المنثور): أخرجه أحمد والبخاري في: (تاريخه) ومسلم والترمذي، ومحمد بن نصر. اهـ

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تَعلَّموا سورة البقرة، فإنَّ أخذها بَرَكة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلة».

ثم سكت ساعة ثم قال: «تعلَّموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان، يُظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صوافّ».

ومن عالم المثال تمثل الأعمال في عالم القبر:

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الميت إذا وُضع في قبره وإنه يسمع قرع نعالهم ـ أي: الذين تبعوه إلى قبره ـ حين يُوَلُّون مدبرين.

فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فِعْل الخيرات من الصدقة والصلاة ـ أي: النوافل ـ والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه.

فيؤتى من قِبل رأسه فتقول الصلاة: ما قِبلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قِبَلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قِبَلي مدخل، ثم يؤتى من قِبَلِ رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلاة ـ أي: النافلة ـ والأمر بالمعروف والإحسان إلى الناس: ما قِبَلي مدخل» الحديث.

قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني، وابن حبان في: (صحيحه) واللفظ له. اهـ.

وروى الطبراني عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً:

«إذا حافظ العبد على صلاته، فأقام وضوءها، وركوعها وسجودها، والقراءة فيها قالت له: حفظك الله تعالى كما حفظتني، وصُعد بها إلى السماء ولها نور حتى تنتهي إلى الله عز وجل؛ فتشفع لصاحبها».

ومن ذلك: تمثل الأقوال من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وغير ذلك من: التلاوات والدعوات، والصلوات على النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

جاء في الحديث الذي رواه ابن ماجه، والإمام أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، أَنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِنّ مِمَّا تَذكرون مِن جَلال الله: التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، ينعطفن ـ أي: يجتمعن ـ حول العرش لهنَّ دويٌّ كدويِّ النحل، يذكرن ـ أي: يشفعن ـ بصاحبهنَّ، أفلا يُحب أحدكم أن يكون له مَنْ يذكر به عند ربه»؟.

ومن عالم المثال تمثل القرابة الرحمية، وتعلقها بالعرش الكريم:

روى الشيخان عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الرَّحِم متعلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله».

فهي متعلقة بالعرش تدعو لمن وصلها، وتدعو على من قطعها.

فاتق الله تعالى أيها المسلم قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾.

وعن أبي هريرة رضي اللهِ عنه قال: قال رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم: «إنَّ الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة.

قال ـ الله تعالى ـ: نعم، أما ترضين أَنْ أَصِل من وصلكِ، وأقطع من قطعكِ؟

قالت: بلى.

قال: فذلك لكِ».

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ رواه الشيخان وغيرهما.

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث متعلقات بالعرش: **الرحم** تقول: اللهم إني بكَ فلا أُقطع، **والأمانة** تقول: اللهم إني بك فلا أُخان، **والنعمة** تقول: اللهم إني بك فلا أُكفَر»[1].

وأخرج ابن أبي شيبة، والحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنَّ للرحم لِساناً يوم القيامة تحت العرش فتقول: يا ربِّ قُطِعتُ، يا ربِّ ظُلِمتُ، يا ربِّ أُسِيءَ إليَّ، فيجيبها ربها: ألا ترضين أَنْ أَصِل من وصلكِ، وأقطع من قطعك».

فالرحم متعلقة بالعرش تدعو لواصلها، وتدعو على قاطعها ـ الآن في عالم الدنيا، ويجيب الله تعالى دعاءها.

---

(١) رواه البزار كما في: (الترغيب) وغيره.

وتشكو أمرها إلى الله تعالى يوم القيامة وقطيعتها، فيصل الله تعالى مَن وصلها، ويقطع من قطعها.

فقد روى البيهقي وغيره عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن للرحم لساناً ذَلِقاً يوم القيامة تقول: رَبِّ صِلْ من وصلني، واقطع من قطعني».

واعلم أَنَّ صلة الرحم الفقير ـ لا تكفي بالقال، ولا بزيارته والتسليم عليه ونحو ذلك، بل يجب عليك أن تواصله بالمال أيضاً:

جاء في الحديث عن سلمان بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذوي الرحم صدقة وصلة» رواه الترمذي وحسنه، والنسائي وغيرهما كما في: (الترغيب).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الصدقة على ذي قرابة يضعَّف أجرها مرتين» رواه الطبراني.

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الصدقات أيُّها أفضل؟ فقال: «على ذي الرحم الكاشِح» رواه الإمام أحمد، والطبراني، وإسناد أحمد حسن كما في: (الترغيب).

قال: والكاشح بالشين المعجمة: هو الذي يُضمر عداوته في كَشْحه وهو خَصره ـ يعني: أَن أفضل الصدقة هي على ذي الرحم القاطع، المضمر العداوة في باطنه. اهـ

وعن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها، أَنّ النبي صلى الله عليه

وآله وسلم قال: «أفضل الصدقة: الصدقة على ذي الرحم الكاشح».

قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني في: (الكبير) ورجاله رجال الصحيح، وابن خزيمة في: (صحيحه)، والحاكم وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم. اهـ

وقد حذَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ردِّ الرجل ذا رحمه إذا قصدهُ وسأله من ماله:

جاء في الحديث عن جَرير بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله فضلاً أعطاه الله إياه فيبخل عليه؛ إلا أخرج الله له من جهنم حيَّةً يقال لها: شجاع - يتلمّظه فيطوّق به».

قال في: (الترهيب): رواه الطبراني في: (الأوسط والكبير) بإسناد جيد.

قال: والتلمُّظ: تَطعُّم ما يبقى من الفم من آثار الطعام. اهـ

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أيُّما رجل أتاه ابن عمه يسأله من فضله فمنعه؛ منعه الله تعالى فضله يوم القيامة» رواه الطبراني في: (الصغير والأوسط) كما في: (الترهيب).

ومن فضائل صلة الرحم ما يلي:

روى البخاري ومسلم، عن أنس رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من أحبَّ أن يُبسط له في رزقه، ويُنسَّأ له في أثَره: فليصل رحمه».

قال الحافظ المنذري بعد ما روى هذا الحديث قال: يُنسّأ بضم الياء وتشديد السين المهملة مهموزاً: أَيْ يؤخَّر له في أجله. اهـ

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من سَرَّه أن يُبسط له في رزقه ـ أي: أن يبسط الله تعالى في رزقه ـ وأن يُنسَّأ له في أثَره فليصل رحمه».

قال المنذري: رواه البخاري، والترمذي ولفظه:

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم: مَحبة في الأهل، مثراة ـ أي: مكثرة ـ في المال، مُنسَّأة في الأثر».

ومعنى: منسأة في الأثر: يعني به الزيادة في العمر. اهـ

وعن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَن سرَّه أن يُمدَّ له في عمره، ويُوسَّع له في رزقه، ويدفع عنه مِيتة السوء: فليتق الله وليصلْ رحمه» رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في: (زوائد المسند) والبزار بإسناد جيد، والحاكم[١].

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سمعه يقول: «إنَّ الصدقة وصلة الرحم: يزيد الله بهما في العمر، ويدفع بهما مِيتة السوء، ويدفع بهما المكروه والمحذور» رواه أبو يعلى.

وعن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، أن النبي

---

(١) انظر: (الترغيب).

صلى الله عليه وآله وسلم قال لها: «إنَّه من أُعطِي حظّه من الرفق فقد أُعطِي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الجوار ـ أو حسن الخلق ـ يُعَمِّران الديار، ويزيدان في الأعمار» رواه الإمام أحمد كما في: (الترغيب).

وقد حثَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على صلة الرحم وإن قطعت:

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذت بيده فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال.

فقال: «يا عُقبة: صِل مَنْ قطعك، وأعط من حرمك، وأَعْرِضْ عمَّن ظلمك».

وفي رواية: «واعف عمَّن ظلمك».

قال المنذري: رواه أحمد والحاكم وزاد: «أَلاَ وَمَن أراد أن يُمدَّ له في عمره، ويُبسط في رزقه: فليصل رحمه».

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنَّ أفضل الفضائل: أَنْ تصل من قطعك، وتُعطي من حرمك، وتَصْفَح عمَّن شتمك» رواه الطبراني.

هذا وقد فصلت الكلام على عالم المثال، وأدلته، وأحكامه، وشواهده في كتابي: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام).

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

﴿تَبَٰرَكَ﴾ أي: تعاظم، وتقدَّس بكثرة أسمائه الحسنى، وصفاته العليا التي لا نِهاية لها، وبكثرة نَعمائه وآلائه، وإفاضة برِّه وإحسانه، ورحماته وخيراته على عباده، وعلى جميع مخلوقاته، على وجه لا يُعدُّ ولا يحصى، ولا يُحدُّ ولا يستقصى.

فإن كلمة البركة تدل على الكثرة والدوام، فهذه الصيغة ـ أي: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ ـ هي من أعظم جوامع صيغ الثناء على الله تعالى، والدالة على محامده، وكمالاته سبحانه التي لا نهاية لها

وقد ذكر الله تعالى هذه الصيغة العظيمة ـ أي: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ ـ ذكر ذلك في مواضع متعددة من الآيات القرآنية، يُبيِّن فيها عَظمة كماله، وأسمائه وصفاته سبحانه، وعظيم فضله وإنعامه، وأنواع كرمه على مخلوقاته سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الآية.

وقال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

وقال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فهو سبحانه يصف نفسه في جميع تلك الآيات الكريمة بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ الدال على كثرة كمالات الذات العلية، على الوجه الذي لا يتناهى، وعلى كثرة صفات الأفعال الفياضة بالخيرات والرحمات، وأنواع النعم على المخلوقات، على وجه لا ينقطع، ولا ينتهي، ولا يعد، ولا يحصى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ الآية.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُكثر من ذكر هذه الصيغة الإلّهية وهي: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ يُكثر منها في ثنائه على الله تعالى، وتعظيمه له في صلواته وفي غيرها:

فكان صلى الله عليه وآله وسلم يأتي بها في استفتاح الصلاة:

روى الترمذي وأبو داود، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا افتتح الصلاة قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إلّه غيرك»[1].

وعن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه قال: كان النبي

---

(١) كما في: (جامع الأصول).

صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام إلى الصلاة قال: «وجَّهتُ وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إنَّ صلاتي ونُسكي، ومَحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين.

اللهم أنتَ الملك لا إلَه إلا أنت، أَنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبَّيكَ وسعديك، والخير كلُّه بيديك، والشرُّ ليس إليك، أَنا بِك وإليك، تباركت وتعاليتَ، أستغفرك وأتوب إليك».

وإذا ركع صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري، ومخِّي وعظمي وعَصبي».

وإذا رفع رأسه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اللهم ربنا لك الحمد مِلءَ السماوات، وملءَ الأرض، وملءَ ما بينهما، وملء ما شئتَ من شيء بعدُ».

وإذا سجد صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اللهم لك سجدتُ، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، وشقَّ سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين».

قال رضي الله عنه: ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «اللهم اغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنتَ أعلم به مني، أنت المقدِّم،

وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت»[١].

وهذا الحديث لا يُنافي حديث الافتتاح المتقدم عن السيدة عائشة رضي الله عنها، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول هذا أحياناً ويقول ذلك أحياناً.

وجاء بعض هذا الحديث في النسائي عن جابر: «اللهم اهدني لأحسن الأعمال؛ وأحسن الأخلاق؛ لا يهدي لأحسنها إلاّ أنت» الحديث.

وروى النسائي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول في سجوده: «اللهم لك سجدتُ، وبكَ آمنت، ولك أسلمتُ، وأنت ربي ـ وفي رواية: «اللهم أنت ربي» ـ سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، وشقَّ سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»[٢].

وإذا سلَّم صلى الله عليه وآله وسلم وفرغ من صلاته أثنى على الله تعالى بتلك الصيغة أيضاً:

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سلم يستغفر الله ثلاثاً ويقول: «اللهم أنتَ السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

قال في: (جامع الأصول): هذه رواية مسلم والترمذي

---

(١) قال في: (جامع الأصول): هذه رواية مسلم والترمذي، وذكر للترمذي رواية أخرى، قال: ورواه أبو داود والنسائي.
(٢) كذا في: (جامع الأصول).

والنسائي، إلاّ أن النسائي قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا انصرف من صلاته وذكر الحديث. اهـ

فقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ يدل على كثرة أسمائه الحسنى، وعلى كثرة كمالاته وصفاته العليا، على وجه لا يتناهى.

كما يدل ذلك أيضاً على كثرة نعمائه وآلائه، ونواله وبرِّه، وعطائه الفيّاض على عباده، على وجه لا يُحصى ولا يُستقصى:

أما الأول: فقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

فبعد أن ذكر سبحانه جملة من أسمائه قال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يشير بذلك إلى أنّ أسماءه ما لها نهاية، وأنّها كُلُّها حسنى.

ومن المعلوم في لغة العرب أنّ الحسنى هي صيغة تفضيل، فلم يقل: له الأسماء الحسنة بل قال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

فأسماؤه سبحانه في حسنها ما لها نهاية، ولا حد أيضاً ـ فافهم.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ الآية.

وقد بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن أسماء الله تعالى ليس لها نهاية:

جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما أصاب عبداً ـ وفي رواية:

ما أصاب أحداً ـ قطّ همٌّ ولا حَزَن فقال: اللهم إني عبدك، وابنُ عبدك، وابن أمتك، ناصِيَتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميتَ به نفسك، أَو أَنْزَلْتَهُ في كتابك، أو علّمتَه أحداً من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أَن تَجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، ـ وفي رواية البيهقي: «ونور بصري» ـ وَجَلاء حُزني، وذهاب همي وغمي ـ إلا أذهب الله عز وجل حُزنه وَهمَّه وأبدله مكان حزنه فَرَحاً».

قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أجل، ينبغي لمن سمعهنَّ أن يتعلمهنَّ»[١].

فتبارك الله رب العالمين، وتعالى بكثرة أسمائه وصفاته التي لا نهاية لها، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن لله تعالى أسماء تسعة وتسعين، لها خصوصية: أَنَّ من أحصاها دخل الجنة ـ فهي من جملة الأسماء الحسنى، وليست هي جميع الأسماء الحسنى، فإن أسماءه سبحانه لا نهاية لها.

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

---

(١) قال في: (الترغيب): رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، وابن حبان في: (صحيحه) والحاكم. اهـ.
وقال الحافظ الزرقاني: رواه أحمد والطبراني وابن أبي الدنيا والحاكم، وجاء في روايتهم: أفلا نتعلم هذه الكلمات؟ قال: «بَلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن». اهـ.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظَها دخل الجنة ـ إن الله وتر يحب الوتر».

وفي رواية: «من أحصاها دخل الجنة».

قال في: (التيسير): أخرجه البخاري بهذا اللفظ، ومسلم بدون ذكر الوتر.

قال: ورواه الترمذي وزاد فعدَّها:

«هو الله الذي لا إلّه إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارىء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعزُّ، المذلُّ، السميع، البصير، الحَكَم، العَدْل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العليُّ، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المَجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القويُّ، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدىء، المعيد، المحيي، المميت، الحيُّ، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدِّم، المؤخِّر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البَرُّ، التواب، المنتقم، العفوُّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضارُّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصَّبور».

قال العلماء: وإحصاؤها على مراتب:

الأولى: قراءتها اسماً اسماً على وجه الترتيل كأنه يَعُدُّها.

الثانيـة: حفظها وقراءتها عن حفظه.

الثالثة: التدبر فيها، والعلم بمعانيها؛ مع قراءتها، ولو أدخل على كل اسم (**يا**) يكون ثناءً ودعاءً، وذِكراً لله تعالى.

روى أبو نعيم، وابن مَرْدويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لله مائة اسم غير اسم ـ أي: مائة اسم إلا اسماً واحداً يعني: تسعة وتسعين اسماً ـ مَنْ دعا بها استجاب الله تعالى له دعاءه».

وروى البيهقي وغيره عن أم المؤمنين السيدة عائشة الصدِّيقة بنت الصدِّيق رضي الله تعالى عنها أنها قالت: (يا رسول الله علمني اسم الله الذي إذا دُعي به أجاب).

فقال صلى الله عليه وآله وسلم لها: «قومي فتوضئي وادخلي المسجد، فصلي ركعتين، ثم ادعي حتى أسمع».

قالت: ففعلت فلما جلست للدعاء قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم وفِّقْها».

فقالت:

(اللهم إني أسألك بجميع أسمائك الحسنى كُلِّها، ما علمنا منها وما لم نعلم، وأسألك باسمك العظيم الكبير الأكبر، الذي من دعاك به أَجَبْتَه ومن سألك به أَعْطَيْتَه).

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أصبتِهِ أصبتِهِ».

فأسماؤه سبحانه وتعالى لا نهاية لها، منها المعلوم، ومنها غير المعلوم؛ بل استأثر الله تعالى بعلمها.

فتبارك الله رب العالمين، وتعالى وتعاظم بكثرة أسمائه الحسنى سبحانه، وتبارك الله رب العالمين، وتعالى وتعاظم بكثرة نعمائه على مخلوقاته، وكثرة آلائه، وكثرة عطائه ونواله، وإسباغه نعمَه على عباده؛ على وجه لا يحصى ولا يستقصى.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ـ أي: يكفر نعم الله تعالى ويجحدها مع كثرتها.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ـ أي: فاستغفروه سبحانه لتقصيركم في شكركم لله تعالى على نعمه عليكم ـ يغفر لكم ويرحمكم.

ومن جملة ما جاء في ثنائه صلى الله عليه وآله وسلم على الله تعالى وإجلاله بصيغة ﴿تَبَٰرَكَ﴾ ما يلي:

عن أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله تبارك وتعالى: وجبتْ محبتي للمتحابين فيَّ، وللمتجالسين فيَّ، وللمتزاورين فيَّ، وللمتباذلين فيَّ» رواه مالك كما في: (تيسير الوصول).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأثر عن ربه تبارك وتعالى يقول: «حَقَّتْ محبتي للمتحابين فيَّ، وحقَّت محبتي للمتواصلين فيَّ، وحقَّت محبتي للمتزاورين فيَّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ».

قال في: (الترغيب): رواه الإمام مالك بإسناد صحيح.

وقد جاءت هذه الصيغة العظيمة ـ عنه صلى الله عليه وآله وسلم

في كثير من الأحاديث القدسية، تعظيماً لله تعالى، وإجلالاً له سبحانه.

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: بيده التصرف التام المطلق، النافذ في جميع مخلوقاته، كما هو مقتضى إرادته سبحانه، وحكمته وتدبيره، على وجه لا شريك له في ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

أي: فكيف تُصرف عقولكم إلى إنكار وجوده سبحانه، أو إنكار وحدانيته وعبادة غيره؛ وأنتم تعلمون أنَّه الربُّ الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء؟!!.

فهو سبحانه الملك وحده المتصرف في كل شيء، وهو المالك وحده لكل شيء، وكل ما سواه مملوك له.

قال تعالى آمراً لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وهو سبحانه المليك وحده، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾.

فهو سبحانه المليك أي: الملِك العظيم المُلك ـ صيغة مبالغة لعظيم ملكه وبقائه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: حق، نالوه بسبب صدقهم في إيمانهم بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وبصدقهم ووفائهم بعهدهم مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وبذلك حلُّوا في مقعد صدق، ونالوا شرف العندية، وكرامتها، وفضلها ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

وما أكرمها من عندية، وما أعظمها من عندية، وما أجلَّها وأعلاها من عندية، إنها العندية ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

قال الإمام السيد جعفر الصادق رضي الله عنه: مَدَح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق، وهو المقعد الذي يُصدق الله تعالى فيه مواعيد أوليائه بأنه يبيحهم عز وجل ـ النظر إلى وجهه الكريم. اهـ

اللهم اجعلنا منهم بجاه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وأفرد ذكر المقعد على إرادة الجنس.

قال العلامة الخطيب رحمه الله تعالى: ولم يقل: في مجلس صدق لأن القعود جلوسٌ فيه مكث ـ أي: مكث طويل ثابت ـ ومنه قواعد البيت. اهـ فإنها ثابتة باقية.

فائدة: روى ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب قال: دخلت المسجد وأنا أرى أني أصبحت، فإذا عليَّ ليل طويل، وليس فيه ـ أي: المسجد ـ أحد غيري، فنمت فسمعت حركةً خلفي ففزعت

فقال: أيها الممتلىء قلبه فَرَقاً ـ أي: خوفاً ـ لا تفرَق أو لا تفزع وقل: اللهم إنَّك مليك مقتدر، ما تشاء من أمر يكون ـ ثم سل ما بدا لك ـ أي: ادع الله تعالى بما شئت ـ.

قال سعيد: فما سألت الله تعالى شيئاً إلا استجاب. اهـ

فكان سعيد يقول في مقدمة دعائه:

اللهم إنك مليك مقتدر، ما تشاء من أمر يكون ثم يدعو.

وها أنا أقول: اللهم إنك مليك مقتدر، ما تشاء من أمر يكون، فأفض علينا من البركات والأسرار والأنوار المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم ـ آمين.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ﴾.

فهو سبحانه الملك المتصرف في مخلوقاته، وهو على كل شيء قدير، لا يُعجزه شيء مهما عظم الشيء، ولا يصعب عليه شيء مهما كبر الشيء وكثر، فالشيء الصغير، والشيء الكبير، والقليل والكثير؛ بالنسبة لقدرته التي لا نهاية لها كل ذلك على حدٍّ سواء.

قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ أي: بصعب.

يقال: عزَّ هذا الأمر على فلان أي: صعب عليه.

فهو سبحانه لا يصعب عليه شيء.

وقال تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾.

فالكثير والقليل والصغير والكبير بالنسبة لقدرته سواء، فإذا أراد الله تعالى إيجاد شيء قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

فهو سبحانه إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كن﴾ مرة واحدة، لا يحتاج ذلك الشيء إلى تأكيد ثانية، فيكون ذلك الشيء كائناً أسرع ما يكون، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ وهذا التشبيه يدل على غاية السرعة.

وقد بين سبحانه في آية أُخرى، أَنَّ نفوذ أمره هو أقرب من لمح البصر قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ والمعنى: بل هو أقرب.

وهذا كله يدل على عظيم قدرته سبحانه، وأنه لا يعجزه شيء مهما عظم ذلك الشيء، ويتساوى في ذلك إيجاد المخلوقات العادية والخوارق للعادات.

قال الله تعالى إخباراً عن السيدة مريم: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

فخَلْقُ سيدنا عيسى عليه السلام من غير أب، وخَلْقُ غيره من وَالدَيْن هما سواء، وكلاهما مخلوق بقوله تعالى: ﴿كُن﴾.

وقال تعالى مخبراً عن سيدنا زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾.

فخَلْقُ سيدنا يحيى وخَلْقُ سيدنا زكريا عليهما السلام هما سواء

بالنسبة للقدرة الإلَهية، والكلُّ مخلوق بقوله تعالى: ﴿كن﴾.

ومما يدل على عظمة قدرته سبحانه وأنه على كل شيء قدير ـ يدل على ذلك تلك المعجزات الخارقة للعادة، التي أيَّد الله تعالى بها رسله صلوات الله تعالى عليهم، وصدَّق بها دعوتهم، وأقامها حجةً على أعدائهم، ونصرة لهم، وقد ذكر الله تعالى لنا ذلك في كتابه العزيز.

وتفصيل الكلام عليها والبحث فيها له موضع آخر إن شاء الله تعالى.

وهنا أذكر بعضاً منها على وجه الإجمال:

روى الإمام البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ يُرِيَهم آية ـ أي: تشهد له بصدق رسالته صلى الله عليه وآله وسلم ـ فأراهم القمر شِقَّين حتى رأوا حراء بينهما.

والمعنى: أن القمر انشق شقتين متباعدتين، حتى أنَّ الناظر إليهما في تباعدهما يرى جبل حراء بينهما، وكان ذلك بسبب طلب كفار قريش أَنْ يريهم معجزة، وأرادوا معاجزته في زعمهم، فطلبوا منه انشقاق القمر، وكان ذلك عن موعد واجتماع لمراقبة القمر وانشقاقه.

وجاء في رواية البيهقي وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر بمكة حتى صار فِرقتين ـ أي: نصفين متباعدين، ظاهرين للعيان ـ يرى ذلك كل إنسان، فقال كفار قريش: هذا سحرٌ

سحركم به ابن أبي كبشة ـ يريدون أن النبي صلى الله علبه وآله وسلم سحرهم.

فقال بعضهم: انظروا السُّفَّار ـ أي: المسافرين الماشين في الليل قادمين من الشام إلى مكة بتجاراتهم ـ فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به.

قال: فسئل السُّفَّار وقد جاؤوا من كل جهة إلى مكة فقالوا كلهم: رأينا ذلك.

فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾.

فانشقاق القمر كان معجزة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبرهاناً ساطعاً، ودليلاً قاطعاً، وحجة إلَهية على جميع العباد إلى يوم المعاد، تشهد لهم وتُشهدهم أَنّ سيدنا محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقاً، وكان ذلك على مشهد من الجموع الكثيرة من أعدائه صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى مشهد الجماهير من أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ذكر الله تعالى معجزة انشقاق القمر في القرآن الكريم حجة قاطعة على حَقِّيَّة رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبينة ساطعة إلى يوم الدين.

فكأنَّ جميع العالم قد شاهد تلك المعجزة الدالة على حَقِّيَّة رسالته صلى الله عليه وآله وسلم، والدالة على عظمة قدرة الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير.

ومن ذلك **معجزة الإسراء والمعراج**، وما في ذلك من طَيِّ المسافات الشاسعة، والأبعاد الواسعة، وعُروجه صلى الله عليه وآله

وسلم إلى السموات السبع، ثم إلى سدرة المنتهى ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، ثم إلى ما هنالك وقد تجلّى عليه رب العزة بالتكليم والرؤية العيانية.

وقد ذكر الله تعالى قضية الإسراء بالنص، وأشار إلى قضية المعراج في فاتحة سورة الإسراء قال الله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

كما ذكر سبحانه قضية المعراج نصاً صريحاً في أول سورة النجم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾.

وقد أوضحت الكلام على تلك الآيات الكريمة مفصلاً في كتابي: (الشهادة) وبينت بعض وجوه الحِكم في الإسراء والمعراج مع الأدلة فارجع إليه، كما ذكرتُ وجوهاً من الأدلة القاطعة على أن الإسراء والمعراج كانا بروحه وجسمه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، حقاً يقيناً لا مجال للشك في ذلك أصلاً.

ومن مظاهر عظمة قدرة الله تعالى اهتزاز جبل أحد فرحاً وطرباً لَمَّا عَلاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم يأمره صلى الله عليه وآله وسلم بالسكون فيسكن.

روى الإمام البخاري بإسناده، عن قتادة عن أنس رضي الله عنه حدثهم، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صَعِدَ أُحُداً وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فرجف بهم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اثبُت أحد ـ أي: اسكن

يا أُحُد ـ فإنما عليك نبيٌّ وصدِّيق وشهيدان»[1].

وإنما اهتزَّ جبل أُحد لَمَّا صعده صلى الله عليه وآله وسلم من قُوَّة تأثُّره بالفرح والطرب، لمّا علاه الحبيب الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، فغلبه حال الوَجْد فاهتزَّ طرباً، فإن جبل أحد شديد الهيام والمحبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاعتبر أيها المؤمن المحب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ويدلك على ذلك كله، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد شهد لجبل أحد بالمحبة:

جاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أُحُداً جَبَلٌ يحبنا ونحبه».

قال في: (جامع الأصول): رواه الشيخان والترمذي ومالك.

قال: وفي رواية قال ـ أنس رضي الله عنه ـ: نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أحد فقال: «إنَّ أحداً جبل يحبنا ونحبه» متفق عليه.

قال: وفي رواية الموطأ والترمذي أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طلع له أحد فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن إبراهيم حرَّم مكة، وإني أُحرِّم ما بين لابتيها» يعني المدينة المنوَّرة بأنواره صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا الدعاء مروي في: (الصحيحين) أيضاً.

وعن أبي حُميد الساعدي رضي الله عنه قال: خرجنا مع

---

(١) رواه في: المناقب، وقد رواه غير البخاري، وله روايات متعددة.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غزوة تبوك، وساق الحديث وفيه: (ثم أقبلنا حتى قدمنا وادي القرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني مُسرع، فمن شاء منكم فليسرع، ومن شاء فليمكث».

فخرجنا حتى أشرفنا على المَدينة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هذه طابة، وهذا أُحد وهو يحبنا ونحبه»[(١)]).

فهذه الأحاديث تَدلك قطعاً على أن اهتزاز جبل أحد، لمّا علاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ هو اهتزاز مُحب، غلبه حال الوجد والفرح بمحبوبه صلى الله عليه وآله وسلم.

كما اهتز المنبر متأثراً بوعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

كما ورد في: (مسند) الإمام أحمد، وأصله في: (صحيح) مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما: (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول هكذا بيده يحركها: يقبل بها ويدبر: «يمجِّد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم».

فرجف برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم المنبر، حتى

---

(١) قال في: (جامع الأصول): أخرجه مسلم هكذا وساق الحديث قال: والحديث بطوله قد أخرجه هو والبخاري. اهـ

قُلنا: لَيخرنَّ به، أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم)؟!

وفي رواية البزار: (فقال المنبر هكذا فذهب وجاء ثلاث مرات).

هذا وإنَّ من مظاهر عظمة قدرة الله تعالى إنطاقه للجمادات والأحجار، والنباتات، والأشجار، والبهائم والحيوانات، فإنها أنطقها الله تعالى بالشهادة أَنَّ سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأنطقها بالتسليم عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

روى الترمذي وغيره عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه قال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله) صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وروى الترمذي وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: بمَ أعرف أنك رسول الله؟

قال: «أَنْ أَدْعُوَ هذا العِذْق ينزل من النخلة، فيشهد لي أني رسول الله».

فدعاه فجعل العِذْق ـ أي: عرجون النخل ـ ينزل من النخلة حتى سقط إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقال: السلام عليك يا رسول الله.

ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ارجع إلى

موضعك» فعاد إلى موضعه والتأم ـ أي: اتصل بالشجرة ـ فأسلم الأعرابي).

فالجمادات والأشجار والأحجار والحيوانات كلها تشهد أن لا إلّه إلا الله وأن سيدنا محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقد أنطقها الله تعالى بقدرته ـ وهذا باب واسع جداً فالله على كل شيء قدير.

وقد أيّد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأنواع المعجزات، وخوارق العادات، التي فيها الحجة على جميع الطبقات وسائر المخلوقات، لأنه صاحب الرسالة العامة الباقية إلى يوم الدين، كما فَصَّلت الكلام على ذلك مع الأدلة في كتاب: (شهادة لا إلّه إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وعلينا معهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

فهو سبحانه الملك المطلق، بيده الملك ـ أي: التصرف العام المطلق له وحده لا شريك له، وهو الملك الحق كما قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: المتصرف في مخلوقاته، وفي جميع الأمور بالحق، فلا يَظلم أحداً، فهو المتصرف بالحق في: قضائه وقَدَره، وأفعاله كلها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾.

فهو المحمود في جميع تصرفاته في مخلوقاته، وفي جميع أفعاله وأحكامه، فهو الله تعالى له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

وفي الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما، أَنَّ النبي صلى الله

عليه وعلى آله وسلم كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة ثلاث مرات: «لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ»[١].

وقد ذكرت في كتاب: (الشهادة) فضائل هذه الصيغة ومواضع استحبابها فارجع إليه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾.

بعد ما بين سبحانه في الآية السابقة أَنَّه سبحانه بيده الملك أي: التصرف المطلق العام، النافذ في جميع العوالم، لا يشاركه أحد ـ بعدما ذكر ذلك بَيَّن وجوهاً من الأدلة المشهودة، الدالة على أنه سبحانه هو وحده المَلِكُ المتصرف في مخلوقاته، كما هو مقتضى علمه وحكمته سبحانه، والدالة على عظيم قدرته فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ فهذا الموت وهذه الحياة مَنِ الذي أوجدهما؟ ومَنْ هو المحيي والمميت؟ ومَنِ الذي أحيى هذا في زمن كذا وأماته في زمن كذا؟ وهل يقدر أحد غير الله تعالى على ذلك، أو على تحويل ذلك؟

فالجواب قطعاً هو أَنه سبحانه وحده بيده الملك، وأنه على كل شيء قدير، وأنه النافذ أمره، العظيم سلطانه، وأنه تعالى الملك الحق، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.

---

(١) وجاء في بعض روايات هذا الحديث زيادة: «ولا رادَّ لما قضيت» إلى تمامه.

قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وفي هذا إشهادٌ للعباد أنَّ الله تعالى هو حق واجب الوجود، وأنه هو وحده الملك المتصرف في جميع العوالم، يحكم ما يشاء، وهو الفعال لما يريد، وأنَّ ما سواه سبحانه كلهم له عبيد، وأنه سبحانه لم يكن له شريك في الملك.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فأقام سبحانه دليلاً مشهوداً على أنه لا إلّه إلا الله، وأنه سبحانه هو الملك وحده، المتصرف في العوالم ـ أقام على ذلك دليلاً مشهوداً بأنه سبحانه هو يحيي ويميت وحده، وأنَّه الملك الواحد القهار، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وقد وصف الله تعالى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأنَّه النبي الأمي، وفي هذا رَدٌّ على الكفار الذين زعموا أن هذا القرآن الذي جاء به هو من عنده صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أَو أَنَّه تَلَّقاه من الكتب السابقة، فبين سبحانه بأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم نَشأ أمياً ـ باعتراف قومه الذين كفروا به، فلما بلغ أربعين سنة جاءهم بهذا القرآن العظيم الجامع لعلومٍ لا حدَّ لها ولا انتهاء،

جاءهم به على وجه معجز من عِدَّة وجوهٍ، وقد تحداهم أَنْ يأتوا بسورة مثله فعجزوا.

إذاً ما هو إلا رسول الله ونبيه، علَّمه الله تعالى، وأوحى إليه هذا القرآن الكريم، وقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾.

ذهب كثير من أهل العلم إلى أَنَّ الموت هو صفة وجودية تُضادُّ الحياة، واستدلوا على ذلك بتعلق الخلق به حيث قال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ قالوا: والمراد بالخلق هنا الإيجاد والتكوين، كما استدلوا على أن الموت هو أمر وجودي ـ أي: صفة وجودية مضادَّة للحياة استدلوا على ذلك بما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (قرأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ وقال: «يُؤتى بالموت كأنه كبش أملح، حتى يُوقف على السور بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، فيشرئبُّون ـ أي: يرفعون رؤوسهم لينظروا إليه ـ ويقال: يا أهل النار، فيشرئبون، فيقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت ـ فَيُضْجع ويُذبح» أي: على مرآى أهل الجنة وأهل النار).

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فلولا أَنَّ الله تعالى قضى لأهل الجنة بالحياة والبقاء؛ لماتوا فرحاً، ولولا أن الله تعالى قضى لأهل النار بالحياة والبقاء؛ لماتوا ترحاً» أي: حزناً وغماً، لأنهم كانوا

ينتظرون الموت، وإذا بالموت قد ذُبح، فأيقنوا أنهم في العذاب مؤبَّدون.

ورواه الإمام البخاري ولفظه:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أَمْلَحَ، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت ـ وكلُّهم قد رآه.

ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت ـ وكلُّهم قد رآه.

فَيُذْبح بين الجنة والنار، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت».

ثم قرأ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا».

قال العلامة العيني في شرحه: وقوله: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ فُسِّر بهؤلاء، ليشير إليهم، بياناً لكونهم أهل الدنيا، إذ الآخرة ليست دار غفلة. اهـ.

ومن المعلوم أَنَّ هذا يكون بعدما يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، كما جاء في رواية الإمام أحمد، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار؛ يُجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار.

فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبُّون

وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت».

قال: «فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت».

قال: «فيؤمر به فَيُذبح».

قال: «فيقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت».

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وأشار صلى الله عليه وعلى آله وسلم بيده ثم قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا».

والمعنى: أَنَّ أهل الدنيا الذين أَعْمتهم وأصمَّتهم الدنيا عن الآخرة، هم في غفلة الدنيا، معرضون عن الآخرة، وعن آيات الله تعالى.

فاستدل كثير من أهل السنة بتلك الأحاديث على أَنَّ الموت هُوَ أَمْرٌ وجودي مضادٌّ للحياة.

وذهب قسم آخر كثير من أهل العلم: إلى أَنّ الموت هو أمر عَدَمِيٌ ـ أي: عدم الحياة، بسبب مفارقة الروح للجسم.

وأجابوا عن الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ بأن المراد بالخلق هنا: الخلق التقديري لا الخلق الإيجادي، فمعنى خلقه حينئذٍ: تقديره، أو إزالة الحياة[1].

---

(١) انظر تفسير العلامة القرطبي، والبيضاوي، والآلوسي ـ وغيرهم.

وأجابوا عن الأحاديث المتقدمة بأن ذلك من باب التمثل في ذلك العالم[1].

وبيان ذلك أَنَّ الخلْق يأتي في القرآن الكريم بمعنى الإيجاد والتكوين، وهذا هو الأكثر الأغلب في الآيات الكريمة ـ وهذا خاص به سبحانه، لا يشاركه فيه أحد جل وعلا.

قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وهكذا آيات وآيات.

وقد يراد بالخلق: الخلق التصويري لا الإيجادي:

قال الله تعالى مخبراً عن سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ

---

(١) وذلك أَنّ هنالك عالماً يُسمى عَالم المثال، تتمثل فيه جميع الأشياء الحسية والمعنوية، والشهودية والغيبية، وقد فَصَّلت الكلام عليه في كتاب: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) فارجع إليه.

ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ .

فمعنى: ﴿أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ أي: أُصَوِّر من الطين كهيئة الطير، ثم إن الله تعالى يقول لتلك الصورة: ﴿كن﴾ عند نفخ عيسى عليه السلام فيها، فتكون طيراً بإذن الله تعالى ـ أي: بإرادته وأمره جل وعلا.

فالخلق المضاف لعيسى عليه السلام هو التصوير، وأمَّا تكوين ذلك طيراً فبخلق الله تعالى، وإيجاده وحده لا شريك له.

وقد جاء في الحديث المتفق عليه عن عمر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إنّ الذين يصنعون هذه الصور يُعذَّبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيُوا ما خلقتم» أي: ما صوَّرتم.

وقد يراد بالخلق: الخلق التقديري كما هو أحد القولين في هذه الآية التي نحن فيها، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ .

فقال بعضهم: المراد به الخلق التصويري.

وقال بعضهم: المراد به الخلق التقديري.

وأما الإيجاد فهو بقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ .

وقد يراد بكلمة الخلق: الاختلاق والكذب.

قال الله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١٦ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ الآية ـ أي: كذباً وافتراء.

والمعنى: أنّ الأصنام التي تعبدونها هي لا تضر ولا تنفع،

وإنما اختلقتم لها أسماءً، وافتريتم فسميتموها آلهة، وإنَّما هي مخلوقة مثلكم، وأَنْتُم تخلقون إفكاً ـ أي: تختلقون كذباً حيث تسمونها آلهة.

هذا وقد ذكرت كلام العارفين حول قضية الموت في كتابي: (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) كما تكلمت كلاماً مفصلاً حول عالم البرزخ، ومراتب الناس في البرزخ، وأحوال أهل البرزخ، وتكلمت حول الروح الإنساني مفصلاً في كتاب: (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) فارجع إليه تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

والمعنى: أن الله تعالى هو الذي خلقكم، وخلق الموت والحياة يعتريانكم، وذلك لِيبلوكم ـ أي: يختبركم بالتكاليف الشرعية، والأوامر الإلٰهية ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ بأوامره وشريعته سبحانه وتعالى.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

والمعنى: أن الله تعالى هو الذي خَلَق هذا الإنسان العاقل المدرك، ذا المنطق والبيان، خلقه من تلك النطفة التي هي أمشاج ـ أي: أخلاط مختلطة من ماء الرجل والمرأة ـ وهذا معلوم عند كل أحد.

ثم إنَّه سبحانه طوَّره من حال إلى حال، وصوَّره، وشق سمعه وبصره، فصار إنساناً؛ وفي هذا برهان قاطع على وجوده سبحانه، ووحدانيته، وعظيم قدرته، وأنَّه هو الله رب العالمين.

ثم بين الحكمة في خلق الإنسان فقال: ﴿نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾.

﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ بالتكاليف الشرعية، والأوامر الإلَهية، التي فيها نجاحه وفلاحه، وصلاح أمور دينه ودنياه.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ أي: فلذلك أعطيناه السمع والبصر، وجعلناه أهلاً لأن يتلقى التكاليف، والأوامر الإلَهية، ولأن يسمع وينظر في آيات الله تعالى التدوينية، والآيات النفسية والآفاقية الكونية، فيعلم عظمة خالقه وبارئه، وسعة علمه سبحانه، وكمال حكمته ونفوذ قدرته.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾.

وبذلك يُعلم أن الله تعالى هو الربُّ وحده، وهو الإلَه الحق الذي تجب عبادته ومحبته.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: دللناه وبيَّنَّا له، وأوضحنا له طريق الحق والخير، والسعادة والرشاد، وذلك بواسطة الرسل، وإنزال الكتب الإلَهية عليهم صلوات الله تعالى عليهم، فإنهم هم الهُداة الذين يدلون العباد على كل خير، ويحذرونهم من كل شر.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: دللناهم على الخير، وبيّنا لهم ذلك بواسطة رسولهم صالح على رسولنا وعليه الصلاة

والسلام ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الآية.

وقال تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

وبهذا أقام الله تعالى الحجة على العباد كلهم.

قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

فجاءت رسل الله تعالى بالهدى والبينات، والدلالة على طريق الفلاح والنجاح، وسعادة الدنيا والآخرة؛ فالناس بعد ذلك منهم الشاكر ومنهم الكفور.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

وقد كان كل رسول يُبعث إلى قومه خاصة، وقد أرسل الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى الثقلين: الإنس والجن كافة.

وختم الله تعالى به النبوات والرسالات، فلا نبي ولا رسول بعده صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ولذلك كانت شريعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم أوسع الشرائع، وأجمعها لمصالح العباد، وسعادتهم، وفلاحهم ونجاحهم، على توالي الأمم واختلافها، وتعاقب الأزمنة وامتدادها إلى يوم القيامة، لا تحتاج شريعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى تغيير ولا تبديل، ولا تعديل ولا تحويل.

فهي المحكمة المبرمة، والصالحة المصلحة لأهل كل عصر وزمان، وبُقعة ومكان.

روى الإمام مسلم وغيره، عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «فُضِّلت على الأنبياء بست: أُعطيت جوامع الكلم، ونُصرتُ بالرعب، وأُحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون».

ويدخل في عموم الخلق عالم الجن.

قال الحافظ في: (الفتح): وثبت التصريح بذلك في حديث: «وكان النبي يُبعث إلى قومه وبُعثت إلى الإنس والجن» فيما أخرجه البزار. اهـ

قال عبد الله: وقد ذكره الحافظ السيوطي في: (الخصائص) وهذا لفظه:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أُعطيت خمساً لم يُعطها أحد قبلي من الأنبياء: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ولم يكن أحد من الأنبياء يصلي حتى يبلغ محرابه ـ أي: مَعبده ـ ونصرتُ بالرعب مسيرة شهر يكون بين يدي إلى المشركين؛ فيقذف الله الرعب في قلوبهم، وكان النبي يبعث إلى خاصة قومه وبعثت إلى الجن والإنس، وكانت الأنبياء يعزلون الخُمُسَ فتجيء النار فتأكله؛ وأُمرتُ أن أقسمه بين فقراء أمتي، ولم يبق نبي إلا أعطي سؤله، وأَخَّرْتُ أنا دعوتي شفاعة لأمتي».

وعزاه الحافظ السيوطي إلى البخاري في: (تاريخه) والبزار، والبيهقي، وأبي نعيم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

في هذا دليل على عظمة ملكه سبحانه، ونفوذ تصرفه في خلقه إحياءً وإماتةً، وفيه بيان أنه سبحانه هو الملِك الحق، لم يخلق عباده عَبثاً؛ وإنما خلقهم لِحِكَمٍ عالية، ويتصرف بهم بمقتضى حكمتـه الربانيـة التي لا يشاركه فيها أحد.

قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾.

والمعنى: أفحسبتم أن الله تعالى خلقكم عبثاً أي: لا لحكمة، ويترككم هملاً دون أن يَتعهَّدكم بالتكاليف التي فيها الأوامر والمناهي، والإرشادات والتوجيهات إلى ما فيه صلاحكم وسعادتكم؛ في الدنيا والآخرة، وإلى ما فيه خير الدنيا والآخرة، وظننتم أنكم لا ترجعون إلى ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ويحاسبكم عليها؛ بل هناك رجوع إلى الله تعالى الملك الحق، وهناك مسؤولية ومحاسبة ومجازاة.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هو مالِكُها، ومَلِكُها المتصرف فيها وحده ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾.

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

أي: مهملاً بلا تكليف ولا مسؤولية، ولا جزاء.

كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه في هذه الآية: ﴿أَيَحْسَبُ

﴿ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: لا يُؤمر ولا يُنهى. اهـ.

فالله تعالى هو رب العالمين، خالقهم ورازقهم، ومربيهم، وهو أحكم الحاكمين، وهو أرحم الراحمين، أمر عباده بأوامر تدلهم على كل خير، وتوصل إليهم كل خير في الحال والمآل، ونهاهم عن مناهِيَ تحذرهم من كل شَرٍّ في الحال والمآل.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

فقد أمر الله تعالى المؤمنين بالتقوى، وأن يُعِدُّوا العدة؛ وهي الأعمال الصالحة ـ لغد الآخرة المحقق وقوعه، وهو يوم القيامة.

وإذا كان العاقل يسعى لمستقبله في دار الدنيا الفانية، وقد يأتيه الموت قبل مستقبله الذي يؤمله ـ إذا كان الأمر كذلك فعلى العاقل من باب أولى وألزم وأوجب، أن يُعِدَّ العدة، وأن يعمل للمستقبل المحتَّم وقوعه ومجيئه وهو الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فهذا اليوم محقق الوقوع قطعاً، ويجب على الإنسان أن يعلم أنه سوف يُعرض على الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

فلتكن سريرتك صالحة، وعلانيتك صالحة: بالأقوال والأعمال الصالحة.

روى ابن أبي الدنيا وغيره عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخفُّ عليكم في الحساب غداً أن تحاسِبوا أنفسكم اليوم، وتزيَّنوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ـ أي: تعرضون على عالِمِ السر والنجوى، الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر، والضمائر، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ـ .

واعلم أيها الإنسان: أنك سوف تلقى الله تعالى، ويسألك عما عملتَ فيما جاء به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فَأْتَمِر بما جاء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الأوامر، وانتهِ عما نهى عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولا تتهاون، ولا تتكاسل، ولا تكن هازلاً فإن الأمر جدّ، فعليك بالجدّ، ولا تتلاعب في شريعة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فما أحلَّه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فهو حلال، وما حرَّمه فهو حرام، لا تبديل، ولا تغيير، ولا احتيال، ولا تحويل، ولا خديعة ولا مكر.

جاء في صحيح البخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه وفيه أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال:

«ولَيَلْقينَّ اللهَ أحدُكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، فليقولَنَّ ـ أي: للعبد ـ ألم أَبعثْ إليك

رسولا فبلغك؟ فيقول العبد: بلى».

ـ أي: فما عملت بما جاءك به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟

ولذلك كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يكثر في خطبه من قوله: «ألا هل بلَّغتُ اللهم اشهد».

وقد خطب صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم حجة الوداع في ذلك الجمع العظيم، والحفل الكبير، وأطال في ذلك ثم قال: «أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون»؟

قالوا كلهم: نشهد يا رسول الله أنك قد بلَّغتَ، وأدَّيتَ، ونصحتَ.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم ورفع أُصبعه إلى السماء: «اللهم اشهد اللهم اشهد».

فيا أيها المؤمن والمؤمنة اجعلوا ذلك نُصبَ أعينكم، وتمسَّكوا بشريعة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولا تزيغوا عنها، ولا تكونوا من الذين أعمتهم الدنيا، وأصَمَّتهم، وطَمَسَتْ على قلوبهم، وسلَبَت عقولهم فهم عن الآخرة غافلون.

اللهم اجعلنا نخشاك كأننا نراك، وأسعدنا بتقواك، ولا تُشقنا بمعصيتك، يا أرحم الراحمين، بجاه إمام الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم وعلى آله وآلهم أجمعين، وعلينا معهم يا رب العالمين ـ آمين، عدد خلقك، ورضاء نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك، كلما ذكرك وذكره الذاكرون، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون.

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

﴿الْعَزِيزُ﴾: هو اسم من أسماء الله تعالى، ويشتمل على معانٍ متعددة، وكلها من صفات الكمال المتصف بها سبحانه وتعالى، على وجه لا يشاركه فيها أحد.

فهو سبحانه العزيز أي: المتعالي والنزيه عن الشبيه، والنظير والمثيل.

قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ﴾ أي: المتعالي النزيه عن المثيل والنقائص ﴿الْحَمِيدِ﴾ أي: المتصف بالكمالات والمحامد التي لا حد لها ولا انتهاء.

وهو سبحانه العزيز أي: الغالب الذي لا يُغلب.

وهو سبحانه العزيز أي: القوي الذي لا يُعجزه شيء.

وأما ﴿الْغَفُورُ﴾: فهو سبحانه وصف نفسه بأنه غافر.

قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ الآية.

ووصف نفسه بأنه الغفور كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

ووصف نفسه بأنه غفّار قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾.

وجميع ذلك يدل على اتصافه بالمغفرة.

والغفر في اللغة يدل على الستر والوقاية ومنه سمي المِغفر وهو ما يُلبس على الرأس في حالات الحروب، فإنه يستر الرأس ويَقيه من ضربات العدوّ.

فليس كل ما يستر الرأس فهو مِغفر، بل المِغفر هو يستر الرأس؛ وفيه الوقاية من ضربات العدوّ.

وإنّ مغفرة الله تعالى لذنوب العباد فيها ستر عليهم، ووقاية لهم من شرور الذنوب، وعقوباتها، وآفاتها، وآثارها الظلمانية على القلوب والوجوه.

فإذا استغفر المذنب وتاب صُقل قلبه، وانجلت تلك الظلمات، وَوُقي من عقوبات ذنوبه ومعاصيه.

وإنما ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ ليبين أنه العزيز الغالب، القادر الذي لا يعجزه عقاب من أساء العمل، وأنه الغفور لمن تاب من إساءة عمله؛ وأحسن العمل، فإنه سبحانه واسع المغفرة.

فعلى المسيء عمله أن يتوب إلى الله تعالى، ويستغفره من مساوئه وذنوبه مهما كثرت، وعظمت، فإنّ مغفرة الله تعالى أعظم وأوسع، وإن باب التوبة مفتوح لا يُغلق حتى تطلع الشمس من مغربها.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «مَن تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه».

وروى مسلم أيضاً عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إن الله عز وجلَّ يبسط يده بالليل ليتوبَ مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل؛ حتى تطلع الشمس من مغربها».

وفي هذا حثٌّ على المبادرة للتوبة، والتعجل فيها، وعدم القنوط من رحمة الله تعالى.

وروى الترمذي وصححه عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إنَّ الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغرغِر».

ومن المعلوم أنَّ الإنسان لا يدري متى يموت، وقد يأتيه الموت فجأة؛ فعليه أن يعجِّل بالتوبة فلا يهمل ولا يمهل، ولا تغرنَّه الحياة الدنيا، ولا أموالها، ولا زخارفها، فإن ذلك كله متروك، ومآله للفناء.

ولا ينبغي للمسلم أن يكون جمَّاعاً للمال، منَّاعاً للخير، ويكون همه الأكبر الاستكثار من الأموال الكثيرة، دون أن يُؤَدِّي حقوقها التي أوجبها الله تعالى فيها وهي الزكاة.

قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

فهو يجمع ويمنع، ولا يؤدي زكاته، ولا يصل أرحامه الفقراء بالمال، ولا يُغيث ملهوفاً قصده بقرض حسن، أو صدقة لوجه الله تعالى ـ آمالُه في الدنيا وجمع حطامها طويلة، كأنه خالد فيها.

ألم يعلم أَنَّ أجله في الدنيا هو أقصر من طول آماله فيها، كما جاء ذلك كله في تنبيهه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتذكيره، وإنذاره وتحذيره، صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

فعن أنس رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم خطاً وقال: «هذا الإنسان».

وخط إلى جانبه خطاً وقال: «هذا أجله».

وخط خطاً آخر بعيداً منه وقال: «هذا الأمل».

«فبينما هو ـ أي: الإنسان ـ كذلك إذ جاءه الأقرب» أي: أجله.

قال في: (التيسير): أخرجه البخاري والترمذي.

وعن بُريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هل تدرون ما مَثل هذه وهذه».

ورمى بحصاتين؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هذا الأمل ـ يشير إلى الحصاة البعيدة ـ وذاك الأجل» ـ يشير إلى الحصاة القريبة رواه الترمذي.

وروى البزار عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أربعة من الشقاء: جمود العين ـ أي: قلة دمعها من خشية الله تعالى ـ وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا».

وروى ابن ماجه، عن جابر رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال:

«يا أيها الناس توبوا إلى الله تعالى قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغَلوا، وصِلُوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السر والعلانية: تُنصروا وتُرزقوا وتُجبروا».

وقد بين النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن الذي يبقى مع الإنسان بعد موته هو عمله:

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «يتبع الميت ثلاث: أهله، وماله، وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله، ويبقى عمله».

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾.

بعد ما ذكر سبحانه أنه بيده الملك وحده لا يشاركه فيه أحد، وأنه على كل شيء قدير ـ ذكر دليلاً نفسياً على حقية ذلك مشهوداً بالعيان، وهو الحياة والموت، وبين الحكمة في ذلك كما تقدم.

ثم ذكر سبحانه دليلاً كونياً آفاقياً مشهوداً فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: بعضها فوق بعض، وبَيْن كل واحدة وأخرى أبعاد واسعة.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.

وقد دلت أحاديث المعراج أيضاً على أنها سبع طباق بعضها فوق بعض، وأن بين كل واحدة وأخرى أبعاداً شاسعة، وأنها لها أبواب، وعلى كل باب خَزَنة كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

وقد دلت الآيات القرآنية على أن كل سماء لها أمرها الخاص بها:

قال الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

والإيحاء: هو الإعلام عن طريق خفي سريع ينتهي إلى الموحىٰ إليه.

وجيء هنا بحرف ﴿في﴾ حيث قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ ولم يقل: إلى كل سماء لتضمنه معنى الإيداع.

والمعنى: أَعْلَمَ الله تعالى كلَّ سماء أمرها وأودعه فيها.

وذلك أن الله تعالى أوحى في كل سماء أمرها المناسب لها استعدادها.

والمراد بالأمر: ما يصلح به حالها، وما يصلح به حال سكانها الذين أسكنهم الله تعالى في كل سماء: من عالَم الملائكة، وعالم الروح، وما رتَّب فيها من منازل الأنبياء فيها صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم أجمعين.

كما جاء في أحاديث المعراج أن آدم عليه السلام في السماء الأولى، وعيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام في السماء الثانية، ويوسف عليه السلام في الثالثة، وإدريس عليه السلام في الرابعة، وهارون عليه السلام في الخامسة، وموسى عليه السلام في السادسة، وخليل الرحمن إبراهيم على نبينا وعليهم الصلاة والسلام في السابعة.

وهكذا الأنبياء كل واحد منهم في السماء حسب أمر الله تعالى

في تلك السماء، لمناسبات واستعدادات أعدّهم الله لها، وما وَكل إليهم من المهمات والأمور المتعلقة بتلك السماء والأرض، وذلك لأن من جملة الأمور الموحاة في كل سماء ـ ما يتعلق بعالم الأرض، وما يخلق الله تعالى في الأرض، وما يجري على ظهرها، فهذه الأمور من السماء الموحاة فيها إلى عالم الأرض.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.

فإن جميع ما يُخلق في عالم الأرض، وما يحدث فيها؛ كل ذلك له وجود أمريّ في السماء التي أوحيَ فيها ذلك الأمر.

وقد اطَّلع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على ذلك كله ليلة المعراج، وعلى ما هو فوق ذلك من العوالم العلوية، وما أودع الله تعالى فيها، وقد فصلت الكلام على المعراج في كتبي.

فما يحصل من التوالد والتناسل له تعلق بأمر السماء الدنيا، وكذلك سعادة السعداء من ذرية آدم عليه السلام، وشقاوة الأشقياء من ذريته، وبيان أصحاب الجنة، وبيان أصحاب النار منهم؛ كل ذلك راجع إلى السماء التي فيها آدم عليه السلام.

ويدل على ذلك ما رواه البخاري وغيره، في حديث المعراج يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فلما فَتح علونا السماء فإذا رجل قاعد عن يمينه أَسْوِدة ـ أي: أشخاص جمع سواد كأزمنة جمع زمان ـ وعن يساره أسْوِدة، فإذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل شماله بكى» الحديث.

وفيه «فقال جبريل عليه السلام: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه، فسلمت عليه فردَّ عليَّ السلام ثم قال: مرحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح.

قلت: يا جبريل ما هذه الأسْوِدَة؟

فقال: هذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَم بنيه ـ أي: أرواح بنيه ـ فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار» الحديث.

فهذه النَسَم ـ أي: الأرواح ـ هي الأرواح التي لمّا تدخل الأجساد بعدُ، ولكن سوف تدخلها، فإن الأرواح هي مخلوقة قبل الأجساد، ومستقرها عن يمين آدم عليه السلام إن كانوا سعداء، وعن شماله إن كانوا أشقياء.

وأما الأرواح التي دخلت في أجسادها فليست مرادة هنا، وكذلك الأرواح التي دخلت في أجسادها الدنيوية؛ ثم انتقلت بالموت إلى البرزخ، فليست مرادة هنا أيضاً، بل هي كما أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

فقد روى الطبراني والبيهقي وغيرهما بسند حسن، عن أم شريك بنت البراء رضي الله عنها وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أَنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إنَّ نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت، ونسمة الكافر في سِجِّيْن».

وقال بعض العارفين المحققين: إن النسم التي رآها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هي جميع الأرواح الآدمية، باعتبار تمثُّلها في عالَم المثال ـ والله تعالى أعلم.

وقد تكلمت على سعة عالم المثال في كتاب: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) فارجع إليه.

وأما ما يتعلق بأشراط الساعة، وما يجري بين يديها: كظهور الدجَّال، وغير ذلك فمرجع ذلك إلى الأمر الموحى في السماء الثانية التي فيها سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

يدلك على ذلك ما يلي:

روى الإمام أحمد، وابن ماجَهْ، وغيرهما، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«لقيت ليلة أسري بي: إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا أمر الساعة، فردُّوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها، فردُّوا الأمر إلى موسى، فقال: لا علم لي بها، فردوا الأمر إلى عيسى فقال: أمَّا وجبتها ـ أي: وقتها المعين لها وتقع فيه ـ فلا يعلم بها أحد إلا الله تعالى، وفيما عهد إليَّ ربي ـ أي: أعلمه وهو في السماء الثانية ـ أن الدجال خارج ـ أي: سيخرج في آخر الزمان ـ ومعي قضيبان ـ أي: أنزل إلى الأرض ومعي قضيبان ـ فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، فَيُهلكه الله تعالى إذا رآني، حتى إنَّ الحجر والشجر يقول: يا مسلم إنَّ تحتي كافراً فتعال فاقتله، فيهلكهم الله تعالى ـ أي: يهلك الدجال وأتباعه الكفرة ـ.

ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب ينسلون، فيطؤون بلادهم، ولا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه.

ثم يرجع الناس إليَّ ـ أي: إلى عيسى عليه السلام ـ فيشكونهم،

فأدعو الله عليهم فيهلكهم، ويميتهم، حتى تَجوى - أي: تُنْتِن - الأرض من نتن ريحهم، فَيُنزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر.

ففيما عهد إليَّ ربي أن ذلك إذا كان - أي: وُجد ووقع ذلك - فإنّ الساعة كالحامل المتمِّ - أي: التي آنت ولادتها - لا يدري أهلها متى تَفْجَؤُهم ولادتها: ليلاً أو نهاراً».

ومما يتعلق بالأمر الموحى في السماء السابعة: قضايا التوحيد والإيمان، وهي السماء التي فيها خليل الرحمن، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور بتوحيد الله تعالى وعبادته، يَدخله كل يوم سبعون ألف ملك، يعبدون الله تعالى ثم يخرجون ولا يعودون مرة ثانية - الدهر كله، لأن النوبة لغيرهم من الملائكة عليهم السلام، كما جاء ذلك في: (الصحيحين) وغيرهما من أحاديث المعراج.

ولذلك لما مرَّ به سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أي: لما مر بخليل الرحمن ليلة المعراج - أرسل معه إلى أمته بشارة كبرى وهدية عظمى.

روى الترمذي وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«لقيتُ إبراهيم ليلة أُسريَ بي فقال: يا محمد أقرىء أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التُربة، عذبة الماء، وأنها قيعان - أي: فيها بقاع أرضية واسعة صالحة للزراعة والغرس - وأَنَّ غِراسها: **سبحان الله، والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر**».

وزاد الطبراني في روايته: «ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

ومن المعلوم أَنَّ هذه الكلمات هي أصول قضايا التوحيد ومجامعه، كما نبه عليه العارفون.

فالتسبيح: هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به.

والتحميد: هو إثبات المحامد والكمالات المطلقة التي لا تتناهى، إثبات ذلك لله تعالى على الوجه الذي يليق به، كما وصَفَ به نفسه سبحانه وتعالى.

ولا إلّه إلا الله: فيه توحيده بالألوهية والربوبية، وفيه التنزيه عما لا يليق به، وفيه إثبات المحامد والكمالات اللائقة به؛ على وجه لا يشاركه في ذلك غيره.

والله أكبر: والمعنى أنه سبحانه هو أكبر مما سبَّحه المسبِّحون، وأكبر مما حمده الحامدون، وأكبر مما كبَّره المكبِّرون.

وذلك لأنهم سبّحوه، وحمدوه، وكبّروه؛ على قدر علمهم به، وهو أكبر مما علموه، وأجلّ وأعظم، فإنَّه لا يمكن لأحد أن يحيط به سبحانه علماً، كما قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

والمعنى أنه سبحانه هو أحاط بهم علماً، ولكنهم لا يحيطون به علماً، فلا يستطيع أحد أَنْ يحصي ثناءً عليه، بل هو سبحانه كما أثنى على نفسه، كما جاء في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه كان يقول في سجوده:

«اللهم إنِّي أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من

عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

وقد تكلمت على ذلك في كتاب: (الشهادتين) فارجع إليه تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى.

وأما ما يتعلق بأحاكم التشريع: إحكاماً ونسخاً، فهو من أمر السماء السادسة، تتنزل عليها الأوامر من العرش المجيد، ومنها إلى عالم الأرض.

والدليل على ذلك ما جاء في حديث المعراج المتفق عليه، أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما مرَّ على موسى عليه السلام، وقد فُرض على أمته صلى الله عليه وعلى آله وسلم خَمسون صلاة قال له موسى عليه السلام: «ارجع إلى ربك فسَلْهُ التخفيف، فإنَّ أمتك لا تُطيق ذلك».

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فرجعت فَوضَع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال: بمَ أمرك؟

قلت: وضع عني عشراً.

قال موسى عليه السلام: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

فرجعت فوضع عني عشراً.

فرجعت إلى موسى فقال مثله».

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فلم أزل بين ربي وموسى حتى أُمرتُ بخمس صلوات كل يوم.

فقال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

قلت: قد سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأُسلِّم.

فلما جاوزتُ موسى عليه السلام نادى منادٍ: أمضيتُ فريضتي، وخَفَّفْتُ عن عبادي، هنَّ خمس وهنَّ بخمسين لا يُبدَّل القول لديَّ» الحديث.

فلأكرمية رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على الله تعالى أكرم أمته ففرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة ولكن لها أجر خمسين صلاة.

وقد جاء في الحديث وفيه يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ألا وأنا حبيب الله تعالى ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على ربي ولا فخر» الحديث كما في رواية الترمذي والدارمي وغيرهما.

فأكرمه الله تعالى، وكرّم أمته لأجله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أبواب السماء

وقد جعل الله تعالى للسماء أبواباً، عليها خزنة، ولا تَفْتَح الخزنة باباً من أبوابها لطارق؛ إلا لمن أذن الله تعالى له في ذلك، كما ثبت ذلك بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحية.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

فهذه الآية هي صريحة في أن للسماوات أبواباً، وأن لها خُزَّاناً، بدليل أنَّها لا تُفتح للكفار ـ أي: لعدم الإذن الإلٓهي في ذلك، بخلاف المؤمنين فإنَّها تُفتح لهم بعد موتهم، فتعرج أرواحهم إلى ربهم، كما بَيَّن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك كله:

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال:

«الميت تحضره الملائكة:

فإذا كان الرجل صالحاً قال ـ أي: ملك الموت ـ: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حَميدة، وأبشري برَوح وريحان، وربٍّ غير غضبان ـ فلا يَزال يُقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة.

فإذا كان الرجل السوء قال: ـ أي: ملك الموت ـ اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث؛ اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغَسَّاق، وآخر من شكله أزواج ـ فلا يزَال يُقال لها ذلك حتى تَخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء فَيُستفتح لها.

فيقال: مَن هذا؟

فيقال: فلان.

فَيُقال: لا مَرحباً بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث ـ ارجعي ذميمة، فَإِنَّها لا تُفتح لَكِ أَبواب السماء، فترسل ـ أي: ترد ـ من السماء ثم تصير إلى القبر».

قال الحافظ في: (الدر المنثور): رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في: (البعث). اهـ

قال في: (الدر المنثور): وأخرج الطيالسي ـ أي: في مسنده ـ وابن أبي شيبة في: (المصنف) واللالكائي في: (السنة) والبيهقي في: (البعث): عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (تخرج نفس المؤمن وهي أطيب ريحاً من المسك، فَيَصعد بها الملائكة الذين يَتَوَفَّوْنها، فتلقاهم ملائكة دون السماء فيقولون: مَنْ هذا معكم؟

فيقولون: فلان ـ ويذكرونه بأحسن عمله.

فيقولون: حَيَّاكم الله تعالى، وحيًّا من معكم ـ فتفتح له أبواب السماء فَيُصعد به من الباب الذي كان يصعد عمله منه ـ أي: عمله الصالح ـ فيُشرق وجهه فيأتي الربَّ سبحانه).

قال: (وأما الكافر فَتخرج نفسه ـ أي: روحه ـ وهي أَنْتن من الجيفة، فيصعد بها الملائكة الذين يَتوفونها، فتلقاهم ملائكة دون السماء فيقولون: من هذا؟

فيقولون: فلان ـ ويذكرونه بأسوأ عمله.

فيقولون: رُدُّوه، فما ظلمه الله تعالى شيئاً ـ فيرد إلى أسفل الأَرَضين إلى الثرى).

وقرأ ـ أي: أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ـ: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ الآية.

وقد تكلمت في هذا الموضوع كلاماً مفصلاً، مع بقية الأحاديث الواردة في ذلك، وبقية الأدلة في كتابي: (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها).

فالسماوات لها أبواب، وعلى تلك الأبواب حُجّاب، لا يفتحون إلاّ لمن أذن الله تعالى له.

والأبواب السماوية متعددة:

فهنالك أبواب تَصعد منها أرواح المؤمنين بعد موتهم ـ كما تقدم، وهنالك أبواب تنزل منها ملائكة الله تعالى إلى عالم الدنيا، بتنفيذ أوامر الله تعالى.

والملائكة عليهم السلام على مراتب وأصناف، ولكل صنف منهم أبواب معينة لهم؛ كما يدل على ذلك ما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (بينما جبريل عليه السلام قاعد عند النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذ سمع نَقِيْضاً ـ أي:

صوتاً ـ مِن فوقه فرفع رأسه إلى السماء، فقال ـ أي: جبريل عليه السلام ـ: هذا باب من السماء فُتح اليوم، لم يُفتح قَبْلُ إلا اليوم، فنزل منه مَلَك.

فقال جبريل عليه السلام: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قَبْلُ إلا اليوم.

فسلَّم ـ أي: الملك ـ وقال ـ أي: للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: أبشِر بنورين أُوتيتهما لم يؤتَهما نبيٌ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منهما إلاَّ أعطيتَه).

وروى الطبراني بإسناد حسن، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذات يوم وجبريل عليه السلام على الصفا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سَفَّةٌ من دقيق، ولا كفٌّ من سويق».

فلم يكن كلامه بأسرع من أَنْ سمع هدَّةً من السماء؛ أفزعتْه ـ أي: صوت باب عظيم من السماء فُتح ـ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أمر الله تعالى القيامة أن تقوم»؟

فقال جبريل عليه السلام: لا ـ ولكن أمر الله إسرافيل فنزل إليك حين سمع كلامك.

فأتاه إسرافيل فقال ـ أي: للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: إنَّ الله تعالى سمع ما ذكرتَ، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن

الأرض، وأَمرني أَنْ أَعْرض عليك أن أُسَيِّر معك جبال تِهامة زُمرُّداً وياقوتاً، وذهباً وفضة: فإن شئتَ نبياً ملكاً، وإن شئت نبياً عبداً.

فأومأ إليه جبريل أن تواضع.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «بل نبياً عبداً» ثلاثاً).

كذا في: (الترغيب) وقال: رواه البيهقي في: (الزهد) وغيره.

وقال: رواه ابن حبان في: (صحيحه) مختصراً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: قال: جلس جبريل إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فنظر إلى السماء فإذا ملَك ينزل.

فقال له جبريل: هذا الملَك ما نزل منذ خُلِقَ قبل الساعة ـ أي: قبل الساعة التي نزل فيها ـ.

فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك: أمَلِكاً أجعلُكَ أم عبداً رسولاً؟ ـ أي: هكذا يقول الله تعالى لك ويعرض عليك ـ.

فقال له جبريل: تواضعْ لربك يا محمد.

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا ـ بل عبداً رسولاً».

قلت: وهذا اللفظ واردٌ أيضاً في: (مسند) الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً[(١)].

وقد تكلمت بعض الكلمات حول شرح هذا الحديث في كتاب:

---

(١) وقال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، ورجال الأولين رجال الصحيح. اهـ (مجمع الزوائد).

(شمائله الحميدة وخصاله المجيدة صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فارجع إليه.

وهناك **أبواب سماوية تفتح لإجابة الدعاء** ولقبول السائلين وإعطائهم:

فقد روى الترمذي وحسنه، والإمام أحمد، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«ما قال عبد: لا إلَه إلا الله قَطُّ مخلصاً: إلا فتحت له أبواب السماء، حتى يُفضي إلى العرش ـ ماٱجتُنبت الكبائر».

وروى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً:

«إذا نادى المنادي ـ أي: أذن للصلاة ـ فتحت أبواب السماء، واستجيب الدعاء ـ فمن نزل به كرب أو شدَّة فليتحيَّن المنادي» الحديث ـ أي: فليترقب وقت الأذان ويدعو بحاجته فإنه مجاب.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«ساعتان تفتح فيهما أبواب السماء، وقلَّما تُردّ[1] على داع دعوته: لحضور الصلاة ـ أي: عند حضور الصلاة كما جاء في رواية ـ والصف في سبيل الله تعالى» أي: الجهاد في سبيل الله تعالى.

---

(١) قال العلامة المناوي: قد تُرد لفوات شرط من شروط الدعاء، أو ركن من أركانه، أو نحو ذلك. اهـ

رواه الإمام مالك، والطبراني كما في: (الجامع الصغير) وشرحه.

وروى البيهقي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً:

«إذا كان أول ليلة من رمضان فتحت أبواب السماء، فلا يغلق منها باب حتى يكون آخر ليلة من رمضان» الحديث.

وروى الإمام أحمد، والترمذي وحسنه، عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يصلي أربعاً بعد أَنْ تزول الشمس قبل الظهر ـ أي: قبل فرض الظهر ـ وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء، فأحبُّ أَنْ يَصعد لي فيها عمل صالح».

وروى ابن ماجه، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم المغرب، فرجع من رجع ـ أي: بعدما فرغ من الصلاة ـ وعقَّب من عقَّب ـ أي: أقام في مصلاه بعدما فرغ من الصلاة، ينتظر صلاة أخرى ـ.

فجاء رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال:

«أبشروا: هذا ربُّكم قد فتح باباً من أبواب السماء يُباهي بكم الملائكة، يقول: انظروا إلى عبادي قد قَضوا فريضةً، وهم ينتظرون أُخرى».

وهناك أبواب سماوية يصعد منها الكلم الطيب ويُرفع فيها العمل الصالح:

قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ الآية.

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«ما مِن مؤمن إلاّ وله ـ أي: في السماء كما جاء في رواية غير الترمذي ـ بابان: باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بَكَيَا عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾» الآية. كذا في: (التيسير)، وعزاه في: (الدر المنثور) إلى أبي يعلى، وابن أبي حاتم، وأبي نعيم في: (الحلية) والخطيب وغيرهم.

وقال قتادة: في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ الآية قال: هم ـ أي: قوم فرعون ـ كانوا أهون على الله من ذلك.

قال: وكنا نُحدَّث أَنَّ المؤمن تبكي عليه بقاعه التي كان يصلي عليها من الأرض، ومصعد عمله من السماء. اهـ

ومعنى ذلك: أَنّ قوم فرعون لما دَمَّرهم الله تعالى لم تبك عليهم السماء، لأَنَّهم ما كان لهم أعمال صالحة، ولا أقوال طيبة تصعد في السماء، ولم تَبْك عليهم الأرض لأَنَّهم لم يكونوا يَعبدون الله تعالى على وجه الأرض بالصلاة والسجود لله تعالى، وعباداته عليها.

وأما المؤمن فإذا مات بكت عليه السماء؛ لفقد أعماله الصالحة، وأقواله الطيبة، التي كانت تصعد في السماء ليل نهار: من صلوات، وتلاوات، وتسبيحات، وتحميدات، وتكبيرات، وتهليلات، وصلوات على سيد السادات صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وما هنالك من أعمال صالحة، وأقوال طيبة.

وتبكـي الأرض علـى المـؤمـن إذا مـات، لفقـد: صلـواتـه، وسجداته، وعباداته، وأقواله الطيبة، وأعماله الخيرة التي كان يعملها على ظهرها.

وقد فَصلت الكلام على ذلك في كتاب: (صعود الأقوال ورفع الأعمال) مع الأدلة والتفصيل.

وهناك أبواب سماوية تنزل منها أرزاق المؤمن ـ كما تقدم في الحديث.

وهناك أبواب سماوية تعرج فيها أرواح المؤمنين بعد موتهم، فتفتح لهم أبواب السماء: سماء بعد سماء؛ حتى السابعة ـ كما تقدم في الحديث.

فالسماوات السبع هي عوالم موجودة حقاً، أخبر عنها القرآن الكريم في مواضع متعددة، وقد رآها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ودخلها واحدة بعد واحدة ليلة المعراج.

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أَنّ السماوات مملوءة بالملائكة عليهم السلام:

روى الترمذي وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«إني أَرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئِطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً.

والله لو تعلمون ما أعلم: لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولَمَا

تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُعُدات ـ الطرق ـ تجأرون إلى الله تعالى».

أي: تستغيثونه، وترفعون أصواتكم بالدعاء.

قوله تعالى:

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾.

والمعنى: أن كل شيء خلقه الرحمن فهو مستوٍ، آخذ تمامه الخَلقي، اللائق به، ليس فيه خَلَلٌ، ولا عيب، ولا نقص أو عدمُ تناسب، بأن يفوته ما يتم به، بل هو سبحانه وتعالى كما قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

فكل شيء خلقه الله تعالى هو مُتْقَن، وآخذ تمامه الخَلقيّ بالنسبة لذلك الشيء، وآخذ كماله الخَلقيّ بالنسبة لنوع ذلك الشيء، حتى النحلة، وحتى النملة، والحيوانات، والطيور، وما وراءها؛ كل ذلك بالنسبة لنوعيته هو آخذ كماله، وتمامه، لا نقص فيه، ولا خلل، بل هو في إحسانٍ وإتقان كما في الآيتين المتقدمتين.

ولما سأل فرعونُ سيدنا موسى عليه السلام، وطالبه بأن يصف له ربَّ العالمين، وصفه له موسى عليه السلام وصفاً جلياً، واضحاً، مشهوداً في جميع أنواع المخلوقات، ومرئياً في جميع الكائنات ـ وذلك بوحي من الله تعالى، وتعليمه وتلقينه الحجة لسيدنا موسى عليه السلام:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

والمعنى: أن الله تعالى ربنا هو الذي أعطى كل شيء في عالم الوجود ـ أعطاه الوجود الكوني اللائق بذلك الشيء، من حيث حقيقته الوجودية، وصورته الكونية المناسبة له، ومن حيث كَمِّه وكيفه، وزمانه ومكانه، وشؤوناته وحالاته ـ أعطاه ذلك كله حسب ما يليق بذلك الشيء، بمقتضى علمه سبحانه السابق الأزلي، المحيط بكل شيء، وحسب حكمته الشاملة لكل شيء، وبقدرته التي لا يُعجزها شيء، ثم هدى ذلك الشيء الذي أعطاه خلقه اللائق به، المناسب له ـ هدى ذلك الشيء لما فيه صلاح وجوده، وحياته وبقائه، ونظام معاشه، ومعرفة ما يضره وما ينفعه من: مطعمه ومشربه، ومأواه، وبقاء نَسْله ونوعه؛ إلى ما وراء ذلك.

والمعنى: أنك يا فرعون انظر إلى جميع الأشياء علويِّها وسفليِّها، وكبيرها وصغيرها، وإنسانها وحيوانها وطيورها؛ إلى ما وراء ذلك ـ يتجلَّى لك هذان الأمران العظيمان في جميع الأشياء.

فلما سمع فرعون هذا الجواب من سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وفيه الحجة البالغة، والبينة الدامغة ـ راح فرعون يفكر وينظر فيه فرآه حقاً ظاهراً في كل شيء، ولم يستطع فرعون أن يَنقض هذا الدليل، أو يشاغب فيه، بل راح يسأل على سبيل التعجب من وضوح هذا الأمر، وكُفْر من كَفَر وجحود من جحد من الأمم السابقة:

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

أي: فما بالهم كفروا، فمنهم من أنكر وجود الله تعالى، ومنهم من أنكر وحدانيته، فجعل له شركاء مع وضوح الأدلة على وجوده سبحانه ووحدانيته، وما هي حالهم التي صاروا إليها بعد الموت؟

فأجابه الكليم عليه السلام: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: إن الله تعالى هو عليم بكفر من كفر من المعاندين، والمعارضين، والجاحدين للحق بعدما تبين لهم: أمثال فرعون ومَلئه، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

فهو سبحانه وتعالى عليم بأقوالهم، وأعمالهم، وفسادهم، وشرورهم: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ لا يخطىء في شيء من ذلك وغير ذلك ﴿وَلَا يَنسَى﴾ شيئاً من ذلك وغير ذلك.

بل هو على كل شيء حفيظ، وهو العليم بما كانوا عليه، والعليم بما صاروا إليه، وهو سبحانه المحصي عليهم أقوالهم وأفعالهم، وسوف يسألهم عن ذلك، ويحاسبهم، وهو معاقبهم على تفريطهم في جنب الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ﴾.

قال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى: قراءة حمزة والكسائي: «تَفَوُّت» بغير ألف ـ مشددة.

وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه.

قال: والباقون ﴿مِن تَفَٰوُتٍ ۖ﴾ بألف.

قال: وهما لغتان مثل: التعاهد والتعهّد، والتحامل والتحمّل، والتظهّر والتظاهر، وتصاغر وتصغَّر، وتضاعف وتضعّف، وتباعد وتبعَّد ـ كله بمعنى. اهـ

أي: كلٌّ من: تفاعل وتفعّل بمعنى واحد.

ثم قال: وأصله ـ أي: التفاوت والتفوت ـ من الفوت، وهو: أن يفوت شيء شيئاً، فيقع الخلل ـ أي: فيه ـ. اهـ

فليس في خلق الرحمن من خلل ولا نقص، بل هو كما قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾.

فكل شيء يدل على وجود الله تعالى، ووحدانيته، وكمال أسمائه وصفاته، وسعة علمه، وبديع حكمته، ونفوذ قدرته، وعظمة ملكه سبحانه وتعالى.

ويرحم الله القائل:

فوا عجباً كيف يُعصى الإلّه أمْ كيف يجحده الجاحد

وفي كل تحريكة وتسكينةٍ أبداً له شاهد

وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه واحد

سبحانه وتعالى

قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

لما أخبر سبحانه أنه لا يوجد في خلق الرحمن من تفاوت ـ أي: نقص وخلل ـ خاطب سبحانه وتعالى كل عاقل تتأتى منه الرؤية أن ينظر في السماء، التي هي مِنْ خلق الرحمن، وهي ظاهرة جلية لكل أحد، فيتأملها هل يرى فيها فُطوراً؟ ـ أي: شقوقاً، أو خللاً، أو نقصاً.

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: رجعتين أُخْرِيَيْن، حتى لا يبقى شبهة لمشتبه، ولا شك ولا ارتياب ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: بعيداً كل البعد عن أن يرى خللاً، أو فطوراً، أو نقصاً.

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل، قد انقطع من الإعياء والعجز، من كثرة التكرر، ولا يرى نقصاً ولا خللاً، وهكذا الأمر مُطّرد في جميع ما خلق الرحمن، فإنَّه ليس فيه خلل ولا نقص.

والمراد بالتثنيـة فـي: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾المراد بذلك التكرير والتكثير كما في: (لبيك وسعديك) وأمثال ذلك، وهذا معلوم في اللغة العربية.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

بعد ما بين سبحانه وتعالى إتقان خلق السموات، وأنَّها خالية عن كل خلل ونقص، وتحدَّى الناظرين في ذلك ـ فبعد هذا بيَّن سبحانه وتعالى أنَّها في غاية الحسن والبهاء، والمنظر البهيج، فقال على طريق القسم: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ أي: وبالله لقد زينا السماء الدنيا ـ أي: القُربى، وهي أقرب السموات إلى الأرض ﴿ بِمَصَٰبِيحَ ﴾ أي: بكواكب مضيئة في الليل، ترون بهجتها، وحسنها، وضياءها، وزينتها كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي: وجعل الله تعالى لتلك المصابيح التي هي الكواكب ـ مواضع لرجم شياطين الجن، الذين يحاولون استراق السمع.

وَرَجْمهم هو: رمي الملائكة عليهم السلام لهم بالشُّهب المضيئة من نار الكواكب.

والرُّجوم: جمع رَجم بالفتح، وهو ما يُرجم به.

وهذا كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ ﴾ ـ أي: ترميهم الملائكة عليهم السلام ـ ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾.

ومعنى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي: لهم في الآخرة عذاب دائم، كما قال تعالى هنا: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

وقد بين ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم صاحب البيان عن القرآن، الذي قال الله تعالى له: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ فتكفل سبحانه أَنْ يُبين القرآن لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم قال له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فقد روى الإمام مسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الأنصار ـ وفي رواية قال ابن عباس: أخبرني رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الأنصار ـ أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: رمي بنجم فاستنار.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رُمي بمثل هذا»؟.

قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: وُلد الليلة رجل عظيم، أو مات رجل عظيم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«فإنها لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربُّنا تبارك وتعالى اسمه إذا قَضى أمراً سبَّح حملة العرش، ثم سبَّح أهل السماء الذين يلونهم؛ حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا.

ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال».

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع، فَيَقْذفون ـ أي: يلقون الكلمة التي سمعوها ـ إلى أوليائهم ـ أي: أصحابهم الكُهَّان ـ ويُرمَون به ـ أي: ترمي الملائكة عليهم السلام مُسترق السمع بالشهب ـ فما جاؤوا به على وجهه فهو حق» ـ أي: الكلمة التي سمعوها ـ.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون»[1].

أي: يكذبون، ويخلطون فوق تلك الكلمة مائة كذبة كما جاء في رواية (الصحيحين): عن أم المؤمنين الصدِّيقة بنت الصدِّيق السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: (سئل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الكُهَّان)[2].

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ليسوا بشيء».

قالوا: يا رسول الله إنّهم يُحدثوننا أحياناً بالشيء فيكون حقاً؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فَيَقذفها في أُذُن وَلِيِّه ـ أي: صديقه الكاهن ـ فيخلطون معها مائة كذبة».

---

(١) هذا لفظ مسلم في: (صحيحه)، وقد رواه الترمذي أيضاً كما في: (جامع الأصول).

(٢) جمع كاهن، وهو الذي له صاحب من الجن، يُخبره عن الكلمة يسترقها من السمع، ويكذب معها.

وفي رواية مسلم: «فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة».

وفي رواية: «فيُقَرْقِرُها في أذن وليّه كقرقرة الدجاجة».

وفي رواية: «فيَقُرُّها في أذن وليه قَرَّ الدجاجة».

قال في: (جامع الأصول) بعدما نقل ذلك: أخرجه البخاري ومسلم. اهـ

قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾: أي: هيّأنا للشياطين، وأعددنا للذين يحاولون استراق السمع، ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: أشدّ الحريق.

قال العلامة القرطبي: يُقال: سُعرت النار فهي مسعورة وسعير مثل: مقتولة وقتيل. اهـ.

فالسعير: هي النار المتوقدة، والهائجة بشدَّة.

ويقال في اللغة: سَعَر النار والحرب: هَيَّجَها وألهبها ـ وبابه: قطع.

ويقال: سَعَّرها بالتشديد وهو أقوى وأبلغ.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾.

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ناركم هذه مما يُوقدُ ابن آدم ـ جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم».

قالوا: والله إن كانت لكافية.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنها ـ أي: نار جهنم ـ فُضِّلت عليها ـ أي: على نار الدنيا ـ بتسعة وستين جزءاً ـ كلهن مثل

حرها» رواه الشيخان والترمذي كما في: (الترغيب).

قال: ورواه أحمد وابن حبان في: (صحيحه) والبيهقي فزادوا فيه ـ أي: في روايتهم ـ: «وضربت ـ أي: نار الدنيا ـ بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله تعالى فيها منفعة لأحد».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «أوقِد على النار ألف سنة حتى احمرّت، ثم أوقِد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقِد عليها ألف سنة حتى اسودَّت ـ فهي سوداء مظلمة، كالليل المظلم».

رواه الترمذي وابن ماجه، والبيهقي كما في: (الترهيب).

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أَنَّ أشدَّ حرٍّ يقع في بقعة من بقاع الأرض؛ هو نَفَس من أنفاس جهنم، كما أن أشد زمهرير يقع في بقعة من الأرض هو نَفَس من أنفاس جهنم.

روى الشيخان والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا ربِّ: أكلَ بعضي بعضاً، فأذِنَ لها بنَفَسين: نَفَس في الشتاء، ونفس في الصيف ـ فهو أشدُّ ما تجدون من الحرِّ، وأشدّ ما تجدون من الزمهرير» أي: البرد.

ومن المعلوم أن هناك بقاعاً متجمدة وهناك بقاع حرُّها شديد فكل ذلك من نَفَسَيْ جهنم ـ أعاذنا الله تعالى منها.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

بعدما بين سبحانه في أول السورة أن المُلك والتصرف المطلق هو بيده سبحانه وحده، ثم ذكر وجوهاً مشهودة بالعيان من وجوه تصرفه الكامل المطلق في العوالم، فذكر: الإماتة والإحياء، وذكر خلق السموات السبع الطباق، وإتقانها، وزينتها بالمصابيح. وهي: الكواكب، ووَضْع كل كوكب في موضعه، وإيقاعه في مواقعه، كما هو مقتضى علمه سبحانه وحكمته، كما نبه سبحانه على عظمة هذا الأمر، وما في ذلك من حكم وأسرار؛ لا يحيط بعلم ذلك إلا هو سبحانه، وسيَّر كل كوكب في فلكه المعيَّن له.

قال تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ الآية ـ أي: فمهما عرفتم من عظمة ذلك فالأمر أعظم.

ثم بين سبحانه حراسة السماء من استراق الشياطين للسمع وما هنالك، وكل ذلك أدلة قاطعة، وبراهين تدل على سعة علمه سبحانه، وبديع حكمته، ونفوذ قدرته، بحيث لا يعجزه شيء، وأنه هو الله تعالى الملِك الحق المبين، واجب الوجود، والمتصرف في كل موجود، لا يُنكر ذلك إلا المعاند الجحود، الذي ينكر الحق بعدما تبين بالعيان والبرهان والشهود، فكان جزاء هذا الجاحد الكافر: عذاب جهنم وبئس المصير.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الكلام على هذه الآية له وجوه:

الوجه الأول: في معنى الكفر:

الكفر في لغة العرب: هو السَّتْر والتغطية.

ومنه قول الشاعر:

في ليلة كَفَر النجومَ غمامُها

أي: سترها، ومنه سُمِّي الليل كافراً لأنه يُغطي كل شيء بسواده، وأصله، الكَفر بفتح الكاف أي: الستر[1].

وأما الكُفر في عُرف الشرع فهو ضد الإيمان.

والإيمان شرعاً: هو تصديق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في كل ما جاء به، وعُلم من الدين بالضرورة[2].

والمراد بتصديق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في ذلك: التصديق القلبي الجازم[3]، الباعث على الإذعان لما جاء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم والقبول له.

---

(١) انظر تفسير العلامة القرطبي، والعلامة الآلوسي.

(٢) واختلف في الإقرار باللسان، فذهب كثير من العلماء إلى أنّه ركن محتَّم، بحيث لا يصح الإيمان إلاّ به.
وقال كثير من العلماء: إنَّه شرط لإجراء الأحكام الإسلامية الدنيوية ـ وتفصيل أدلة ذلك مبين مذكور في المطولات من كتب التوحيد، وكتب الفقه في باب المرتد.

(٣) الذي لا يدخله شك ولا ريب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ الآية.

وليس المراد وقوع نسبة الصدق إليه في القلب من غير إذعان[١] وقبول، فإن كثيراً من الكفار كانوا يعلمون أنه صادق فيما يقول، ولكن لا يُذعنون، بل يعاندونه ويعارضونه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

والمعنى: أنهم يعلمون صدقك ولكنهم لا يقِرُّون لك، ولا يذعنون، بل يجحدون أي: ينكرون بعد علم، ولا يعترفون: كبراً، وظلماً، وعناداً، فهم كُفَّارٌ ستروا الحق الذي جاء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأنكروه بعدما اتضح لهم، وبان لهم، كما سيأتي تفصيل ذلك عند قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.. الآيات.

فالإيمان هو: التصديق الجازم مع الإذعان والقبول.

وأما الكفر المقابل للإيمان فهو كما قال العلامة المفسر أبو السعود: الكُفر في الشريعة هو إنكار ما عُلِم بالضرورة مجيء الرسول عليه الصلاة والسلام به. اهـ[٢]

ويسمى هذا الكفر: الكفر الأكبر، وهو الكفر الاعتقادي، المُخْرج عن الإيمان والمِلَّة، والموجب للخلود الأبدي في النار ـ وهو المراد غالباً عند الإطلاق.

وقد يطلق الكفر والكفران في الشرع ـ على: جحود النعمة

---

(١) انظر حاشية العلامة الباجوري على الجوهرة وغيرها.
(٢) وكذا عرفه كثير من العلماء ـ انظر: (شرح المواقف)، وتفسير العلامة الآلوسي وغيرهما.

والإحسان، ويسمى: الكفر الأصغر ـ وحكمه حكم المعاصي والكبائر.

قال الإمام البخاري في: (صحيحه):

باب كفران العشير، وكفر دون كفر ـ فيه أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ثم أسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أُريتُ النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن».

قيل: أيكفرن بالله؟.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، ـ لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدهر ثم رأتْ منك شيئاً[(١)] قالت: ما رأيت منك خيراً قطُّ».

المراد بالعشير هنا: الزوج ـ كما يدل على ذلك سياق الحديث الوارد في تحذير الزوجة من كُفران إحسان الزوج، وحسن معاشرته ـ قيل له: عَشِير بمعنى معاشر، والمعاشرة: المخالطة.

وفي هذا الحديث تحذير للمرأة المسلمة من أن تجحد حسن معاملة زوجها معها، وإحسانه إليها، ويُعتبر ذلك من الكبائر.

كما أن سوء معاملته معها وسوء عشرته، وهضمه حقوقها، وتقصيره في الإحسان إليها يُعتبر من الكبائر، قال الله تعالى:

---

(١) قال الإمام القسطلاني رحمه الله تعالى: أي: رأت منك شيئاً قليلاً لا يُوافق مزاجها، أو شيئاً حقيراً لا يُعجبها. اهـ

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إني لأحب أن أتزيَّن للمرأة كما أُحب أن تتزين المرأة لي، لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ ﴾ الآية.

وقد جاءت كثير من الأحاديث النبوية في توصية الأزواج بالإحسان إلى زوجاتهن، ومعاملتهن بحسن الخلق والملاطفة، وأنَّ ذلك من الإيمان لا من باب الامتنان عليهنَّ:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أكملُ المؤمنين إيماناً: أحسنهم خُلقاً، وخياركم: خياركم لنسائهم».

قال في: (الترغيب): رواه الترمذي، وابن حبان في: (صحيحه) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. اهـ

وعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّ من أكمل المؤمنين إيماناً: أحسنهم خلقاً، وألطفهم بأهله».

رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

وعنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي».

رواه ابن حبان في صحيحه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي».

قال الحافظ المنذري: رواه ابن ماجه، والحاكم إلا أنه قال:

«خيركم خيركم للنساء» وقال: صحيح الإسناد. اهـ

الوجه الثاني: من الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الله رب العالمين: خالقهم، فهو سبحانه: هو الخالق، وجميع ما سواه مخلوق له، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾.

الله رب العالمين ـ مُربيهم بأنواع النعم، التي لا تعد ولا تحصى، الظاهرة والباطنة، والحِسِّيَّة والمعنوية، والشهودية والغيبية.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

الله رب العالمين: هو السيد المطلق، وكل ما سواه فهم عبيد له.

قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾.

الله رب العالمين: مالكهم، والملك المتصرف فيهم وحده، تصرفاً مطلقاً، كما هو مقتضى علمه وحكمته سبحانه، وهو المالك لجميع الذوات والذرات والصفات سبحانه وتعالى.

فاسمه الرب: جامع لتلك المعاني، ولجميع الكمالات المطلقة، على الوجه الذي يليق به لا شريك له في ذلك سبحانه وتعالى.

الوجه الثالث:

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ الآية.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾: هذا يشمل الذين يُنكرون وجود الله تعالى، والذين يُنكرون وحدانيته، والذين يُنكرون صفاته وكمالاته سبحانه، والذين يُنكرون كُتُبَهُ ورسالاته، والذين يُنكرون ما جاءت به كتبه، وما جاءت رسله صلوات الله تعالى عليهم من الإيمان: بالآخرة، والملائكة، والقدَر، وما وراء ذلك ـ فجميع ذلك داخل تحت الكفر بالله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ بيان لسخافة عقولهم، وقبح سفاهتهم، بل هم كما وصفهم الله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

وبيان ذلك أنهم كانوا في العدم، ثم صاروا موجودين، إذاً من الذي أوجدهم؟

فإن قالوا: هم أوجدوا أنفسهم.

يقال لهم: كيف أوجدوا أنفسهم وهم معدومون.

وإن ادعوا أنهم وُجدوا هكذا بلا مُوْجِد.

يقال: لِمَ لَمْ يَبقوا معدومين، بل تحولوا للوجود، فصاروا موجودين، فلا بدَّ من موجد يرجح وجودهم على عدمهم، وينقلهم من العدم إلى الوجود، وهذا الموجِد الذي أوجدهم لا بد أن يكون

واجب الوجود، عليماً قديراً حكيماً، خالقاً غير مخلوق، وإلاَّ لكان مثلهم في حكم الوجود.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ ـ أي: عدماً ـ ﴿فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فهذا هو الله رب العالمين، واجب الوجود وحده، هو الخالق لكل شيء.

وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾.

أي: هل خُلقوا من العدم من غير خالق، فإنهم كانوا عدماً، والعدم لا يعطي الوجود، إذاً لا بدَّ من خالق خلقهم، فإن ادَّعوا أنهم هم الخالقون لأنفسهم فهم كاذبون بداهة، لأنهم كانوا عدماً.

وإن قالوا: آباؤهم خلقوهم.

يقال لهم: آباؤكم وجميع المخلوقات هم مثلكم ـ إذاً لا بد لهم من خالق ليس مثلهم، وليس كمثله شيء، بل هو واجب الوجود، وهو القديم الذي لا أول له، وهو الباقي الذي لا آخر له، وهو المتصف بجميع الكمالات المطلقة اللائقة به، كالعلم الأزلي، والقدرة، والإرادة، والحكمة، إلى ما هنالك من صفات الكمال التي لا تتناهى.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ـ أي: بعاجزين ـ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ـ أي: يوم القيامة ـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

والمعنى: أنكم علمتم النشأة الأولى، وما أعطاكم الله تعالى من

الصفات الوجودية، والسمعية والبصرية، والعقلية، والقدرة والإرادة إلى ما هنالك، ولكن النشأة الثانية هي أعظم وأكبر، فإنَّ نشأتكم الأولى هي فانية، وأما النشأة الآخرة فهي الباقية أبداً ـ وشتَّان ما بينهما.

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

وفي هذا إفحام وإلزام للإنسان بالإقرار والاعتراف برب العالمين، الذي خَلَقه، وخلق جميع الأكوان، وقد جاء ذلك على طريق الاستفهام التقريري.

وبيان ذلك: أن كل إنسان يُقر ويعترف، ويعلم أنَّه قبل خلقه ووجوده لم يكن شيئاً مذكوراً بأنه إنسان ذو بيان، وسمع وبصر، وحياة إلى ما هنالك ـ إذاً مَنِ الذي نقله مِنْ حال العدم إلى حال الوجود، فَخَلَقَه وأوجده، وصيَّره إنساناً مذكوراً: بصفاته وأفعاله، ومَنِ الذي رجح وجوده على عدمه.

فإن العدم والوجود بالنسبة للممكن الوجود على حد سواء ـ مثل: كفتي الميزان المعتدل، فلا يمكن أن تترجح إحداهما على الأخرى إلا بمرجح، فإن الترجح بلا مرجح أمر باطل عقلاً.

فَمَنِ الذي رجح وجود الإنسان على عدمه، فأوجده وخلَقه؟

لا يمكن أن يكون المرجح من المخلوقات فإنّها مثله.

إذاً لا بدَّ أن ينتهي أمر ذلك إلى إثبات وجود خالق غير مخلوق، واجب الوجود، القديم الباقي، أَلا وهو الله رب العالمين، ولذلك

جاء الجواب في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ الآية.

الوجه الرابع:

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جهنم: اسم علم لدار العذاب والعقاب الإلّهي ـ وهي كلمة ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث.

وذكر في تفسير: (البحر): أنها مشتقة من قولهم: رَكيَّة جَهَنَّام إذا كانت بعيدة القعر. اهـ أي: بئر عميقة.

فجهنم هي سحيقة عميقة القعر جداً، بعيدة الأسفل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ الآية.

روى الإمام مسلم في: (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذ سمع وجْبَة(١).

فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «تدرون ما هذا»؟.

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «هذا حجر ـ أي: عظيم ـ رُمِيَ به في النار منذ سبعين خريفاً ـ أي: عاماً ـ فهو يهوي في النار، الآن حتى انتهى إلى قعرها».

---

(١) أي: صوت سقوط شيء ثقيل، والوجبة هي السقوط الشديد.

وفي بعض الروايات لغير مسلم: «إن ذلك الحجر هو صخرة عظيمة».

الوجه الخامس:

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

أي: هي جهنم يصيرون إليها، فإنها أسوأ المصير.

في هذا بيان شدة عذاب جهنم، وأَنَّ الله تعالى شديد العذاب.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

وقال تعالى: ﴿ ۞ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ[1] بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾.

روى ابن جرير بإسناده، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال:

«إن الحميم ليصبُّ على رؤوسهم، فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ـ أي: يذيب ـ ما في جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصَّهْر».

---

(١) يقال في لغة العرب: صَهَر الشيء فانصهر أي: أذابه فذاب، وبابه: قطع ـ فهو صهير أي: مُذاب.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ثم يعاد ـ أي: الكافر ـ كما كان»[1]..

وهكذا جاء في كثير من الآيات القرآنية، يُخبر الله تعالى فيها عن شدة عذاب جهنم، وذلك إخبار عن حقيقة ما عليه الأمر من شدة عذاب جهنم وهَوْلها.

وليس ذلك من باب التوهيم، أو التخييل، أو الهزل.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾.

فإن القرآن الكريم يخبر عن الحق والحقيقة الواقعة قطعاً.

قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

ومعنى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: أنزلنا هذا القرآن يا رسول الله محفوظاً محروساً، لم يُزد فيه، ولم يُنقص منه، حتى وَصَل إليك بالحق، فإنَّ الذي نزل به إليك هو جبريل عليه السلام، الذي هو شديد القوى، والذي هو أمين على وحي الله تعالى.

قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

والذي قال الله تعالى فيه: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ـ أي: له

---

(١) قال الحافظ ابن كثير بعدما روى ذلك قال: ورواه الترمذي من حديث ابن المبارك وقال: حسن صحيح. اهـ.

مكانة عند الله تعالى، ومنزلة رفيعة ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ ـ أي: في الملأ الأعلى، وفي السموات ﴿أَمِينٍ﴾ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ أي: هو أمين على أوامر الله تعالى ووحيه.

فقد أنزل الله تعالى هذا القرآن الكريم بواسطة الروح الأمين، محفوظاً ومحروساً ومصوناً، أنزله على قلب الصادق الأمين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

جاء في الحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنَّه قال: «ألا تأمنوني وأنا أمين مَنْ في السماء، يأتيني خبر السماء: صباحاً ومساءً»[1] الحديث.

رواه مسلم وهذا لفظه، ورواه البخاري والإمام أحمد كما في: (الفتح الكبير).

وأما قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ فمعناه أَنَّ هذا القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى، وجاء ببيان الحق، وهذا يشمل: العقائد الإيمانية، والأحكام الشرعية، والإخبارات الغيبية الماضية والآتية ـ وغير ذلك من الأمور التي جاءت في القرآن: فإنها الحق القاطع الذي لا ريب فيه، ويستحيل ولا يمكن: ردُّها، ولا نقضها، ولا بطلانها، وقد تكفَّل سبحانه بحفظه كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

---

(١) وقد تكلمت على حفظ الله تعالى لهذا القرآن الكريم حين نزوله، وبعد نزوله على امتداد الأزمنة وتوالي العصور أبداً، وفصلت الكلام على ذلك مع الأدلة القاطعة في كتاب: (هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان) فارجع إليه تجد ما ينفعك.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وكما جاءت الآيات القرآنية تُخبر عن شدة عذاب جهنم؛ كذلك جاء في الأحاديث النبوية تخبر عن ذلك أيضاً:

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ناركم هذه ما يُوقِدُ بنو آدم، جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم».

قالوا: والله إنها لكافية.

قال: «إنها فُضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلهنَّ مثل حرها»[1] كما تقدم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً، فأذِنَ لها بنَفَسَيْن: نَفَس في الشتاء، ونفس في الصيف ـ فهو أشدّ ما تجدون من الحرّ، وأشدّ ما تجدون من الزمهرير»[2]

فأشد ما يوجد من الحر في أشد بقاع الأرض حراً هو نَفَس من أنفاس جهنم، كما أن أشد زمهرير يوجد في أشد بقاع الأرض برداً فهو نَفَس من أنفاس جهنم أعاذنا الله تعالى منها ـ آمين.

فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

فيه بيان أَنَّ عذاب جهنم هو عذاب حقيقي، وهو عذاب شديد،

---

(١) عزاه الحافظ المنذري: (للصحيحين) والترمذي وغيرهم.
(٢) رواه الشيخان والترمذي كما في: (التيسير).

وهو عذاب أليم، كما جاء في كثير من الآيات الكريمة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ الآية.

في هذا بيان وجه استحقاقهم للعذاب الشديد الأليم، ذلك لأنهم كفروا بربهم، الذي هو خلقهم، وأقامهم بقدرته، وأسبغ عليهم أنواع نعمته، التي لا تعد ولا تحصى، وأَقَلَّهم فوق أرضه، وأظلهم تحت سمائه، وأراهم في أنفسهم؛ والآفاق المحيطة بهم أنواع آياته، كما قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

فأعظمُ أنواع الإجرام هو الكفر، ولذلك كان جزاؤه عذاب جهنم الأليم ـ فهذا أمر حقٌّ لا ريب فيه.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

وتدبَّر قوله تعالى: ﴿حَقَّتْ﴾ أي: تعذيبهم هو حق وليس بظلم.

قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ ـ أي: البعث والحشر وما وراء ذلك من الحساب والعقاب أليس هذا ـ ﴿بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ ـ أي: كل ذلك حق ـ ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وجاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا قام من الليل يتهجد قال: «اللهم ربنا لك الحمد: أنت قَيِّمُ السموات والأرض وَمَن فيهنَّ، ولك الحمد أنت نُور السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد: أنت مالك السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد: أنت الحق[1]، ووعدك حق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) حق، والساعة حق.

اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت ـ فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررتُ وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إلَه إلا أنت»[2].

---

(١) أي: أنت وحدك الواجب الوجود الذاتي القديم الذي لا أول له، الباقي الذي لا آخر له، المتصف بجميع الكمالات المطلقة التي لا نهاية لها، والمتسمي بجميع الأسماء الحسنى التي لا نهاية لها.

(٢) قال في: (تيسير الوصول): أخرجه الستة وهذا لفظ الشيخين. اهـ

قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾.

يُخبر الله تعالى عن حال أهل جهنم، وذلك ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا﴾ ـ أي: طرحوا في جهنم، كما يُطرح الحطب في النار العظيمة ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ أي: لجهنم ﴿شَهِيقٗا﴾ وقد جاء في الآية الأخرى أنهم يسمعون لها ﴿تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾، والكل واقع بهم، فهم يَسمعون زفير جهنم وشهيقها.

وقد قال ابن فارس وكثير من علماء اللغة: الزفير: إخراج النَفَس بعد مَدِّه، والشهيق: ردُّه(١).

وفي سماعهم لزفير جهنم وشهيقها، يسمعون أصواتاً هائلة منكرة، مزعجة كل الإزعاج، ومخيفة تَرجف منها قلوبهم، وفي هذا نَوع من العذاب غير عذاب الحريق، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي: تشتعل بهم، وتغلي بهم غليان المِرْجَل بما فيه كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

اللهم إنا نسألك الجنة، ونعوذ بك من النار.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾.

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الوجه الأول: قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾:

الغيظ هو: أشد الغضب.

---

(١) كما في: (روح المعاني) نقلاً عن: (القاموس).

والتغيُّظ هو: إظهار الغيظ، وقد يصحبه صوت مسموع كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: تكاد جهنم تتفطَّر وتتقطع، وينفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها، وغضبها على الكفار.

وهذا الغضب والتغيظ وما هنالك هو من باب الحقيقة لا من باب الاستعارة كما قيل.

وذلك لأن جهنم تَعلم أَنَّ الله تعالى هو حق، وأَنّه خالقها وخالق كل شيء، كما أن جميع الجمادات والنباتات وجميع الحيوانات هي مفطورة على معرفة خالقها وتسبيحه وحمده.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فجميع ذلك مفطور على معرفة رب العالمين، وتسبيحه، وحمده، والسجود له.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩﴾.

فأخبر سبحانه أن جميع ذلك يسجد له، وهذا سجود حقيقي، سجود مخلوق لخالقه، وليس ذلك من باب المجاز، بدليل أنه سبحانه قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: وهم المؤمنون بالله تعالى، فإنَّهم يسجدون لله تعالى سجوداً حقيقياً عابدين له، ثم قال سبحانه: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: وهم الكفار فإنهم لا يسجدون لله تعالى.

ومن المعلوم أَنَّ سجود كل شيء هو على حسبه: فسجود المؤمن لله تعالى هو له صفة خاصة ـ أي: على الوجه واليدين والركبتين والرجلين ـ أي: الأعضاء السبعة.

وأما سجود الأشجار والأحجار وما وراء ذلك فلكل واحد منها هيئة خاصة في سجوده، فإنها ليست على صورة الإنسان حتى يكون سجودها كالإنسان.

ومن هنا تعلم أن جميع الجمادات، والنباتات، والحيوانات، وما وراء ذلك كلها تعلم أَنَّ الله تعالى هو ربها وخالقها، وقد أودع الله تعالى فيها إدراكاً خاصاً، وشعوراً خاصاً لائقاً بها.

وبذلك هي تَرضى لما يُرضي الله تعالى، وتغضب لما يُغضب الله تعالى، وتتغيظ لذلك كما قال تعالى في جهنم إذا رأت الكفار من بعيد: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

وقد أخبر سبحانه وتعالى عن السموات والأرض والجبال وشدة غضبها وتغيظها لما يُغضب الله تعالى:

قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ ـ أي: افتراء على الله تعالى عظيماً، منكراً كل الإنكار ـ ﴿تَكَادُ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ ـ أي: يتشقّقن ـ ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾.

فالسموات والأرض والجبال والأشجار والأحجار والأمدار تشهد أَن: لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وأنّه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، كما تشهد أنّ سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

روى الترمذي وحَسَّنه، عن سيدنا علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله صلى الله عليه وعلى آله وسلم جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله)(١).

وروى البزار وأبو نعيم عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لما أُوحي إليَّ جعلتُ لا أمرُّ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله» صلى الله عليه وعلى آله وسلم(٢).

الوجه الثاني:

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾.

الخزنة: جمع خازن، وخزنة النار هم الملائكة القائمون عليها

---

(١) قال الحافظ الزرقاني: ورواه الدارمي والحاكم وصححه. اهـ

(٢) وقد فصلت الكلام على نطق الجمادات والحيوانات والنباتات بالشهادتين في كتابي (شهادة لاإلّه إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فارجع إليه ينفعك الله تعالى به.

بأمر الله تعالى، ورئيسهم يُسمى: مالكاً.

قال سبحانه مخبراً عن الكفار في جهنم: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ - أي: يميتهم - ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾.

- أي: لا يموتون فيها، كما قال سبحانه: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾.

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال في حديث الإسراء، واجتماعه بالأنبياء صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين قال: «فحانت الصلاة فأممتُهم - أي: صرتُ لهم إماماً - فلما فرغت من الصلاة قال قائل: يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلِّم عليه - فالتفتُّ إليه فبدأني بالسلام».

وفي هذا دليل على أن جميع الأنبياء، ورؤساء الملائكة عليهم السلام أجمعين، كانوا كلهم في استقباله ليلة الإسراء والمعراج، صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم تسليماً كثيراً.

وقد وصف الله تعالى خزنة النار القائمين بأمر الله تعالى:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ[1] نَارًا وَقُودُهَا[2]

---

(١) الأهل: قد يطلق ويراد به الزوجة، وقد يطلق ويراد به ما يشمل الزوجة والأولاد كما هنا.

(٢) ﴿وقودها﴾: الذي تتقد به بدلاً عن الحطب هو الناس الكفرة، والحجارة: قال بعضهم: يعني الأصنام التي كانت تُعبد، وقال بعضهم: هي حجارة من كبريت جهنم.

ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾.

والمعنى: أنهم غلاظ الأقوال، شداد الأفعال، كما أنهم غلاظ الخُلُق شداد الخَلْق.

وفي هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالى المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار، وذلك بتقوى الله تعالى، فإنَّها وقاية من عذاب الله تعالى.

وتقوى الله تعالى: هي امتثال أوامره، واجتناب ما نهى عنه.

فالواجب على المؤمن أن يَتَّقِي الله تعالى في السر والعلانية، وأن يأمر أهله ـ أي: زوجته وأولاده ـ بالتقوى، فإن الإنسان مسؤول عن نفسه، ومسؤول عن أهله فإنهم رعيته.

وقد جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[١].

---

(١) عزاه في: (الفتح الكبير) إلى: (مسند) أحمد، و(الصحيحين) وأبي داود والترمذي.

الوجه الثالث:

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

والمعنى: كلما أُلقي في جهنم جماعة من الكفرة ـ إلقاءَ الحطب في النار ـ ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: رسول من عند الله تعالى، يُنذركم لقاء يومكم هذا، ويُبين لكم طريق الهدى والرشاد، والحق والسداد.

وفي هذا السؤال إلزامهم بالإقرار والاعتراف؛ بأن حجة الله تعالى قائمة عليهم، وأنه سبحانه عَذَّبهم بحق، وما ظلمهم الله تعالى، ولكنهم هم الظالمون لأنفسهم، فما لهم عُذر صحيح يعتذرون به، وليس لهم حجة يدافعون بها عن أنفسهم، ولذلك جاء في الجواب: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

وهذا نظير قوله تعالى في إخباره عن أهل النار:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا[1] حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) زمَراً: جمع زمرة، وهي: الجماعة، فأهل النار هم على أصناف متعددة، على حسب نوعية كفرهم وشدتها، فهناك شديد الكفر، وهناك الأشد، فكل كافر يُساق مع زمرته.

فلما انتهى الكفار إلى جهنم فتحت أبوابها في وجوههم بغتة وهذا أشدُّ في مشاهدة المنظر الفظيع الهائل المخيف وهو جهنم.

حتى إذا صاروا فيها قال لهم خزنتها على طريق التوبيخ والتعنيف، والزجر والتقريع، مع شدة الإغلاظ كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ الآية، قالوا للكفار: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: اليوم ـ يوم القيامة ـ وما اشتمل عليه من السؤال والحساب، والعقاب والعذاب.

والمعنى: أن رسل الله تعالى جاؤوا يتلون عليكم آيات ربكم، التي فيها الهدى والإرشاد إلى ما فيه رشادكم وسعادتكم، ونجاحكم وفلاحكم في الدنيا والآخرة، وفيها بيان مصالحكم في الدنيا والآخرة، وفيها بيان ما يُفسد أمركم في الدنيا والآخرة، لأنها آيات من عند ربكم، خالقكم ومربيكم، وهو أعلم بما فيه صلاحكم وسعادتكم، وأعلم بما فيه شقاؤكم وفسادكم، فإن الخالق هو أعلم بما خلقه، وبما فيه صلاح مخلوقاته.

وقد جاءت رسل الله تعالى بالبينات الساطعة، والبراهين القاطعة، والحجج الدامغة، والأدلة على حقية ما جاؤوا به باعتراف الكفار في جهنم كما أخبر سبحانه وتعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

فلما طلب الكفار من خزنة جهنم أن يَدْعُوا لهم بأن يخفف الله

تعالى عنهم من العذاب: قَدْر يوم، أجابتهم الخزنة على طريق التوبيخ والتعنيف، وإلزامهم بالاعتراف والإقرار: ببغيهم وكفرهم، وطغيانهم وظلمهم لأنفسهم، فقالت الخزنة لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الحجج والبراهين التي بان لكم فيها الحق الذي جاءت به الرسل: بياناً واضحاً جلياً ـ ولكنكم كذبتم وكفرتم.

ولذلك قالت الكفار: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قد جاءت الرسل بالبينات والأدلة القاطعة، فقالت لهم الخزنة: ﴿فَٱدْعُواْ﴾ ـ أي: فنحن الملائكة الخزنة لا يمكن أن ندعو لكم وهذا حالكم، فادعوا أنتم لأنفسكم ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بتخفيف العذاب عنهم ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في بُطلان وضياع لا يُجاب.

وقد أخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز عما يقول للكفار يوم القيامة وعن جوابهم، قال تعالى:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

فقد أقرّوا واعترفوا أنّ رسل الله تعالى بلّغتهم، وبيّنت لهم، وأنذروهم لقاء الله تعالى، وأن يوم القيامة هو حق، وشهدوا على أنفسهم بذلك، وغرتهم الحياة الدنيا وزينتها، وزخارفها، وأموالها؛ فكذبوا الرسل وأنكروا الآيات.

وشهدوا على أنفسهم يوم القيامة أنهم كانوا في الدنيا كافرين،

جحدوا الحق الذي جاءت به الرسل، وستروه وكذبوه بعدما عرفوا أنه الحق وتبين لهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ أي: إلى عالم الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالكفار يعترفون يوم القيامة أنهم كانوا في الدنيا كافرين كما قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

ويشهدون على أنفسهم بذلك كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

ويعلمون أنهم مستحقون للعذاب، وأنه سبحانه لم يظلمهم ولكنهم هم الظالمون لأنفسهم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فعذاب الله تعالى لهم حق كما قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: وجبت بحق.

الوجه الرابع:

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

في هذه الآية الكريمة ونظائرها من الآيات الكريمة المتقدمة ـ في ذلك: أدلة مشهودة على حقية ربوبيته سبحانه، وعلى حقية ملكه، وكمال حكمته في تصرفه بعباده، كما قال تعالى:
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ

﴿ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ .

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ .

فهو سبحانه الرب الحق، والملك الحق، ومِنْ شأنه أن يُرسل إلى عباده رسلاً، ويُنزل عليهم كتباً فيها إرشادات وتوجيهات، وتعاليم فيها فلاحهم ونجاحهم، وصلاح أمور دنياهم وآخرتهم.

وفيها سعادتهم أفراداً وجماعات، وفيها الأوامر الإلٓهية التي تدلهم على كل خير، وفيها النهي والتحذير عما يوقعهم في الفساد والضرر والشر: حالاً ومآلاً.

وفيها بيان المسؤولية والمحاسبة والمجازاة عما يعمله الإنسان من خير أو شر، ومن محاسن ومساوىء، وهذا كله مما يدل عليه قوله تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ .

والمعنى: أفظننتم أنما خلقناكم عبثاً بلا حكمة لنا في خلقكم، بل خلقناكم للعبادة التي فيها شَرفكم وعزكم، وتقربكم إلى ربكم: بامتثال أوامره، واجتناب ما نهى عنه، حتى تدخلوا جنته؛ دار كرامته ورضوانه ورؤيته وتجلياته.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ .

وإن شرف العبد في عبادته لربه، وتقربه إليه سبحانه بامتثال أوامره.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ

بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به» الحديث كما في: (صحيح) البخاري وغيره.

وقد تكلمت على هذا الحديث في كتاب: (التقرب إلى الله تعالى) كلاماً مفصلاً فارجع إليه ينفعك الله تعالى.

فالله تعالى خلق الخلق ليُعبَد كما دلت عليه الآية المتقدمة، وخلق الخلق ليُعلم بصفاته وكمالاته وأسمائه.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا﴾.

فخلق سبحانه الخلق ليُعلم بصفاته، وكمالاته، وأسمائه، وعظمة قدرته، وسعة علمه، وكلما ازدادوا به علماً ازدادوا له حُباً، وإليه تقرباً بالعبادات قال تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩﴾، فاعتبروا يا أولي الألباب.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾.

ـ أي: تقدَّس سبحانه عن أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق الذي لا يَزول ولا يُزال ملكه وسلطانه، وله الحكمة البالغة في جميع أفعاله، وخلقه وإيجاده، وتصرفاته في عباده، وفي جميع أوامره، وشرائعه، وأحكامه.

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فهو الذي يخلق، وهو الذي يأمر ويشرع ما فيه صلاح عباده، وفلاحهم، وسعادتهم، ونجاحهم، لأنه أعلم بخلقه، وبما يصلح أمورهم في الدنيا والآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن

يُتۡرَكَ سُدًى﴾ أي: يترك في هذه الدنيا مُهملاً لا يُؤمر ولا يُنهى، ولا تتوجه التكاليف الشرعية الإلَهية عليه، وليس هناك محاسبة ولا مسؤولية، كلاَّ - بل هناك الأوامر الإلَهية، والتكاليف الشرعية، المشتملة على ما فيه صلاح أمور دين الإنسان؛ وأمور دنياه، وهناك يوم الجزاء والحساب، والسؤال، فيبعثه الله تعالى، ويحييه بعد موته يوم القيامة، والله تعالى قادر على ذلك لا يعجزه شيء.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ بلى وعزة ربنا.

فلم يترك الله تعالى الإنسان سدى مهملاً، بل ألزمه بأوامر، ونهاه عن مناهي، وفي طاعته لأوامر الله تعالى وانتهائه عن مناهيه تكون كرامته، وسعادته في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٍ﴾ - أي: أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة - ثم بين الحكمة في خلقه فقال سبحانه: ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ - أي: نريد أن نختبره بالتكاليف الشرعية، التي فيها الأوامر الإلَهية، المتوقف عليها سعادة الإنسان وفلاحه في الدارين، ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ أي: أعطاه الله تعالى السمع والبصر، أي والعقل وما هنالك من المدارك والصفات التي يتمكن بها من القيام بالتكاليف الشرعية: ائتماراً بالأوامر وانتهاءً عن المناهي.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

المراد بالهدى هنا هدى البيان والدلالة، والسبيل هو الطريق ـ أي: بيَّن الله تعالى للإنسان طريق الحق والرشاد، وهو الصراط المستقيم قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وهذا هو طريق السعادة الأبدية.

وهذا الهدى الإلٓهي للإنسان هو بواسطة الرسل صلوات الله تعالى عليهم، وإنزال الكتب الإلٓهية على الرسل قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

فجاءت رسل الله تعالى يُبَيِّنُوْن للناس، ويَدُلُّونهم على طريق الحق، ويوضحون لهم ذلك، ويأتونهم بالآيات البينات: الآيات المتلوَّة التدوينية النازلة من عند الله تعالى، والآيات التكوينية؛ وهي المعجزات الخارقة للعادة التي أجراها الله تعالى على أيديهم، مع الحجج والبراهين القاطعة، الدالة على حقية ما جاؤوا به ـ فموقف الإنسان في ذلك: **ما بين** مؤمن بذلك، وشاكر لنعمة الله تعالى عليه بقلبه وعمله وقوله، **وما بين** مكذب كفور.

ثم أخبر الله تعالى عن جزاء الجاحد الكافر فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾.

وأخبر عن جزاء المؤمن الشاكر فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ إلى تمام الآية، فأخبر عن جزاء الأبرار وعن جزاء المقربين.

وفي هذا ينبه الله تعالى عباده إلى حقية يوم الجزاء وهو يوم

القيامة، يجمع الله تعالى فيه الخلائق، فيحاسبهم، ويجازيهم على أعمالهم، وذلك مقتضى حكمة الله تعالى: الحكم العدل.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا قام من الليل يتهجَّد قال:

«اللهم ربنا لك الحمد أنت قيِّم السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد أنت مالك السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد أنت الحقُّ، ووعدك حق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيُّون حق، ومحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم حق، والساعة حق.

اللهم لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ؛ فاغفر لي ما قدمتُ وما أخَّرتُ وما أسررتُ، وما أعلنتُ، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم، وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت» الحديث كما تقدم فاحفظه فإنه يزيد الإيمان.

قال في: (التيسير): أخرجه الستة وهذا لفظ الشيخين. اهـ.

فواظب أيها المسلم على هذا الدعاء يؤتك الله تعالى به خيراً كثيراً.

وقوله تعالى مخبراً عن الكفار حين سألهم خزنة النار: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

وفي هذا إقرار من الكفار بأن رسلهم قد بلغوهم، وأقاموا عليهم الأدلة القاطعة، ولكنهم كذبوا، وأنكروا آيات الله تعالى التي تلتها عليهم الرسل صلوات الله تعالى عليهم، وقالوا لرسلهم: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أي: من الآيات، وما تضمنته من العقائد والأحكام، والوعد والوعيد، إلى ما وراء ذلك.

وقالوا لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ أي: ما أنتم إلا في ضلال أي: ذهاب عن طريق الهدى، وعدم الدراية، وبُعدٍ عن الصواب، فأقروا بكفرهم وبجميع ما قالوه رداً على رسلهم، وجحودهم للحق المبين الذي جاءت به رسلهم؛ الثابت بالحجج والبينات، واتهموا رسلهم بأنَّهم في ضلال كبير.

فلما صاروا في الآخرة وعاينوا ما أخبرت عنه رسلهم صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم ـ هناك اعترفوا بذنوبهم، وضلالهم وكفرهم ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

ندم البغاة ولات ساعة مندم ... والبغي مَرتع مُبْتَغيْه وخيم

الوجه الخامس:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قال العلامة البيضاوي رحمه الله تعالى في هذه الآية الكريمة:

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلامَ الرسل، فنتقبله جملة من غير بحث وتفتيش، اعتماداً على ما لاح ـ أي: ظهر ظهوراً واضحاً ـ من صدقهم ـ أي: في كلامهم وبما جاؤوا به ـ بالمعجزات ـ أي: بسبب المعجزات وخوارق العادات التي أيَّدهم الله تعالى بها، وجعلها حجة قاطعة تدل على صدقهم وأنّهم رسل الله تعالى حقاً.

﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ فنفكر في حِكَمه ـ أي: حِكَم ماجاءت به الرسل ـ ومعانيه ـ أي: حِكَم ومعاني ما جاؤوا به ـ تفكُّرَ المستبصرين ـ أي: إذاً ـ لَعلِمنا أنَّ ما جاؤوا به ـ أي: الرسل ـ هو الحق، ولآمَنَّا بهم وبما جاؤوا به و﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1] اهـ ـ أي: ولكنهم أعرضوا عن ذلك، وكذبوا الرسل وما جاؤوهم به.

وقد ذكر الله تعالى موقف الكفار مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، حين كان يتلو عليهم القرآن الكريم، وإعراضهم عن سماعه، وتشاغلهم ولغوهم حتى لا يسمعوه.

قال الله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ[2] مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ[3] وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ[4] فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾.

---

(١) انظر تفسير العلامة البيضاوي، وتفسير العلامة الخطيب.

(٢) أي: أغطية جمع كنان.

(٣) أي: صمَم، وأصل الوقر الثقل.

(٤) أي: حجاب يمنعنا عن التواصل، وعن رؤية ما جئت به من الأنوار وعلامات النبوة.

أي: فاعمل بدينك إننا عاملون بديننا ـ أي: بما نحن عليه من الشرك وعبادة الأوثان.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ[1] فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

وأخبر سبحانه عن عدم تفكرهم وتدبرهم، وتعقلهم فيما جاء به هذا القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ الآية.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن جواب الكافر حين يُسأل في القبر، وأخبر عما يقول له الملكان:

جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّ العبد إذا وُضع في قبره وتولّى عنه أصحابه ـ وإنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا ـ أتاه ملكان فَيُقْعِدَانه ويقولان له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل» سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟

«فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله.

فيُقال له: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً، ويفتح الله له من قبره إليه» ـ أي: إلى مقعده في الجنة.

«وأما الكافر والمنافق فيقول: لا أدري، كنت أقول كما يقول الناس.

---

(١) أي: وعارِضوه، وارفعوا أصواتكم لتُشَوِّشوا على القارىء.

فيقال له: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْت[1] ثم يُضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة فيسمعها مَنْ يليه إلا الثقلين»[2].

وروى الشيخان وغيرهما عن أسماء رضي الله تعالى عنها، أَنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال:

«ما من شيء لم أكن أُريته إلا رأيتُـهُ في مقامي هذا، حتى الجنة والنار، وأوحي إليَّ أنكم تُفتنون في قبوركم مثل أو قريباً ـ شك الراوي عن أسماء ـ من فتنة المسيح الدجال، يقال لأحدكم: ما عِلمُك بهذا الرجل ـ أي: سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ.

فأما المؤمن أو الموقن ـ لا أدري أيهما قالت أسماء ـ فيقول: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى؛ فأجبناه واتبعناه هو محمد ـ ثلاثاً ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فيقال: نمْ صالحاً قد علمنا إن كنتَ لموقناً به» أي: نحن نعلم أنك كنت موقناً به من قبل أن نسألك.

«وأما المنافق أو المرتاب ـ لا أدري أيهما قالت أسماء ـ فيقول:

---

(١) «لا دريت» أي: لا علمت بدرايتك وتفكرك، حتى تعلم صدق الرسل فتؤمن به صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن ما جاء به هو الهدى ودين الحق، و«لا تليت» أي: ولا اتبعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقد تبين صدقه بسبب المعجزات والبينات التي جاء بها بل أعرضتَ وكفرتَ.

(٢) قال في: (تيسير الوصول): أخرجه الخمسة إلا الترمذي. اهـ

لا أدري، سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلته».

ولا تنافي بين الحديثين المتقدمين، فكلٌّ من الأسئلة وارد وواقع.

وانتبه أيها المؤمن إلى قوله ـ أي: المؤمن ـ: «فأجبناه واتبعناه» صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وابذل جهدك في التحقق بمتابعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن الجواب عن سؤال الملكين في القبر إنما يَصدر عن الحقيقة التي هي فيك، ولا يمكنك ولا تستطيع أَنْ تجاوِب عما ليس فيك ـ فانتبه، وأعدَّ العدة، والسؤال واقع لا مفرَّ منه.

فنسأل الله تعالى أن يُلقِّننا الجواب على أكمل الوجوه، وأرضاها لله تعالى ورسوله؛ بجاه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبكرامته على الله تعالى مع تمام التيسير ـ آمين.

الوجه السادس:

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

في هذه الآية الكريمة: يخبر الله تعالى عن اعتراف الكفار بذنوبهم، وإقرارهم على أنفسهم أنهم المذنبون، وهم الظالمون لأنفسهم، وإنَّ حجة الله تعالى قائمة عليهم ومالَهم من حُجة، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ الآية.

وإن الله تعالى لم يظلمهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ وأن عذاب الله تعالى لهم هو حقٌّ ـ كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

روى الإمام أحمد بإسناده، عن أبي البحتري الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال:

«لن يهلك الناس حتى يُعْذِروا من أنفسهم»[1].

أي: حتى تكثر ذنوبهم وعيوبهم؛ فيستوجبون العقوبة اهـ ملخصاً من النهاية.

قوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: فبعداً لهم من رحمة الله تعالى، وهو دعاء عليهم[2].

والسحق هو البعد، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد.

قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

في هذا الاعتراف ـ أي: اعتراف الكفار بذنوبهم وإقرارهم على أنفسهم بكفرهم كما تقدم في قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ أي: لرسلهم ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

---

(١) عزاه في: (الفتح الكبير) إلى الإمام أحمد، وأبي داود، وأورده الحافظ ابن كثير عن الإمام أحمد ثم قال: وفي حديث آخر: «لا يدخل أحد النار إلا وهو يَعلم أنّ النار أولى به من الجنة».

(٢) وهو ـ أي: ﴿فسحقاً﴾ ـ هو منصوب على أنّه مصدر مؤكد، أي: سحقهم الله تعالى سُحقاً، انظر تفسير الآلوسي والخطيب وغيرهما.

في هذا دليل على أن كفرهم، وذنوبهم وأعظمَها كفرهم كل ذلك صدر عنهم باختيارهم وإرادتهم، وأنهم استحبُّوا الكفر على الإيمان، وأنهم استحبوا العمى على الهدى، وسلكوا طريق الردى.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الآية.

ولذلك استحقوا العذاب كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

فإن الله تعالى قد أعطى الإنسان الاختيار والإرادة، وسائر صفات الكمال التي يتوقف عليها التكليف، ثم كلَّفه وبيَّن له ـ وهذا بواسطة الرسل صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم ـ طريق الحق الجامع لخير الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ ـ أي: نكلفه ـ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَٰهُ﴾ ـ أي: دللناه وبينا له ـ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ ـ أي: طريق الحق والرشاد ـ ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

والمعنى: أن الإنسان بعد هدي البيان الذي جاءت به الرسل من عند الله: إما أن يختار طريق الحق والهدى، أو يختار الضلال والردى.

فالاختيار ثابت للإنسان شرعاً وعقلاً، وذوقاً ووجداناً.

أما ثبوت الاختيار شرعاً: فإنّ الشارع أثبت للإنسان حالة اختيار، وَرتَّب المؤاخذة والمعاقبة على أفعاله؛ وهو مختار لها، كما أثبت الشارع للإنسان حالة اضطرار؛ ورفع عنه المؤآخذة والمعاقبة حال كونه فيها فقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ

ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ الآية.

ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ أي: مجاعة شديدة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي: غير مائل لإثم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فبيَّن سبحانه أنَّه حرَّم تلك المحرمات في غير حالة الاضطرار إليها، أما إذا اضطر إليها بأن اشتد الجوع على إنسان، وخاف الموت على نفسه من شدة الجوع، وليس هناك شيء يتناوله سوى تلك المحرمات؛ فلا إثم عليه من تناوله منها قدر الضرورة، لأنه مضطر إلى ذلك غير مختار.

وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر رضي الله عنهما، حين أخذه المشركون فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا باللسان؛ ولكنّ قلبه مطمئن بالإيمان ـ رواه البيهقي وابن جرير وغيرهما.

وقد ذكر الفقهاء أقسام الإكراه وأحكامه المرخِّصة والموجِبة.

وكما أَنَّ الله تعالى أثبت للعبد اختياراً فقد أثبت له الإرادة والمشيئة:

قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ .

اللهم اجعلنا منهم بجاه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ .

وقال تعالى في إثبات المشيئة للعبد: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

وأما ثبوت الاختيار والإرادة والمشيئة للعبد عقلاً:

فهذا أمر بديهي ظاهر في أعمال الإنسان، ومعاملاته، وبيعه وشرائه، وأخذه وعطائه، فهو يختار الأنفع والأصلح، والمبيع الأجود، ويبيع بالثمن الأكثر، فالاختيار في حركاته وسكناته ظاهر.

وأما ثبوت الاختيار: ذوقاً ووجداناً:

فإنَّ الإنسان يعلم من نفسه أنّ له أعمالاً تصدر عنه بلا اختيار، بل هو مضطّر إليها، ولا يستطيع دفعها، كالعطاس والرعشة والتثاؤب ونحو ذلك.

وليس أحد من الناس يتساوى عنده صدور أعمال القيام والجلوس، وتناول الطعام والشراب، وغير ذلك ـ لا يتساوى صدور هذه الأعمال عنده مع العطاس والتثاؤب، بل يفرق بينهما بذوق نفسه ووجدانه، والناس حوله تُفرق بينهما.

فمهما عطس وكثر عُطاسه، وارتفع صوته بالعطاس، وضجَّ أهل

المجلس، فإنَّهم يعذرونه، لأنهم يعلمون أنّ ذلك صدر لا عن اختياره.

فلو قلنا: لا اختيار للإنسان في جميع أعماله؛ لكانت جميع أعماله الصادرة عنه هي والعطاس سواء ـ وهذا لا يقول به عاقل.

اختيار الإنسان وإرادته ومشيئته كل ذلك بخلق الله تعالى وإرادته ومشيئته سبحانه:

إنّ الله تعالى خلق الإنسان، وخلق له صفات متعددة، تنشأ عنها أمور وأمور، وكل ذلك بخلقه سبحانه، فإنه سبحانه هو الخالق وحده ـ أي: الموجد للأشياء بعد أن لم تكن، لا يُشاركه في ذلك أحد؛ ولا في خلق ذرة.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾.

وقال تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾.

وبَيَّن سبحانه أنّه خلق الإنسان وجعله موجوداً بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً:

قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ﴾ الآية.

فالإنسان موجود بإيجاده تعالى، وكل مخلوق فهو موجود ما دام يمده الله تعالى بالوجود، فإذا قطع عنه مدد الوجود رجع إلى العدم.

قال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ

ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

فالمخلوق لا يملك الوجود على نفسه.

وبَيَّن أنه سبحانه أعطاه الحياة.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

فالإنسان حيٌّ بحياة خلقها الله تعالى فيه، محدودة متناهية.

وإذا قيل: ليس الإنسان بحي فما الفرق بينه حياً وبينه ميتاً؟

ومن صفات الإنسان التي أعطاه الله إياها صفة العقل فهو يعقل:

قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ومن صفات الإنسان أنه سميع بصير:

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

فهو سميع بصير حقيقة واقعية، كما وصفه الله تعالى بذلك، فهو يسمع ويبصر.

ومن صفات الإنسان التي أعطاه الله تعالى إياها: الإرادة فهو يريد هذا ولا يريد هذا.

قال تعالى: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾.

وقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾.

ومن صفات الإنسان التي أعطاه الله إياها: المشيئة:

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ الآية.

ومن صفات الإنسان التي أعطاه الله إياها: الاختيار:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

وقد تقدم هذا.

وإنَّ جميع تلك الصفات المذكورة وسائر صفات الإنسان هي كلها مخلوقة بخلق الله تعالى، وبقدرته، وبإرادته، ومشيئته سبحانه.

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

فاختيار العبد وإرادته ومشيئته، واختياره لهذا دون غيره، وإرادته لهذا دون غيره، ومشيئته لهذا دون غيره، وجميع صفاته كلها؛ بخلق الله تعالى، وإرادته، ومشيئته سبحانه.

كما أَنَّ جميع أعمال الإنسان وأقواله هي مخلوقة بخلق الله تعالى.

فإن قيل: يلزم من كون اختيار الإنسان، وإرادته، ومشيئته، وأعماله مخلوقةٌ بخلق الله تعالى، وإرادته ومشيئته ـ يلزم من ذلك

أَنّ صفة اختيار العبد وإرادته ومشيئته ـ ليس لها حقيقة وجودية واقعية، وأنها لا أثر لها في أقوال الإنسان وأعماله وجميع أفعاله.

فالجواب عن ذلك: أَنّ هذا اللزوم باطل من وجوه:

أولاً: إذا كان يلزم من خلق الله تعالى لاختيار الإنسان، وإرادته ومشيئته ـ وإنَّ ذلك كله بإرادة الله تعالى ومشيئته ـ إذا كان يلزم من ذلك أَنْ لا اخْتيار للإنسان، ولا مشيئة له، ولا إرادة له، ولا أثر لذلك، فيجب أن يجري هذا اللزوم ويطَّرد في بقية صفات الإنسان التي آتاه الله تعالى إياها، بل يجري هذا اللزوم في أصل وجود الإنسان الذي أكرمه الله تعالى به.

فإن الله تعالى هو خلق الإنسان وأوجده بإرادته سبحانه، ومشيئته، ولا يلزم من ذلك أَنْ لا وجود للإنسان، بل الإنسان موجود حقاً: وجوداً إمكانياً بإيجاد الله تعالى له، وبمشيئته سبحانه وإرادته، وإلاَّ فما الفرق بين الإنسان بعد أن أَوجده الله تعالى وبينه قبل أن يُوجده الله تعالى حين كان معدوماً غير موجود؟

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الآية.

أي: فبعد أن خلقه الله تعالى صار إنساناً مذكوراً.

كما أن من صفات الإنسان أَنّه حَيٌّ، وحياته هي بخلق الله وإرادته ومشيئته:

قال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

ولا يقال: إنه لا حياة للإنسان، لأنها بخلق الله تعالى.

لأننا نقول إذاً: فما الفرق بين الإنسان الحيِّ والميت؟!

كما أن من صفات الإنسان التي خلقها الله تعالى فيه أنه: سميع بصير:

قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

فسمع العبد وبصره: مجعولان موجودان، مخلوقان بخلق الله تعالى، وبإرادته ومشيئته، فهو سميع بصير، وإلاَّ فما الفرق بين الإنسان البصير السميع وبين الأصَمِّ الأعمى؟!

وهكذا من صفات الإنسان: الإرادة والاختيار والمشيئة فهو مريد وهو مختار، وهو ذو مشيئة وهو يريد.

قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

وهو يختار كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

وهو يشاء، قال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وكل ذلك بخلق الله تعالى، وإرادته ومشيئته:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

فذوات العباد وصفاتهم، وأعمالهم وأقوالهم، وأحوالهم التي يتقلبون فيها: كل ذلك مخلوق بخلق الله تعالى، وإرادته سبحانه ومشيئته، ومع ذلك فإنّ لصفاتهم وأعمالهم وأقوالهم آثاراً، وأحكاماً، ومسؤوليات تترتب على تلك الصفات، والأعمال

والأقوال، كما سيتضح قريباً إن شاء الله تعالى وجميع ذلك بخلق الله تعالى.

فالخلق: إيجاد الشيء وتكوينه بعد أن لم يكن.

هذا خاص به سبحانه، فهو الخالق وحده لا شريك له.

ثانياً: إن الله تعالى خلق الإنسان، وأعطاه السمع والبصر، والإرادة والاختيار، والمشيئة، وبقية الصفات من القوى العقلية، والإدراكية، والفكرية، والعملية وما هنالك؛ وكلها بخلقه سبحانه وتعالى، ثم كلفه بالتكاليف الشرعية على نسبة ما خلق، وأعطاه من تلك الصفات والقُوى كما بين سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ ـ أي: نريد اختباره وتكليفه ـ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ـ أي: وما وراء ذلك من الصفات والقوى، التي تجعله أهلاً للقيام بالتكاليف الشرعية التي فيها سعادته، وصلاحه وفلاحه في الدنيا والآخرة.

وإنما خص ذكر السمع والبصر في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ لأنهما الطريقان الموصلان الأمور للعقل ليعقلها، ولذلك جاءت التكاليف الشرعية على وجه لا حرج فيه، ولا تكليف فوق الطاقة، لأنه سبحانه أعطاه من الصفات والقوى ما يمكنه من القيام بالتكاليف الشرعية:

قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

أي: إلا ما تسعه قدرتها، لأن التكليف لا يَرِدُ إلا بعمل يقدر

عليه المكلَّف، والمراد بـ: وسعها ـ ما دون مدى طاقتها، بحيث يتيسر عليها لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الآية.

وفي هذه التكاليف الشرعية، وترتيب الجزاء عليها: ثواباً في الأعمال الحسنة، وعقاباً في الأعمال السيئة، كما قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾.

في هذا دليل قاطع ساطع على أن الإنسان له اختيار، وإرادة ومشيئة، وإنْ كان ذلك بخلق الله تعالى وإرادته ومشيئته.

ثالثاً: أن الله تعالى أخبر في كتابه العزيز: أن للعباد أعمالاً عملوها، وأقوالاً قالوها، ورتب على ذلك جزاءً: إما ثواباً، أو عقاباً كما تقدم.

وفي إسناده سبحانه تلك الأعمال والأقوال إليهم، ونسبتها إليهم: في هذا دليل على أَنَّ أعمالهم وأقوالهم لها آثارها وأحكامها، واعتبارها في الجزاء، وأنها أمر واقعي ليس من باب الوهم أو الخيال؛ وإن كانت بخلق الله تعالى، وإرادته ومشيئته سبحانه، فقد نسبها الله تعالى إلى العباد ـ وهذه النسبة إليهم لها اعتبارها.

قال الله تعالى في المسيئين عملهم: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا

كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ .

أي: وإنا لصادقون في أنهم بغوا، وطغوا، فاستحقوا العقاب ـ فَنَسْب البغي إليهم نسبة حقة.

وقال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ .

فإسناده سبحانه وتعالى الكفر للذين كفروا، وترتُّب العقاب على كفرهم ـ دليل على أنهم كفروا حقاً لا وهماً، وأن ذلك واقعي صادر عن اختيارهم، ولو لم يكن لهم في ذلك اختيار ثابت ما عاقبهم:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

وقال: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ .

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ .

نعم صدق الله العظيم.

وفي هذه الآيات دليل على أنهم عُوقبوا بعملهم، واختيارهم الذي خلقه الله تعالى فيهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ ـ أي: طريقاً بين الإيمان والكفر يسلكونه، مع أنه لا واسطة بين الإيمان والكفر قطعاً، فإن الحق هو الحق لا خلاف فيه، وماذا بعد الحق إلا الضلال ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ ـ أي: هم الذين كفروا كُفراً حقاً قطعاً، واقعاً لا شك فيه ولا ريب ـ ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾.

فأثبت لهم إرادة الكفر واختياره، ورتَّب على ذلك العذاب المهين.

وأسند الله تعالى للمؤمنين أعمالهم الصالحة، وأثبت لهم اختيارهم، وإرادتهم لها، ورتب عليها جزاءهم وثوابهم وأجورهم:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

وقال تعالى في المؤمنين بعد أن أدخلهم الجنة، وأعطاهم ما أعطاهم من ألوان النعيم، والفضل والكرم الإلٰهي قال لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾.

والمعنى: أنتم عملتم وأحسنتم، وسعيتم فيما يُرضي ربكم:

فامتثلتم أوامره، واجتنبتم ما نهاكم عنه؛ فهذا جزاؤكم؛ وسعيكم مشكورٌ ومرضيٌّ ومقبول.

فالله تعالى يَشكرهم على سعيهم، وأعمالهم التي عملوها ابتغاء مرضاته سبحانه، خالصة لوجهه الكريم.

وقد ذكر سبحانه في الآيات الكريمة المتقدمة على هذه الآية في سورة الدهر ـ ذكر فيها صدقهم في أعمالهم، وإخلاصهم وبغيتهم فقال: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً ﴾ أي: بالأعمال ﴿ وَلَا شُكُورًا ﴾ أي: بالثناء والأقوال.

فهم لا يريدون من المخلوقات لا جزاء ولا شكوراً، وإنَّما يريدون شُكر الخالق وجزاءه جل وعلا، ولذلك لما دخلوا الجنة ـ وقد أعطاهم الله تعالى ما أعطاهم، من الثواب العظيم، والنعيم المقيم ـ قال الله تعالى لهم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾.

اللهم اجعلنا منهم بفضلك ورحمتك، يا ذا الفضل العظيم، بجاه حبيبك الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فالله تعالى يشكر المؤمنين المحسنين على إحسانهم في عملهم، وإخلاصهم له سبحانه.

قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾.

فهو سبحانه يُعطي بيسير الطاعات الخالصة: كثير الحسنات والخيرات، ويعطي بالعمل الصالح الخالص في أيام معدودة: نعماً في الآخرة غير محدودة.

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج وإذا كلب يلهث[1] ـ يأكل الثرى[2] من العطش.

فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفَّه ماء، ثم أمسكه بفيه ـ أي: فمه ـ حتى رقى فسقى الكلب».

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فشكر اللهُ تعالى له فغفر له».

قالوا: يا رسول الله: وإنّ لنا في البهائم أجراً؟

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «في كل كبدٍ رطبة أجر».

قال في: (التيسير) أخرجه الثلاثة[3] وأبو داود.

فعليك برحمة الإنسان، ورحمة الحيوان، وإياك والظلم:

روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«دخلت امرأة النار في هرّة ربطتها، فلم تُطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[4].

---

(١) أي: أخرج لسانه من شدة العطش والحر.

(٢) قال في: (التيسير): الثرى: هو التراب النديّ.
والمراد هنا: التراب مطلقاً. اهـ

(٣) أي: الشيخان ومالك.

(٤) خشاش الأرض: هَوامُّها وحشراتها، كما في: (التيسير).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

الكلام على ذلك له وجوه:

الأول: الخشية من الله تعالى هي: كمال التعظيم والإجلال لله تعالى، مع الخوف من عذابه ـ وكلَّما ازداد المؤمن علماً بعظمة الله تعالى، وكمال أسمائه الحسنى، وصفاته العليا: زادت خشيته من الله تعالى.

وإنَّ أعلم الخلق بالله تعالى، وأخشاهم لله تعالى هو: سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم رسول الله تعالى.

روى الشيخان عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: صَنع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم شيئاً تُرخِّص فيه، فتنزَّه عنه قوم، فبلغه ذلك، فخطب صلى الله عليه وعلى آله وسلم فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما بال أقوام يتنزَّهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدُّهم له خشية»[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ الآية.

وقد بيَّن الله تعالى أَنَّ الخشية من الله تعالى هي من صفات المؤمنين الفائزين:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾.

---

(١) كما في: (تيسير الوصول).

كما بين سبحانه أن الخشية من الله تعالى هي من صفات السابقين المقربين:

قال الله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

كما بين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فضل الخشية من الله تعالى، ومنزلة البُكاء من خشية الله، والبَكَّائين من خشية الله تعالى.

روى الترمذي وحسنه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول:

«عينان لا تمسُّهما النار: عين بكت من خشية الله تعالى، وعين باتت تحرس في سبيل الله تعالى».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يلج النار ـ أي: لا يدخل النار ـ رجل بكى من خشية الله؛ حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله تعالى ودخان جهنم».

رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن سيدنا العباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«إذا اقشعرَّ جلد العبد من خشية الله تعالى، تحاتَّتْ ـ أي: تساقطت ـ عنه ذنوبه؛ كما يتحاتُّ عن الشجرة اليابسة ورقها».

رواه أبو الشيخ، والبيهقي واللفظ له كما في: (الترغيب).

قال: وفي رواية للبيهقي: (كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تحت شجرة، فهاجت الريح فوقع ما كان فيها من ورق نَخِر، وبقي ما كان من ورق أخضر.

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما مثل هذه الشجرة»؟

فقال القوم: الله ورسوله أعلم!

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مثل المؤمن إذا اقشعرَّ من خشية الله عز وجل؛ وقعت عنه ذنوبه، وبقيت له حسناته»).

وروى الترمذي وغيره، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟

قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعْك بيتك، وابْكِ على خطيئتك».

بشرى للمؤمنين

روى الإمام أحمد، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«إن شئتم أنبأتكم ما أوَّلُ ما يقول الله عزَّ وجل للمؤمنين يوم القيامة، وما أول ما يقولون له»؟

قلنا: نعم يا رسول الله.

قال: «إن الله عز وجل يقول للمؤمنين: هل أحببتم لقائي؟

فيقولون: نعم يا ربنا.

فيقول: لمَ؟

فيقولون: رجونا عفوك ومغفرتك.

فيقول: قد وجبتْ لكم مغفرتي».

اللهم اجعلنا منهم بجاه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

الوجه الثاني:

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: لهم مغفرة عظيمة، تأتي على جميع ذنوبهم - وفي هذا بيان فضل الخشية من الله تعالى، وثواب أهل الخشية عند الله تعالى.

وتقديم ذكر المغفرة على ذكر الأجر الكبير - من باب تقديم التخلية على التحلية، فخلَّاهم عن آثار الذنوب والآفات، ثم حلَّاهم بالفضل والنعيم والكمالات.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: لا يُقادر قدره، ولا يعلم قدره إلا الله تعالى، وقد وَصف الله تعالى الأجر الذي يعطيه الله تعالى عباده المؤمنين في غير هذه الآية الكريمة: بأنه عظيم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فالله تعالى ربُّ العالمين يصف ذلك الأجر بأنه عظيم.

روى الإمام أحمد عن أبي عثمان النهدي رحمه الله تعالى قال: أتيت أبا هريرة رضي الله عنه فقلت له: بلغني أنَّك تقول: إن الحسنة تضاعف ألفَ ألفِ حسنة!

قال: وما أعجبك من ذلك، فوالله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول:

«إن الله ليضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة»[1].

وعن المغيرة بن شعبة[2] رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «سأل موسى عليه السلام ربه تعالى: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟

قال سبحانه: هو رجل يَجِيْء بعدما أُدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: أُدخل الجنة.

فيقول: أيْ ربِّ وكيف، وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟

فيقال: أما ترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلِك من ملوك الدنيا؟

فيقول: ربِّ رضيت.

فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله - فيقول في الخامسة: رضيت ربِّ.

فيقول - الله تعالى -: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذَّت عينك.

فيقول: ربِّ رضيت.

فقال - موسى عليه السلام -: فأعلاهم منزلة؟

---

(١) انظر (تفسير) ابن كثير وغيره.

(٢) رواه عنه مسلم والترمذي كما في: (تيسير الوصول).

قال ـ تعالى ـ: أولئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتهم بيدي، وختمتُ عليها: فلم تَر عين، ولم تَسمع أُذن، ولم يخطر على قلب بشر».

اللهم اجعلنا منهم بجاه رسولك سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم عندك.

الوجه الثالث:

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وكما أخبر سبحانه وتعالى أَنَّ لهم الأجر الكبير، وأن لهم الأجر العظيم، أخبر أيضاً أن للمؤمنين زيادة فضل من الله تعالى فوق أجورهم على أعمالهم:

قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ ـ أي: لن تخسر أو تهلك ـ ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ ـ أي: في مقابل أعمالهم ـ ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

وهذا الفضل الذي يزيدهم الله تعالى إياه ليس له حد ولا انتهاء، كلٌّ على حسب مقامه ومنزلته عند الله تعالى.

وإن أعظم فضل يزيدهم الله تعالى وأعلاه؛ هو رؤيته سبحانه، يدل على ذلك ما سيأتي:

قال الله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ

قَتَرٌ﴾ ـ أي: قتام وسواد ـ ﴿وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

روى مسلم والترمذي[1] عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تعالى: تُريدون شيئاً أزيدكم؟

فيقولون: ألَم تُبيِّض وجوهنا؟ ألَم تُدخلنا الجنة؟ ألَم تُنجنا من النار؟

قال: فَيُكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى».

ثم تلا هذه الآية: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾.

وقد روى هذا الحديث: الإمام أحمد بلفظ[2]:

عن صهيب رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تلا هذه الآية: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة إنّ لكم عند الله موعداً، يريد أن يُنجزكموه.

فيقولون: وما هو؟ ألَم يُثقِّل موازيننا؟ ألم يُبيض وجوهنا، ويُدخلنا الجنة ويُجرنا من النار؟

قال: فَيُكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ـ فوالله ما أعطاهم الله

---

(١) كما في: (تيسير الوصول).

(٢) كما في: (تفسير) الحافظ ابن كثير.

تعالى شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقرّ لأعينهم».

وروى ابن جرير وغيره، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً يُنادي: يا أهل الجنة ـ بصوت يسمعه أولهم وآخرهم ـ إنَّ الله وعدكم الحسنى وزيادة، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الرحمن عز وجلَّ».

فيا ربِّ بالخل الحبيب محمد ﷺ رسولك وهو السيد المتواضع
أنلنا مع الأحباب رؤيتك التي إليها قُلوب الأولياء تُسارع
فبابك مقصود وفضلك زائد وجودك موجود وعفوك واسع

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

في هذه الآية الكريمة يُبين الله لعباده، أن علمه سبحانه بإسرارهم القول وبجهرهم به ـ هو على حد سواء، فَلْيُراقبوا ربهم فيما يسرُّونه من القول، وفيما يَجهرون، فإنَّ علمه محيط بذلك كله، ثم أكد سبحانه ذلك وقرَّره، وأقام الدليل عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

والمعنى: أنَّه عليم علماً محيطاً بجميع مضمرات العباد، وأسرارهم الخفية المستكنة في صدورهم؛ فكيف يخفى عليه ما يسرونه من القول وما يجهرون به.

ويجوز أَنْ يُراد بذات الصدور ـ القلوب التي في الصدور.

والمعنى: أنه عليم بالقلوب وأحوالها، وما انطوت عليه، وما يجول فيها، لا يَخفى شيء من ذلك عليه.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾.

وفي هذا بيان إحاطة علمه سبحانه بجميع الأشياء، فهناك: **الجهر بالقول**، وهناك **السر**، وهناك **الأخفى**:

أما الجهر: فهو ما رَفَعت به صوتك، وسمعه من حولك.

وأما السر: فهو ما أسررته إلى غيرك القريب منك، ولم تَرفع به صوتك.

وأما الأخفى: المراد بالآية الكريمة ففيه أقوال متعددة:

فقال بعضهم: هو ما أسررته في نفسك، وما سَتُسِرُّه فيها.

وقال الإمام السيد محمد الباقر، والإمام السيد جعفر الصادق رضي الله عنهما: السر هو ما أخفيته في نفسك، والأخفى ما خطر ببالك ثم أُنسيتَه.

وقال بعضهم: هو ما خطر ببالك من غير أن تَتَفَوَّه به أصلاً.

وهذه الأقوال كلها داخلة تحت عموم: أخفى - فهي من باب اختلاف التنوع، لا من باب اختلاف التضادّ - كما هي القاعدة المقررة في علم التفسير.

فعلمه سبحانه محيط بجميع ذلك على حد سواء، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾.

أي: سواء في علمه سبحانه ﴿مَّنْ أَسَرَّ﴾ منكم القول بأن أخفاه في نفسه، ولم يتلفظ به، وقيل: تلفظ به بحيث لم يُسمِعْ نفسه دون غيره ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ مقابل ذلك على المعنيين.

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾ مُبالغ في الاختفاء، فهو مختف في قعر بيته في ظلام الليل.

﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ظاهر فيه.

وسارب: اسم فاعل، من: سرب إذا ذهب في سربه، أي: طريقه[١] فهو ماش في بياض النهار وضيائه.

فهما في علم الله تعالى على السواء.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ الآية.

وفي هذه الآيات الكريمة وعظ من الله تعالى وتذكير، وتنبيه وتحذير لعباده، يحثهم على مراقبته سبحانه في جميع أقوالهم وأعمالهم، وخلواتهم وجلواتهم، وليلهم ونهارهم، وسرهم وعلانيتهم، فإنَّ الله تعالى يعلم ذلك كُلَّه، ويرى ذلك كُلَّه، فليتقوا الله تعالى في ذلك كله، أَيْنما كانوا، وحيثما كانوا.

جاء في الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «يا معاذ: اتق الله حيثما كنتَ، وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها، وخالق الناس بخُلق حسن».

رواه الترمذي، والإمام أحمد وغيرهما.

قول الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الأول: جاءت هذه الآية الكريمة بعدما تقدم ـ برهاناً قاطعاً،

---

(١) كما في: (روح المعاني) وغيره.

وحجة على من يُنكر إحاطة علم الله تعالى بجميع الأشياء، وبجميع شؤون عباده، وذلك لأنه سبحانه هو الذي خلق العباد، وأعمالهم وأقوالهم، وجميع شؤونهم، وهو الذي خلق كل شيء، فكيف يُتصور في العقل أَنَّ الذي خلق الشيء هو لا يعلم الشيء الذي خلقه، فإنَّ خالق الشيء هو أعلم بالشيء الذي خلقه ـ هذا معلوم ببداهة العقل.

والله تعالى هو خالق كل شيء، فهو خالق للعباد، وخالق لأعمالهم، وأقوالهم، ونياتهم، وعزائمهم، وسرِّهم وجهرهم، وما يُخفون وما يعلنون، فهو العليم بذلك كله بالعلم القديم الذي لا أول له، ولا انتهاء له، وقد خلق جميع الأشياء على علم قديم بها، وعلى مقتضى حكمته القديمة في خلقها.

فهو العليم الذي أحاط علمه بكل شيء، وهو القدير الذي خلق بقدرته كل شيء.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

فهو يعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون؛ وكيف يكون لو كان:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ﴾ ـ أي: الكفار ـ ﴿خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ ـ أي: لأسمعهم القرآن سماع فَهم وحضور قلب ـ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

ففي هذه الآية دليل على أنه سبحانه هو يعلم ما لا يكون، ويعلم كيف يكون لو كان ذلك الشيء.

الوجه الثاني:

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

في هذه الآية الكريمة حجة قاطعة، على أن شريعة الله تعالى: المشتملة على أوامره ومناهيه ـ هي الضامنة والكافلة لصلاح العباد وسعادتهم، لأنه سبحانه هو الذي خلقهم، فهو أعلم بما فيه صلاحهم وبما فيه فسادهم.

فجاءت أوامره سبحانه بما فيه صلاحهم ونفعهم، وكل ما فيه خَيْرٌ لهم، وجاءت المناهي عَمَّا فيه فسادهم، وعن كل ما يعود عليهم بالشَّرِّ والضرر حالاً ومآلاً.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وهذه الآية الكريمة كانت سبباً لإيمان كثير من الكفار برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ومنهم أكثم بن صيفي، فإنَّه أرسل رجلين من أولاده إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يَسألانه: بِمَ جاء؟.

فذهبا وسألاه، فقال لهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«جئتُ بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾» إلى تمام الآية.

فلما رجعا إلى أبيهما قرآها عليه فأعلن إسلامه وقال: (إني أراه صلى الله عليه وعلى آله وسلم يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن

ملائمها، فكونوا ـ يُخاطب عشيرته ـ في هذا الأمر ـ أي: أسرعوا إلى الدخول في الإسلام ـ فكونوا في هذا الأمر رُؤوساً ولا تكونوا أذناباً).

وقد ذكرت هذا الحديث بتمامه وتخريجه في كتابي: (هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان) وتكلمت حول هذه الآية الكريمة كلاماً واسعاً، فارجع إليه ينفعك الله تعالى.

وقال الله تعالى في صفة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبيان ما جاء به من الأوامر والمناهي:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ـ أي: بما هو معروف بخيره ونفعه للعباد ـ ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ـ أي: لأنه منكر ضار للعباد ـ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ الآية.

فما أحله الله تعالى من المآكل والمشارب فهو النافع للعباد، وما حرَّمه من المآكل والمشارب فهو خبيث ضارٌّ ومؤذٍ.

فإن الله تعالى الذي أحلَّ وحرم؛ هو أعلم بما ينفع العباد وما يضرهم، لأنه هو الذي خلقهم، فهو أعلم بما يُصلحهم وبما يفسدهم، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

ولذلك بَيَّن سبحانه أَنَّ التشريع المشتمل على التحليل التحريم، والأمر والنهي، ذلك لله تعالى وحده، لأنه هو الخالق وحده.

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فأَمْر الخلق والتكوين له وحده كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وأمر التشريع المشتمل على الأحكام، وبيان الحلال والحرام له وحده، لأنه أعلم بما خلَق: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

والمعنى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم﴾ بواسطة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، جئناهم ﴿بِكِتَٰبٍ﴾ أي: كتاب عظيم جامع ـ فالتنوين للتفخيم والتعظيم ـ ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾: أي: بَيَّنَّا ما فيه من العقائد والأحكام، والمواعظ والإرشادات الأدبية، والتوجيهات الخُلُقية، وجميع ما هنالك ـ مما فيه سعادة العباد، وصلاح أمور دينهم ودنياهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علم منه سبحانه، بوجه تفصيله، واشتماله على مصالح العباد، وبيان ما ينفعهم ويضرهم في دنياهم وأُخراهم، وذلك لأنه سبحانه هو الذي خلقهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

فالذي خلق العباد هو أعلم بما يُصلحهم ويسعدهم، وينفعهم، ولذلك قال سبحانه: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم الذين يُصدقون، ويُذعنون للحق بعدما تبين، ولا يستكبرون ولا يُعاندون، ولا يجادلون في الحق بعدما تبين، فهم أُولو العقول السليمة الراجحة، والأفكار المستقيمة الناجحة.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الوعظ والموعظة والعظة بمعنى واحد وهو: ذِكْر ما يَلِيْن به القلب من: الترغيب في الثواب، والترهيب من العقاب[(١)].

ولقد جاء القرآن الكريم بأنواع الترغيب، وأنواع الترهيب والتخويف:

قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: هو يعظكم: ينبهكم بما يأمر سبحانه وينهى أحسن تنبيه، لكي تَذكروا فتأتمروا بأوامره، وتنالوا الثواب العظيم، والفضل الكبير، ولتنتهوا عما نهى؛ فتَأْمَنوا من العقاب الشديد والعذاب الأليم.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فنهى سبحانه وتعالى عباده عن اتخاذ آياته هزواً، وذلك: بالإعراض عنها، أو التهاون بالمحافظة على ما جاء فيها من أحكام، وأوامر ومناهي، بل الواجب عليهم أَنْ يَجِدُّوا في الأخذ بها، والعمل بما فيها، ولِيَرْعَوْها حق رعايتها، فإن الله الذي أنزلها

---

(١) وقد يأتي الوعظ بمعنى: الزجر المقترن بتخويف، كما في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ ـ أي: المنافقين ـ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾.

هو الذي يَسألهم عنها، ويُحاسبهم عليها، فلْيتقوا الله، ولْيعلموا أَنّ الله بكل شيء عليم، ولْيتمسكوا بجميع ما جاء به الكتاب ـ أي: القرآن الكريم ـ وبما جاء في الحكمة ـ وهي السنة ـ فإنَّها أنزلها الله تعالى على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالوحي النبوي، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الآية، وهي أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإليها الرجوع في بيان الكتاب، فإنَّ الله تعالى هو الذي بَيَّنه له صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم أمره أن يبينه للناس.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: علينا أن نجمع لك القرآن محفوظاً في صدرك، وأن نُقْرِئك إيّاه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾.

فتكفل سبحانه أن يبين لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هذا القرآن.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فلا يجوز فصل الكتاب عن السنة لأنها بيانه، ولولا هذا البيان النبوي ما فُهم المراد من القرآن: لا أحكامه، ولا أوامره، ولا معانيه، ولا عُلِم عدد الصلوات، ولا مقاديرها، ولا كيفياتها، ولا أوقاتها، ولا عُلِم مقادير الزكاة وما تجب فيه، ولا عُلِم المراد من الصيام، وما يجب الإمساك عنه ـ فإنّ الصيام في اللغة: هو الإمساك مطلقاً ـ ولا عُلِمت أحكام الحج ولا مطالبه.. إلخ.

فلا يُمكن فصل القرآن عن بيانه، وهذا القرآن وهذا البيان

النبوي كلاهما من عند الله الرحمن الرحيم:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

وقال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ـ أي: أنزله ليرحم به عباده سبحانه.

فالسنة النبوية صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أي: أحاديثه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ بيانٌ للقرآن الكريم، فيها بيان للأحكام التي جاء بها القرآن الكريم، والعقائد وبراهينها، والآداب القرآنية، وفيها بيان المعاني المرادة من الآيات الكريمة؛ وجميع ذلك بوحي من الله تعالى: وحياً نبوياً، فإنه سبحانه بيَّنه له.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾.

وأمره أن يُبين هذا القرآن كما بَيَّنه الله تعالى له:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فلا يمكن عزل السنة عن الكتاب، بل السنة ملازمة للكتاب لزوم البيان للمبيَّن، وكلاهما نازل من عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

وكثيراً ما يأتي في القرآن الكريم ذكر السنة ـ التي هي الحكمة ـ مقرونة بالكتاب.

ومن جملة مواعظ القرآن الكريم التي وعظ الله تعالى بها عباده قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

في هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالى جميع العباد أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وهذا الأمر عام، ويعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان.

سواء كانت تتعلق بحقوق الله عز وجل على عباده: من الصلوات، والزكاة، والصيام، والكفارات، والنذور، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه من الأعمال والأقوال.

وتشمل الأمانات المتعلقة بحقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك من الحقوق(١).

روى الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أدِّ الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك».

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

جاء عن كثير من الصحابة رضي الله عنهم، وعن كثير من

---

(١) الأمانات: جمع أمانة، مصدر سُمي به المفعول ـ أي: ما يؤتمن عليه.
قال الحافظ ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسرين أَنّ هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة ابن أبي طلحة ـ وذكر ابن كثير قصة ذلك ثم قال: وسواء نزلت الآية في ذلك أَوْ لاَ فحكمها عامّ. اهـ
قلت: وهذا جاء على القاعدة المقررة في علم التفسير والأصول، أَنَّ خُصوص السبب الذي نزلت فيه الآية الكريمة لا يَمنع عمومها، وأَنَّ سبب النزول هو قطعيُّ الدخول في عموم الآية الكريمة، وهذه القاعدة لها أمثلة كثيرة.

التابعين: أَنَّ المراد بالأمانة في هذه الآية الكريمة ـ هي: أمانة الله تعالى الكبرى، ائتمن عليها عباده أن يُؤدوها، ويرعوها حق رعايتها، وهي: التكاليف الدينية التي فيها الأوامر والمناهي، المشتملة على أداء حقوق الله تعالى، وعلى أداء حقوق خلق الله تعالى، ومَنْ لم يَقُم بموجب هذه الأمانة فقد وقع في الخيانة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

والأمانات بين العباد هي متنوعة: منها مالية، ومنها عِرضية، ومنها قولية ـ إلى ما هنالك من أمور وأمور.

روى الإمام أحمد، ومسلم، وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«إنَّ من أعظم الأمانة عند الله تعالى يوم القيامة ـ الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سِرَّها».

وروى الترمذي وأبو داود وغيرهما، عن جابر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال:

«إذا حدَّث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة».

أي: وذلك لأن التفاته مخافة أن يَسمعه غير المخاطب دليل على أَنّ حديثه هو سرٌّ، فلا يجوز إفشاؤه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (مِنْ أمانة الله تعالى عند الإنسان السمع والبصر، فلا يصرفهما فيما نهى الله تعالى عنه). اهـ

ومن هنا تعلم أَنَّ التطلُّع من النوافذ إلى بيوت الناس ودورهم، والتطلُّع من الأسطحة والعلِّيات: كل هذا خيانة مع الله تعالى، ومع

خلق الله تعالى، وسوف يُسأل ويحاسب على ذلك ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد تكلمت على هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ إلى آخرها ـ تكلمت عليها كلاماً مفصلاً مع الأدلة، وبينْت متى كان هذا العَرْض في كتابي: (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) فارجع إليه ينفعك الله تعالى به.

فهذه المواعظ القرآنية التي تقدمت، هي من جملة الآيات الكريمة التي وعظ الله تعالى بها عباده، فعليهم أَنْ يَتَّعظوا بها، ويمتثلوا ما فيها من الأوامر، وينتهوا عما فيها من المناهي، ولا يتهاونوا بها كما تقدم في الآية يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثير الوعظ والتذكير، فإن المواعظ القرآنية والنبوية لهما الأثر العظيم في ترقيق القلوب، وتهذيب النفوس، والحث على فعل الخير، والتحذير من الفساد والشر.

روى الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يتخوَّلنا بالموعظة مخافة السآمة علينا).

الوجه الثالث:

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ فسره جمهور العلماء بأنه الرفيق بعباده، المحسن إليهم، المنعم عليهم.

وقال العلامة الخَطّابي: اللطيف هو البَرُّ بعباده، الذي يَلطف بهم من حيث لا يَشعرون، ويسبِّبُ لهم مصالحهم من حيث لا يَحتسبون.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾. اهـ

والألطاف الإلّهية بالعباد لا تُعدُّ ولا تحصى، ولطف الله تعالى بعباده على نوعين:

عامٌّ يعم البرَّ والفاجر، فهو سبحانه لم يقتل الفَجَرة والكَفَرة جوعاً بمعاصيهم، ولم يَزل رفيقاً بهم، يمدهم بالماء والغذاء، والرزق والقوى؛ وما وراء ذلك مما لا يعد ولا يُحصى.

وهناك لطف إلّهي خاص وهو على مراتب كثيرة جداً، وهي على حسب الملطوف به، ومن هنا **قال الإمام الجنيد رضي الله عنه** في معنى اسم **اللطيف** قال: هو لطيف بأوليائه حتى عرفوه.

وقال الإمام محمد بن علي الكتاني: اللطيف بمن لجأ إليه من عباده، إذا يئس العبد من الخلق؛ وتوكَّل عليه ورجع إليه فحينئذٍ يَقبله ويُقبِل عليه. اهـ

وقال بعضهم: اللطيف الذي يَنْشُر من عِباده المناقب ـ أي: الفضائل ـ ويستر عليهم المثالب ـ أي: العيوب والنقائص ـ وعلى هذا جاء في الحديث: «يا من أظهر الجميل وستر القبيح» وقد

ذكرت هذا الحديث بتمامه في كتاب: (الدعاء) فارجع إليه ينفعك الله تعالى به.

وقال بعضهم في معنى اسمه **اللطيف** سبحانه: هو الذي يَقْبل القليل، ويبذل الجزيل.

وقال بعضهم: هو الذي يجبر الكسير ويُيسِّر العسير.

وقال بعضهم: هو الذي لا يُخاف إلا عدله، ولا يُرجى إلا فضله. اهـ

وقال بعضهم: هو الذي يَبْذل للعبد النعمة فوق الهِمَّة، ولا يكلفه الطاعة فوق الطاقة.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾.

وقال بعضهم: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ لا يعاجل بالعقوبة مَن عصاه، ولا يُخيِّبُ من رَجاه.

وقال بعضهم: هو الذي لا يَرُدُّ سائله، ولا يُؤيس آمله.

وقال بعضهم: هو الذي أَوْقد في قلوب العارفين من المشاهدة سراجاً، وجعل لهم الصراط المستقيم مِنهاجاً، وأجزل لهم من سحائب برِّه ماءً ثَجَّاجاً[1]. اهـ

---

(١) انظر (تفسير) العلامة القرطبي، وغيره رحمهم الله تعالى.

وهكذا تعددت الأقوال في معنى اسم **اللطيف**، وكلها صحيحة، وكلها من لوازم هذا الاسم وآثاره.

واسم: **اللطيف** بمعنى الرفيق بعباده، والمحسن إليهم كما تقدم ـ يتعدى بالباء المذكورة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أو المقدرة كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي: اللطيف بعباده.

وإذا جاءت اللام بعده فهي لام الأجلية[1] أي: على معنى: لأجل كما في قوله تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام، لما اجتمع بأبويه وقال: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وبيان ذلك أَنَّ يوسف الصديق على نبينا وعليه الصلاة والسلام أراد بختمه كلامه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أراد أنه سبحانه لطف به في جميع أدوار المضايق والمِحَن التي مرَّت عليه، وما ترتب عليها من المنح الإلٓهية والألطاف الربانية.

فإن الله تعالى لطف به لأجل ما يشاء سبحانه من حِكَم، ولأجل ما أراده سبحانه من أمور.

فلما ألقاه إخوته في البئرِ نقله من قعر البئر إلى ذُروة القصر ـ قصر الملك عزيز مصر.

ثم لما مرت محنة النساء وهو مَمْلوك لعزيز مصر الذي اشتراه،

---

(١) وقال بعض المفسرين: هي للتعدية، ولكن يحتاج هذا القول إلى تطويل في التأويل ـ والله تعالى أعلم.

فلما مرت عليه المحنة لطف به وأخرجه منها بسلام، ثم لطف به سبحانه في دخوله السجن، ثم نَقَله من أسْر الرقبة، وكونه مملوكاً؛ فنقله سبحانه إلى مَقام المُلك فجعله هو المَلك عزيز مصر، وبيده الحلّ والعقد، ونقله من ذُلِّ المملوك إلى عِز المِلك، وصار له الأمر والنهي، ثم جمع الله تعالى شمله بأبويه وإخوته، فهو سبحانه لطيف بعباده، كلٌّ على حسبه، يلطف بمن يشاء لما يشاء، من أمور يريد تنفيذها، مَبْنيَّة على حِكم إلَهية عالية، وهو عليم بذلك كله، وكلها معلومة عنده بعلمه السابق القديم الذي لا أول له، ولا انتهاء له، فهو العليم الحكيم[1] ـ فافهم ذلك واعتبر، فإنك إذا فهمتَ هِمتَ.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فهو سبحانه: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ أي: العليم بحقائق الأمور، وخفاياها، ودقائقها؛ على وجه الإحاطة.

---

(١) وقد ذكر كثير من العلماء من خصائص اسم: **اللطيف** دفع الشدائد والكربات وقضاء الحاجات والمهمات، ورفع المضايق ـ واستحسنوا أن يجعله الإنسان من أوراده اليومية.
قال العلامة المناوي: ومن ذَكره كل يوم مائة، أو مائة وثلاثين، أو ثمانين، وسَّع الله تعالى عليه ما ضاق، وكان مَلطوفاً به. اهـ
والأحسن أن تذكره كل يوم مائة وثلاثاً وثلاثين مرة كما نبه عليه بعضهم ـ ولك بَعْد أن تأتي بهذا العدد: أن تزيد ما شئت.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

الكلام على هذه الآية له وجوه:

الوجه الأول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾.

في هذه الآية الكريمة جملة من نعم الله تعالى على خلقه، وكلها شواهد ومَشاهد دالَّة على أنه سبحانه هو الرب وحده، الذي بيده الملك والتصرف والتدبير، وأنه على كل شيء قدير وحده ـ كما أعلن ذلك في أول السورة.

فمن نعمه على خلقه تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، فسلك فيها سبلاً فجاجاً، وجعلها لهم مَهْداً، وهيأ لهم المنافع، ومواضع الزروع والثمار، وشق فيها الأنهار، وأنبع لهم الماء ـ إلى ما وراء ذلك من المنافع، والمرافق التي تتوقف عليها الحياة.

الوجه الثاني:

قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أي: في طرقها وفجاجها، وسافروا حيث شئتم من أقطارها، وتردّدوا في أقاليمها وأرجائها، في مختلف المكاسب، وأنواع التجارات التي شرعها الله تعالى لكم، فإنّ فيها منافعكم ومعايشكم.

وفي هذه الآية دليل على مشروعية السَّعي في طلب الرزق، وتعاطي أسباب المعيشة، والكسب الحلال، ولا يجوز للإنسان القادر على ذلك أن يَقْعد عن العمل والسعي؛ ويكون كَلاًّ على غيره.

جاء في الحديث: عن المقدامِ بن معد يكرب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ما أكل أحد طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نَبِيَّ الله داود عليه الصلاة والسلام كان يأكل من عمل يده».

قال الحافظ المنذري: رواه البخاري وغيره، وابن ماجه ولفظه:

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة».

أي: فله أجر الصدقة، بسبب إنفاقه عليهم، وسَدِّه حاجتهم المعاشية، سَتراً عليهم، وقياماً بواجبهم عليه من الإنفاق عليهم ـ كما هو حكم الشرع.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لأَن يحتطب أحدكم حِزمة[1] ـ أي: من حطب ـ على ظهره ـ أي: فَيَبيعها[2] ـ خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه»[3].

---

(١) كما جاء في بعض روايات البخاري.

(٢) كما في رِواية البخاري.

(٣) رواه الشيخان، ومالك، والترمذي، والنسائي، كما في: (ترغيب) المنذري.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أيُّ الكسب أفضل؟

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: عَمل الرجل بيده، وكلُّ بيع مبرور»[1].

أي: مشروع لا كذب فيه، ولا غش، ولا خيانة، بل بيع قائم على صدق، ونصح وأمانة.

وروى الطبراني في: (الكبير) والبيهقي، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال:

«إن الله يحب المؤمن المحترف».

أي: له عمل وسبب يكتسب منه، ويَسد حاجته، وحاجة عياله.

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأمته في بكورها: روى أصحاب السنن، عن صخر بن وَدَاعة الغامدي الصحابي رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «اللهم بارك لأمتي في بكورها».

أي: عملها أول النهار.

وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا بَعث سَريةً أو جيشاً بعثهم من أول النهار.

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني في: (الكبير) و(الأوسط) ورواته ثقات. اهـ

وكان صَخرٌ تاجراً، فكان يَبعث تجارته من أول النهار، فأثرى وكثر ماله.

وعن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها عنا قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«باكروا الغُدوَّ في طلب الرزق، فإن الغُدوَّ بركة ونجاح».

رواه البزار والطبراني في (الأوسط).

وروى الحكيم الترمذي، عن معاوية بن قُرَّة رضي الله عنه قال: مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم فقال لهم: (مَنْ أنتم)؟

فقالوا: المتوكلون.

قال: (أنتم المتأكِّلون، إنما المتوكِّل رجل ألقى حَبَّه في بطن الأرض، وتوكَّل على ربه عز وجلَّ).

يعني: أَنَّ التوكل على الله تعالى لا يُنافي تعاطي الأسباب، بل كلٌّ منهما واجب شرعاً، كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم للأعرابي: «اعقلها ـ أي: الناقة ـ وتوكل» الحديث.

وتخريجه سيأتي عند قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ الآية ـ وهناك بحث التوكل.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾:

بعدما أمر الله تعالى عباده بالسعي في أسباب المعيشة، وطلب الرزق كما تقدم، قال: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ يُعْلِم عباده أَنّ سعيهم في طلب الرزق هو لا يَخلق لهم رزقاً، ولا يُوجد لهم رزقاً، وإنّما الرزاق هو الله ذو القوة المتين.

وهو سبحانه هو قد قسم لهم أرزاقهم ومعايشهم كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

فالله تعالى هو الذي تكفَّل بأرزاق خلقه كلهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

فهو سبحانه قد قسم أرزاق المخلوقات، وقدّرها لهم، وكتب ذلك عنده، فما على العباد إلا أن يَسعوا، أو يمشوا في مناكب الأرض، ويتعاطوا الأسباب المشروعة، فيقعوا على قسمتهم التي قسمها الله تعالى.

ولذلك قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ أي: من رزق الله لكم، ولم يقل: بعد السعي والعمل.. لم يقل: وكلوا من رزقكم ـ أي: من رزقكم لأنفسكم، فإنَّ سعيهم وتعاطيهم الأسباب لا يَخلق ولا يوجد لهم رزقاً، بل الله تعالى هو الذي يرزقهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ ـ أي: فقر ـ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: ونرزقكم.

ومن هنا تعلم أَنّ تعاطي الأسباب لا يُنافي التوكل على الله تعالى:

روى الإمام أحمد بإسناده، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول:

«لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكله؛ لرزقكم كما يرزق

الطير، تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً»[١].

أي: تذهب صباحاً لطلب رزقها وهي جائعة، وتروح مساءً وهي بطان ـ أي: شبعة ممتلئة البطون.

فأثبت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم للطير رواحاً وغدواً لطلب الرزق، مع توكلها على الله عَزّ وجل خالقِها ورازقها، وهو المسخِّر، وهو المسيِّر، وهو المسبِّب جل وعلا.

الحث على طلب الرزق الحلال
وبيان أن الإنسان لا يموت حتى يستوفي رزقه

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا أيها الناس: اتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإنَّ نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها؛ وإنْ أبطأ عنها.

فاتقوا الله وأجملوا في الطلب؛ خُذوا ما حَلَّ ودَعُوا ما حرم»[٢].

وعن جابر رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لا تستبطئوا الرزق، فإنه لم يكن عَبْدٌ ليموت حتى يبلغ

---

(١) ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن هُبَيْرَة، وقال الترمذي: حسن صحيح، كما في: (تفسير) الحافظ ابن كثير.
(٢) رواه ابن حبان في: (صحيحه) والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

آخر رزق هُوَ لَهُ، فأجملوا في الطلب: أخذ الحلال وترك الحرام»[1].

يعني: أن الإجمال في طلب الرزق هو أخذ ما أحله الله تعالى، وترك ما حرمه.

إذا تعسَّر على الإنسان رزقه أو أبطأ عنه فليطلبه بتقوى الله تعالى وبطاعته وكثرة الاستغفار

روى الإمام أحمد بإسناده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: جعل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقرأ هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال: «يا أبا ذر لو أنّ الناس كُلَّهم أخذوا بها كفتهم»[2].

وعن سيدنا الحسن ابن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أيها الناس: إني ما آمركم إلا بما أمركم الله، ولا أنهاكم إلا عما نهاكم الله عنه، فأجملوا في الطلب ـ فوالذي نفس أبي القاسم بيده: إنَّ أحدكم ليطلبه رزقه كما يطلبه أجله، فإن تعسَّر عليكم شيء منه فاطلبوه بطاعة الله عز وجلَّ»[3].

---

(١) رواه ابن ماجه واللفظ له، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٣) رواه الطبراني في: (الكبير) كما في: (الترغيب).

كما أَنَّ كثرة الاستغفار ييسر الله تعالى بها أسباب الرزق:

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَن لزِمَ ـ أي: أكثر من ـ الاستغفار: جعل الله تعالى له من كل همٍّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»(١).

وقال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ الآيات.

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ الآية.

فبكثرة الاستغفار يفتح الله تعالى للعبد المؤمن باب الخيرات، ورزق المال والبنين، كما قال تعالى في الآية المتقدمة: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ الآية.

وهناك عدة أسباب لتيسير الرزق، ومنها صلة الأرحام كما تقدم في الحديث عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«من سرَّه أن يَبسط الله له في رزقه، وأن يُنسَّأ في أثره، فليصلْ رحمه» الحديث كما تقدم في أول الكتاب.

وجميع تلك الأسباب الواردة في تيسير الرزق ـ داخلة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الآية.

كما أنها داخلة في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فإن

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم.

تعسَّر عليكم شيء منه فاطلبوه بطاعة الله عز وجل» الحديث المتقدم.

وكثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هي من أعظم أسباب الرزق وتيسيره، كما جاء في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ للرجل الذي يُكثر من الصلاة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال له: «إذاً تُكفى همَّك، ويُغفر ذنبك» الحديث وقد ذكرته بتمامه في كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً وعلينا معهم أبداً أبداً أبداً ـ كما ذكرت فيه عدة أحاديث تتعلق بهذا الموضوع، فارجع إليه واعمل بما فيه تجد خيراً كثيراً.

التحذير من التهالك على الدنيا ومن الحرص على المال دون أن يؤدِّي حقه

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**مَن كانت الآخرة همَّه** ـ أي: أكبر همه ـ جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت **الدنيا همَّه** ـ أي: أكبر همه ـ جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يَأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له ـ فلا يمسي إلا فقيراً، ولا يصبح إلا فقيراً[1]».

---

(١) أي: فقير النفس، فهو يكدُّ ويتعب وراء تكثير ماله كأنه فقير لا شيء عنده، في حين أنه كثير المال.

وما أقبل عبد على الله تعالى بقلبه إلاَّ جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه: بالودِّ والرحمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع».

قال في: (التيسير): رواه الترمذي.

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«ما ذئبان جائعان أُرسِلا في غنم بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[1].

المراد بالشرف هنا: الجاه الدنيوي.

والمعنى: أَنَّ الحرص على المال والجاه الدنيوي أكثر فساداً للدين من إفساد الذئبين الجائعين للغنم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لو كان لابن آدم واديان مِنْ مال لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ـ ويتوب الله على مَنْ تاب».

متفق عليه كما في: (ترهيب) المنذري، وأخرج عنهما الحديث أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب لأحبَّ أن يكون إليه مثله، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ـ ويتوب الله على من تاب».

---

(١) رواه الترمذي وصححه، وقال الهيثمي: رواه أحمد، وأبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني، والضياء في: (المختارة) إلخ كما في: (شرح) المناوي على (الجامع الصغير).

يعني: أن ذلك ذنب كبير، فلْيتب الإنسان من هذا الجشع والحب الجمّ الشديد للمال، وَمَنْ تاب: تاب الله تعالى عليه.

وروى البخاري عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه قال:

يا أيها الناس: إنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يقول: «لو أن ابن آدم أُعطي وادياً من ذهب أحبَّ إليه ثانياً، ولو أعطي ثانياً أحب إليه ثالثاً، ولا يَسدُّ جوف ابن آدم إلا التراب ـ ويتوب الله تعالى على من تاب»[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الأول: بعدما أمر الله تعالى عباده بالسعي في أسباب الرزق، وأسباب المعايش والاكتساب الحلال؛ بعد ذلك كله قال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: أنتم لستم خالدين في الدنيا مهما اكتسبتم، وجمعتم أموالاً، بل نِهايتكم ومرجعكم إلى الله تعالى، فهو الذي يُحاسبكم ويسألكم عما عملتم، فاتقوا الله تعالى في جميع أموركم، وبيوعكم وشرائكم، وتجاراتكم وسائر تصرفاتكم.

قال الله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقال: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

و ﴿ٱلنُّشُورُ﴾: هو الإحياء بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ[2] ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾.

---

(١) كما في: (ترهيب) الحافظ المنذري.

(٢) قال العلامة القرطبي: **أقبره** أي: جعل له قبراً يوارَى فيه إكراماً ـ أي: =

قال العلامة القرطبي: نشره وأنشره: لغتان فصيحتان بمعنى ـ أي: بمعنى واحد ـ يقال: أنشر الله تعالى الميت ونشره. اهـ

أي: أحياه بعد موته.

وهكذا ينشر الله تعالى الخلائق بعد موتها، ليجمعهم ويُحاسبهم على أعمالهم وأقوالهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ ـ أي: رجوعهم ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

أي: فاستعدوا لذلك اليوم ولا تغرنكم الحياة الدنيا.

الوجـه الثـاني:

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: الرجوع يوم القيامة.

في هذه الآية الكريمة تنبيه وتحذير للعباد من إساءة التصرف في معاملاتهم، ومتاجرهم، وبيوعهم وشرائهم، وفي جميع أسباب معايشهم ومكاسبهم، بل الواجب عليهم أن يُحسنوا التصرف في ذلك كله، على الوجه الذي شرعه تعالى، فلا مُراباة، ولا غشّ، ولا غبن، ولا كذب، ولا خيانة، ولا ظلم، ولا غدر، ولا مكر،

= لابن آدم، وأمر أَنْ يُقبر، قال: ولم يجعله مما يُلقى على وجه الأرض يأكله الطير والعوافي، ثم قال: ولم يقل: قبرَه لأن القابر هو الدافن بيده، يقال: قبرت الميت إذا دفنته، وأقبره الله تعالى: أي: صَيَّره بحيث يُقبَر، وجعل له قبراً. اهـ

ولا خديعة، ولا أكل أموال الناس بالباطل، ولا بَخس لحقوقهم.

فإن جميع ذلك سوف يُسأل العبد عنه، ويحاسب عليه، وإن الله تعالى هو الرقيب على عباده ـ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

فمتى أيقن العبد أَنّ الله تعالى رقيب عليه، وأنَّ المرجع إليه، وأنّ الذي يسأله عن أعماله ويُحاسبه عليها هو الله رب العالمين: الذي لا تخفى عليه خافية؛ فمن آمن بذلك وأيقن: صلح أمره، وحسنت معاملته، والتزم شريعة الله تعالى، ولم يَقْرب حدود الله تعالى ـ فقد فاز وسعد في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ(1) يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

فقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ هو يوم القيامة، يوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

والمعنى: أَنّ خوفهم من ذلك اليوم حَمَلهم ودفعهم على التزام ذكر الله تعالى، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، لما في ذلك من السؤال والحساب، فجعلوا الآخرة نُصْبَ أعينهم، وراحوا يُعدُّون عدّتها، ثم أخبر عن جزائهم فقال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟

---

(1) وهذا نظير ما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي: شديد العُبوس، كثير المصاعب، والكربات والمتاعب.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة يُثني الله تعالى على التجّار الأخيار، ويصفهم بأنهم ﴿رِجَالٌ﴾ ـ أي: رجال الإيمان والإيقان كما في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

وكما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

فوصفهم سبحانه بأنهم رجال ـ أي: المتصفون برجولية القوة في الإيمان، والصدق والإيقان[1].

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

فيه عطف البيع على التجارة، مع أنّه داخل تحت التجارة، والعطف يقتضي المغايرة، وذلك لأن المراد بالتجارة هنا: الجلب من خارج البلد.

ويؤيد هذا ما رواه ابن مَرْدُوْيه، وابن أبي حاتم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال في هؤلاء الموصوفين بما ذكر: «هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله تعالى».

---

(١) فإن كلمة رجال تأتي في القرآن على معانٍ:
فقد يراد بها رجال، النوعية المقابلة لنوعية النساء قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية.
وقد تأتي ويراد بها جمع راجل أي: ماشٍ قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الآية.
وقد يراد بها رجال القوة في الإيمان كما هنا.

وروى الديلمي وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً نحوه.

فهم رجال لا تلهيهم تجارة مهما كبرت، ولا بيع وإن كثر ربحه ـ لا يلهيهم ذلك عن ذكر الله تعالى من: التسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل ـ وغير ذلك.

﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: لا يلهيهم ذلك عن إقام الصلاة لمواقيتها من غير تأخير، مع الاطمئنان في أداء أركانها، والخشوع فيها، كما قال تعالى فيهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾.

كما أنهم لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن إيتاء الزكاة ـ أي: المال الذي فرض الله تعالى إخراجه للمستحقين لها، فهو حقهم جعله الله تعالى لهم في أموال الأغنياء كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الآيات.

وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

فمقدار الزكاة المفروضة في أموال الأغنياء ليس هو حق الأغنياء، فلا يجوز لهم أن يبخلوا به، ولا أن يَتصرفوا فيه في غير مصارفه التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الآية.

وفي اقتران الزكاة بالصلاة في كثير من الآيات الكريمة؛ دليل على أَنَّ أمر الزكاة هو عظيم عند الله تعالى، شديد المسؤولية

والمحاسبة عند الله تعالى، الذي قال: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

وكثيراً ما يذكر الله تعالى في وصفه للمؤمنين أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة:

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ كما في سورة البقرة.

وقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ووصف الله تعالى الكفار بأنهم لا يؤتون الزكاة:

قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وقال في أهل النار: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ الآيات.

فبيّن سبحانه أن الصلاة والزكاة هما من صفات المؤمنين، وأن تركهما من صفات المجرمين.

وقد جاء في الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن سيدنا

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «الزكاة قَنطرة الإسلام»[1].

وروى مسلم في: (صحيحه) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو: تملأ ـ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك ـ أي: إن عملت به ـ أو عليك» ـ أي: إن لم تعمل به ـ الحديث.

والمراد بالصدقة هنا: الزكاة ـ فهي برهان على إيمان صاحبها وصِدْقه.

هذا وإن تارك الزكاة يلقى العذاب حين يحضره الموت، وتتوالى عليه الحسرات، والمآسي، والمخازي، ويتمنى الرجعة إلى الدنيا ليؤدي ما عليه من الزكاة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الآيات.

وقد استدل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بهذه الآية الكريمة على أن تارك الزكاة يتمنى الرجعة عند الموت كما في

---

(١) قال في: (مجمع الزوائد): رواه الطبراني في: (الكبير) و(الأوسط) ورجاله موثقون. اهـ

الحديث الذي رواه الترمذي وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (من كان له مال يُبلِّغه بيت ربه ـ أي: بأن يحجَّ إلى بيت الله الحرام ـ أو تَجب فيه زكاة فلم يفعل ـ أي: لم يزكِّ أو لم يحجَّ ـ سأل الرجعة عند الموت).

فقال له رجل: اتق الله يا ابن عباس، فإنما يسأل الرجعة الكفار ـ يعني: أن الكفار هم الذين يسألون الرجعة إلى الدنيا عند الموت، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: سأتلو عليكم بذلك قرآناً: ـ أي دليلاً من القرآن يدل على أن الذي لم يزكِّ أو لم يحجَّ مع استطاعته هو أيضاً يتمنى ويسأل الرجعة عند الموت ـ.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الآيات.

الوجه الثالث:

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

في هذه الآية الكريمة تنبيه للعباد، وتحريض لهم على الاستعداد والتزود للآخرة، ولا تغرّنهم الحياة الدنيا، وأموالها، وحطامها، وتشغلهم عن العمل لآخرتهم التي سينقلبون إليها.

فإنَّ النشور إليه سبحانه هو حَقٌّ لا ريب فيه.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾.

أي: لا يغرنكم الشيطان فيشغلكم في الانهماك في حب الدنيا، وجَمع المال، لشغلكم بذلك عن الآخرة، فإنَّ وعد الله تعالى؛ وهو يوم القيامة؛ وما يحتوي عليه من السؤال والحساب والجزاء، ذلك كله هو حق واقع لا ريب فيه، فأعدوا له عدته.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾.

وفي هذه الآية الكريمة يُخاطب الله تعالى المؤمنين بخطاب فيه قوة التنبيه بقوله: ﴿يا﴾ ثم التأيِيْه بقوله: ﴿أيها﴾ ثم بقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا﴾.

أي: أنتم الذين آمنتم بالله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وفي هذا حث لهم على اهتمامهم بما يلي، والتزامهم به فيقول سبحانه: ﴿اتقوا الله﴾.

والتقوى: هي امتثال ما أمر الله تعالى به من: الأعمال الصالحة، والأقوال الطيبة، والأخلاق الحسنة الفاضلة، واجتناب ما نهى الله تعالى عنه من: الأعمال الفاسدة، والأقوال والأخلاق الذميمة السيئة.

ثم إن الأعمال هي نوعان:

منها بدنية ومنها قلبية.

فأما البدنية: فهي ظاهرة معروفة.

وأما القلبية: فمنها ما أخبر الله تعالى عنها بقوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾.

وشعائر الله تعالى: هي معالم دينه، وما فيه بيان أحكام شريعته، فتعظيم القرآن الكريم ـ أي: المصاحف الكريمة ـ والأحاديث النبوية الشريفة وكتبها، ومناسك الحج ومعالمها، وبيوت الله تعالى ـ أي: المساجد لأنها يُعبد الله تعالى فيها ـ.

قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ ـ أي: شرع الله تعالى ـ ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ ـ أي: تُرفع فوق مستوى غيرها من البيوتات: فتُعظم، وتُحترم، ولها آدابها الخاصة، والمطالب الخاصة بها ـ كما هو مبين في كتب الأحكام الفقهية.

وتعظيم العلوم الشرعية وحملتها العاملين بها ـ كما نص على ذلك العلماء المتقدمون.

ومن تقوى القلوب: الحب لأجل الله تعالى، والبغض لأجل الله تعالى، وحسن النيات، والعزائم، وحسن الظنون، ونيات الخير، وحسن الطَّوِية، والتواضع للمؤمنين، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية.

وهذه ـ أي: المراقبة لله تعالى ـ هي أهم الواجبات في تقوى القلوب.

وهناك أمور كثيرة جداً تعتبر من تقوى القلوب، التي يجب على المؤمن أن يتحقق بها.

وقد قلت: إن تقوى القلوب تشمل امتثال المأمورات ـ وقد ذكرت بعضاً منها ـ وتشمل اجتناب المنهيات القلبية وذلك: كالغلِّ

وقد أخبر سبحانه عن قول المؤمنين في دعائهم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن ذلك أيضاً: الحقد، والحسد، والشحناء، والبغضاء، وسوء الظن، والنيات السيئة، والعزائم الفاسدة، والاحتقار، والتكبر، والتعاظم، وازدراء المؤمنين وانتقاصهم، والترفع عليهم - وهناك آفات وآفات قلبية يطول بيانها، يجب على المؤمن أن يتّقيَها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

وأضاف الإثم إلى القلب لأنّ الإثم بسبب الكتمان وهو مما يقع بالقلب، وإسناد الفعل للجارحة التي يعمل بها أبلغ.

تقول: هذا مما أبصرته عيني، وسمعته أذني، ومما عرفه ووعاه قلبي.

ولأن القلب هو أشرف أعضاء الإنسان ورئيسها، وفعله أعظم من أفعال الجوارح، فيكون في الكلام تنبيه على أن الكتمان من أعظم الذنوب.

ومما تقدم يُعلم أن هناك تقوى القلوب، وهناك إثم القلوب.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا الأمر يشمل تقوى القلوب، وتقوى الجوارح والمدارك عامة.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ في هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالى كل نفس مكلفة أن تنظر أيَّ شيء قدمت من الأعمال ليوم القيامة، الذي هو الغد المحقَّق وقوعه لا محالة.

فإذا كان من شأن العاقل أن يُقدِّم لغده في الدنيا، ويعمل لمستقبله في الدنيا مع أنها مُؤَقتة فانية، وقد يدرك الإنسان مستقبله في الدنيا؛ وقد لا يدركه، بل يتعجله الموت فلا يدرك مستقبله المحتمل.

فعلى العاقل من باب أوجب وأولى وأحق: أن يقدم لآخرته، ويعمل لغده المحقق وقوعه؛ وهو يوم القيامة الذي له أول ولا انتهاء له، والذي يترتب عليه السعادة الأبدية، أو الشقاء الأبدي.

وإنما أخبر عن يوم القيامة بالغد لدنوِّ الغد من أمسه، أو لأن الدنيا كيوم موقَّت، وغده هو يوم القيامة، الذي هو اليوم الآخر ولا آخر له.

ولا ينبغي للعاقل أن يستبعد اليوم الآخر، وما اشتمل عليه من العوالم والمواقف، فإن الباب الذي يَدخل منه الإنسان إلى عالم الآخرة هو الموت ـ فإنه هو الباب.

وعالم القبر الذي ينتهي إليه هو البرزخ.

قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وهو أول منزل من منازل الآخرة كما في الحديث عن هانىء مولى ـ أي: عتيق ـ عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبلَّ لحيته.

فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي؟

فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول:

«القبر أوَّل منزل من منازل الآخرة، فإنْ نجا منه فما بعده أيْسر، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشدُّ منه».

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما رأيتُ منظراً قطُّ إلا والقبر أفظع منه».

وجاء في رواية رزين زيادة:

قال هانيء: سمعت عثمان رضي الله عنه ينشد:

فإن تنجُ منها تنجُ من ذي عظيمة   وإلاَّ فإنـي لا إخـالك ناجيـاً

رواه الترمذي كما في: (التيسير) وغيره.

فعلى العاقل أن يُعدَّ العدة للآخرة، وذلك بالتقوى والعمل الصالح.

قال الله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ناس يحجون بغير زاد ـ أي: فيصيرون كَـلاًّ على غيرهم ـ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾.

فقد أمر الله تعالى عباده بالزاد للسفر في الدنيا، ومنه السفر للحج، ثم أرشد العباد إلى زاد الآخرة والمعاد وهو التقوى.

وهذا كما قال تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى ﴾ ـ أي: يستر ـ ﴿ سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ ﴾ ـ أي: زينة لكم تلبسونها ـ ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾.

فلما ذكر سبحانه اللباس الحسِّيَّ الساتر للعورات ـ نَـبَّـهَ سبحانه

وأرشد إلى لباس التقوى، وذكر سبحانه ما هو خير وأنفع، لأن في التقوى وهي: امتثال أوامر الله تعالى، واجتناب ما نهى عنه، في ذلك وقاية من العقاب والعذاب، ومناقشة الحساب، ووقاية من العتاب؛ كل ذلك على حسب تقواه.

اللهم اجعلنا من عبادك المتقين.

قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

وعن شدّاد بن أوس رضي الله تعالى عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال:

«الكيّس - أي: الفَطِن العاقل - من دان نفسه - أي: حاسبها - وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله تعالى الأماني»[1].

والمراد بالعاجز: المقصِّر في الأمور الدينية التي تنفعه في الدنيا والآخرة، فلم يكفَّ نفسه عن الشهوات المحرمة، ولم يمنعها عن اقتراف السيئات، ويتمنى على الله تعالى الأماني: جمع: أمنية.

قال العلامة المناوي: فهو مع تقصيره في طاعة ربه، واتباع شهوات نفسه، لا يستعد للآخرة، ولا يعتذر، ولا يرجع، بل يتمنى على الله العفو والجنة مع الإصرار؛ وترك التوبة والاستغفار. اهـ

---

(١) رواه الإمام أحمد، والترمذي وابن ماجه، والحاكم كما في: (الجامع الصغير) رامزاً لصحته.

قال: ورواه العسكري بلفظ: «الفاجر» بالفاء. اهـ

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يتبع الميت ثلاثة: أهله، وماله، وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع: أهله وماله، ويبقى عمله».

رواه الشيخان والترمذي كما في: (التيسير).

فأكثر أيها المؤمن والمؤمنة من الأعمال الصالحة فإنَّها التي تنفعك، وتبقى معك غداً، فإنّ العمل الصالح هو الصديق الصادق - ونعم الصديق في شدة الضيق.

اللهم وفقنا للعمل الصالح الذي يُرضيك، ويرضي رسولك سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم عنا يا أرحم الراحمين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال:

«مَثَل ابن آدم وماله وأهله وعمله؛ كرجل له ثلاثة إخوة أو ثلاثة أصحاب:

فقال أحدهم - أي: ماله -: أنا معك حياتَك - أي: ما دمت حياً - فإذا مِتَّ فلستُ منك، ولستَ مني.

وقال الآخر - أي: أهله -: إنَّا معك فإذا بلغت تلك - أي: القبر - فلستُ منك، ولستَ مني.

وقال الآخر - أي: عمله -: أنا معك حياً وميتاً».

رواه البزار ورواته رواة الصحيح كما في: (ترغيب) المنذري.

فَأَوْعِ سمعك إلى ما نبه إليه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

روى مسلم والترمذي وغيرهما عن عبد الله بن الشخِّير رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدقتَ فأمضيت».

كما بيَّن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَضل منزلة الذي يَعلم أمور دينه، والواجبات التي أوجبها الله تعالى، وقد آتاه الله تعالى مالاً فهو يَتَّقي في ماله ربَّه، ويؤدِّي حقوقه.

كما بين خُبث منزلة الذي آتاه الله مالاً، ولم يؤدِّ حقوقه:

روى الترمذي عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ثلاثة أُقسم عليهنَّ، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال من صدقة، ولا ظُلِم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله تعالى بها عزَّاً، ولا فتح عبد باب مسألة ـ أي: يسأل مالاً وعنده ما يكفيه ـ إلا فتح الله عليه باب فقر» ـ وفي رواية: «وما تواضع عبد لله إلا رفعه الله تعالى».

ثم قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: إنما الدنيا لأربعة نفر:

عبد رزقه الله مالاً وعلماً ـ أي: علماً بأمور دينه وواجباته ـ فهو يتقي في ماله ربه، ويَصلُ به رحمه، ويعلم أَنّ لله فيه حقاً ـ أي: الزكاة ونحوها ـ فهذا بأفضل المنازل.

وعبد رزقه الله علماً، ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول:

لو أن لي مالاً لعملت عمل فلان» ـ أي: المتقدم ذكره ـ.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فهو بنيته فأجرهما سواء».

«وعبد رزقه الله مالاً، ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم أن لله فيه حقاً ـ فهذا بأخبث المنازل.

وعبد لم يرزقه الله تعالى مالاً، ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان» ـ أي: الشقي الذي هو بأخبث المنازل ـ.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فهو بنيته ووزرهما سواء»[1].

ومن هنا يُعلم أَنَّ النية الصادقة في الخير كالعمل، والنية السيئة في الشر كالعمل.

فيا أيها الإنسان حَسِّن النية، وانوِ عمل الخير، فإن الله تعالى يُؤجرك عليه إن لم تستطع عمله.

ودليل صدق النية: التنفيذ عند الاستطاعة؛ والتمكن من فعل الخير.

---

(١) كذا في: (التيسير).

حثه صلى الله عليه وعلى آله وسلم
على الاستعداد للآخرة

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خطب يوماً فقال في خطبته:

«ألا وإن الدنيا عَرَض حاضر، يأكل منه البَرُّ والفاجر، وإن الآخرة أجل صادق؛ ويقضي فيها مَلِك قادر، ألا وإنَّ الخير كلَّه بحذافيره في الجنة، ألا وإنَّ الشر كلَّه بحذافيره في النار، أَلاَ فاعملوا وأنتم من الله تعالى على حَذَر، واعلموا أَنَّكُمْ معروضون على أعمالكم: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»[(١)].

أمره صلى الله عليه وعلى آله وسلم
بالمبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن تعرُض الموانع

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً مُنسياً، أو غِنىً مُطغياً، أو مَرضاً مُفْسِداً، أو هَرَماً مُفْنِداً[(٢)]، أو مَوتاً

---

(١) قال في: (المشكاة): رواه الإمام الشافعي رضي الله عنه اهـ وروى نحوه أبو نعيم في: (الحلية) عن شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً كما في: (شرح المشكاة) و(شرح المواهب).

(٢) يقال: أفند إذا خرج بالكلام عن سنن الصحة.

مجهِزاً[١]، أو الدَّجَّال فشرٌّ غائب يُنتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمرُّ».

فاغتنم عمرك، وأصلح عملك، ولا تُسَوِّف، ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد، وسل الله تعالى التوفيق لذلك.

قال في: (التيسير): أخرجه الترمذي والنسائي.

وروى النسائي بإسناده عن عمرو بن ميمون مرسلاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتَك قبل موتك، وصحتَك قبل سَقَمك، وفراغَك قبل شُغلك، وشبابَك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك»[٢].

فيجب على العاقل أَنْ يَحرص كل الحرص على عمره؛ أقوى من حرصه على رأس ماله، فإن رأس مال التاجر إذا خسره يُعوَّض، وأما العمر إذا خسره صاحبه فإنّه لا يُعوَّض، وقد نبَّه الله تعالى عباده إلى الحرص على أعمارهم في سورة العصر.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾.

فقد أقسم سبحانه **بالعصر** وهو الزمان والدهر المشتمل على

---

(١) الموت المجهز السريع.

(٢) قال العلامة المناوي: ورواه الإمام أحمد في: (الزهد)، قال الزين العراقي: بإسناد حسن. اهـ ورواه الحاكم، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - انظر: (الجامع الصغير) و(شرحه) للعلامة المناوي وقد رمز الحافظ السيوطي إلى حسنه.

عمر كل ذي عمر، أقسم بذلك على أنّ الإنسان لفي خسر أي: في خسر لعمره المنطوي في العصر الذي يمر عليه، فليس المراد هنا بالخسارة: المالية، وإنما هي خسارة العمر، ثم استثنى من ذلك الخسران أقواماً ربحوا أعمارهم ولم يخسروها؛ بسبب صفات خاصة تحققوا بها فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

فوصفهم أولاً بالإيمان، وهو التصديق الجازم بما عُلِم بالضرورة مجيءُ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم به، وهذا يشمل الإيمان بالله تعالى، ووحدانيته في ذاته وصفاته، وأَسمائه، ويشمل التصديق بملائكته سبحانه، والتصديق بكتبه سبحانه، ويشمل التصديق برسله سبحانه، والتصديق باليوم الآخر، وما يجري فيه من الحشر والنشر، والسؤال والحساب، والثواب والعقاب، والجنة والنار وغير ذلك كما فصلته في كتابي: (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها).

ثم وصفهم سبحانه بقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهذا يشمل جميع الأوامر الشرعية، ويشمل اجتناب المناهي.

وإنما ذكر عمل الصالحات بعد الإيمان لأنَّ الأعمال الصالحة هي الدليل والشاهد على صدق الإيمان؛ في قلوبهم وكماله، ومن ثَمَّ ترى أن الله تعالى يَقرن الأعمال الصالحة بالإيمان في كثير من الآيات القرآنية:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية.

ومن المعلوم أن الصلاح في اللغة العربية ضد الفساد، فبالأعمال الصالحة يَصلح الإنسان؛ فيكون صالحاً غير فاسد.

والأعمال الصالحة هي التي تُرفع إلى الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ الآية.

وبالأعمال الصالحة يصلح العبد لمراتب القرب والحب الإلَهي، ومرتبة الودّ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾.

ويكون من الصالحين الذين يتولاهم الله تعالى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: على حسب صلاحهم.

ويكون من الصالحين الذين يتوارد عليهم السلام من جميع المصلين حين يقولون في التشهد: **السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**.

كما جاء في الحديث الذي رواه الأئمة الخمسة، واللفظ لمسلم، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ـ فإذا قالها: أصابتْ كلَّ عبد لله صالح في السماء والأرض، أشهد أن لا إلَه إلا

الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» الحديث.

وبالأعمال الصالحة يصلح العبد لأن يُثنى عليه في الملأ الأعلى.

وهكذا يترتب على الأعمال الصالحة أنواع من المكرمات، والمنازل والدرجات.

وقد فصلت الكلام على ذلك مع الأدلة في كتابي: (صعود الأقوال ورفع الأعمال) فارجع إليه ينفعك الله تعالى به، وقد تكلمت على معنى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ وبينت وجوهاً من الحكمة في ذلك الرفع، والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

أمّا التواصي: فهو: أن يُوصي بعضهم بعضاً بالتزام الحق في الأقوال، والأعمال، والمعاملات، والبيع والشراء، والمخاصمات، والمحاكمات فيما له أو عليه، ويدخل تحت هذا التواصي: النصيحة للعباد، وحب الخير لهم، وحفظ حقوقهم المالية، والأدبية، والاجتماعية، إلى ما وراء ذلك.

وأما التواصي بالصبر فهو أَنْ يُوصي بعضهم بعضاً بالصبر وأنواعه ثلاثة:

الأول: الصبر على أداء العبادات التي شرعها الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾.

وذلك بالمواظبة عليها، وأدائها في أوقاتها، بآدابها المطلوبة فيها دون انقطاع، ولا تكاسل عنها.

الثاني: التواصي بالصبر عن المحرمات، وإمساك النفس، ونهيها عما حرم الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

الثالث: التواصي بالصبر على المصائب والبلاء، وذلك عند حلول المصائب ـ ونسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة.

فإنّ في الصبر على ذلك تكفيراً للسيئات، ورفعاً للدرجات، وزيادة في الأجور والحسنات.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال:

«ما يصيب المؤمنَ من نَصَب، ولا وَصَب، ولا همٍّ، ولا حَزَن، ولا أذىً ولا غمّ حتى الشوكة يُشاكها: إلا كفَّر الله تعالى بها من خطاياه» وروى مسلم نحو هذا.

وفي رواية لمسلم: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها: إلا رفعه الله تعالى بها درجة، وحَطَّ عنه بها خطيئة».

ومما تقدم في سورة العصر يُعلم أَنَّ المؤمنين يجب عليهم أن يكونوا متواصين، ومتناصحين، ومتحابين، متعاونين على البر والتقوى، كلٌّ منهم يحب الخير لغيره كما يحبه لنفسه، ويكره لغيره ما يكرهه لنفسه.

روى الطبراني في: (الأوسط) والبيهقي في: (شعب الإيمان) عن أبي حذيفة رضي الله عنه وكانت له صحبة قال: (كان الرجلان

من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا التقيا لم يتفرَّقا حتى يَقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر)[1].

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه[2]: (لو تدبّر الناس هذه السورة لوسعتهم). اهـ

والآن أعود إلى سورة الملك التي أحوم حولها.

وقد قلت عند قوله تعالى: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ إن الله تعالى ذكر في هذه السورة الكريمة جملةً واسعة من مَشاهِد سلطان ملكه، ومظاهر تصرفاته، وعظمة قدرته النافذة في مخلوقاته، وكلُّ ذلك يدل قطعاً على أنه: لا إلَه إلا الله، وأنه سبحانه بيده الملك وحده، وهو الله تعالى الملِك الحق، الباقي وحده جلَّ وعلا.

وأنه المالك لكل شيء حقاً، وأنه سبحانه هو مالك الملك كما وصف نفسه جل وعلا، فهو سبحانه الملِك، والمالك، والمليك، ومالك الملك، وحده لا شريك له..

قوله تعالى:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾.

في هذه الآية الكريمة تخويف شديد، وتهديد، ووعيد للمكذبين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والمنكرين لما

---

(١) انظر (تفسير) الحافظ ابن كثير، و(تفسير) الآلوسي وغيرهما.
(٢) كذا في (تفسير) ابن كثير.

جاء به، فهو سبحانه يهددهم بخسف الأرض بهم؛ بأن تذهب بهم أسفل ـ كما فعل بقارون.

قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي: فإذا هي حين الخسف ﴿تَمُورُ﴾ أي: تضطرب، وتهتزُّ اهتزازاً شديداً بكم، وفي هذا بيان عظمة قدرته تعالى على كل شيء، ودليل أنه هو بقدرته يمسك السماء والأرض أن تزولا.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ ـ أي: أن تضطربا عن أماكنهما ـ[1] ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ ـ أي: ما أمسكهما من أحد من بعده سبحانه، لأنه لا يقدر على إقامتهما، وحفظهما، وإبقائهما إلا الله تعالى العظيم، الذي خلقهما سبحانه وتعالى.

فإنه سبحانه في كل لحظة قادر على أن يخسف الأرض بأعدائه، ويهزها بهم عقوبة لهم، ولكن كما قال سبحانه:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وفي هذا بيان سعة حلمه سبحانه ومغفرته، فإنَّه يعلم ويرى كُفر الكافرين، وعصيان العاصين، وإصرار المذنبين، وظلم الظالمين، ومع ذلك يؤخر عقابهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

---

(١) انظر (تفسير) الحافظ ابن كثير.

فهو سبحانه الحليم على من عصاه، والسميع لمن دعاه، والمجيب لمن ناداه عز وجلَّ.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾.

روى أبو داود وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يكن يدع ـ أي: لم يكن يترك ـ هؤلاء الكلمات حين يُمسي وحين يصبح:

«اللهم إني أسالك العافية في الدنيا والآخرة.

اللهم إني أسالك العفو والعافية في: ديني ودنياي وأهلي ومالي.

اللهم استر عوراتي، وآمِن رَوْعاتي.

اللهم احفظني من بين يديَّ، ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأَعُوْذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي»[1].

فقد علَّم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمته هذا الدعاء الجامع، فكان يدعو به صباحاً ومساءً، ويجهر به حتى يسمعه أصحابه رضي الله عنهم؛ فيتعلمونه ويعملون به رضي الله عنهم، ويبلغونه عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

---

(١) يعني: الخسف. قال في: (النهاية): «وأعوذ بك أن أُغتال من تحتي» أي: أُدهى من حيث لا أشعر، يريد به الخسف. اهـ

فواظب عليه أيها المؤمن وأيتها المؤمنة، فإنّه جامع لكل خير، مانع من كل شر.

قوله تعالى:

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

في هذه الآية الكريمة وجه آخر من الوعيد الشديد، والتخويف الأكيد، ففي الآية الأولى تهديد وتخويف من الأخذ بالعقاب من تحتهم، وفي هذه الآية الكريمة تهديد وتخويف من العذاب من فوقهم؛ وذلك بأن يرسل الله تعالى عليهم حاصباً ـ أي: حجارة من السماء كما أرسلها على من قبلهم من الكفار ـ.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ إما المراد به معنى المصدر، أي: فستعلمون كيف إنذاري لكم بواسطة رسولكم الذي أُرسل إليكم ـ أي: سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أو المراد بالنذير اسم الفاعل، بمعنى المنذر[1] يعني: رسول الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

والمعنى: فستعلمون صدقه وأمانته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأنَّه رسول الله حقاً، وتعلمون عاقبة تكذيبكم له صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

روى الشيخان والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فِهر، يا بني

---

(١) انظر: (تفسير) العلامة القرطبي.

عديّ» لبطون قريش حتى اجتمعوا ـ أي: كلهم.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي ـ أي: قريب منهم ـ تُريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصدقِيّ» ـ أي: لو أخبرتكم أن أعداءكم قد تجهزوا على الخيل يريدون أن يُغيروا عليكم، ويقتلوكم أكنتم مصدقيّ ـ أي: تصدقونني بذلك؟.

فقالوا: ـ أي: كلهم ـ نعم ـ أي: نصدقك ـ ما جرَّبنا عليك إلا صِدقاً.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[1].

أي: عذاب الله تعالى.

فقال أبو لهب: تَبّاً لك يا محمد أَلِهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ـ أي: وقد[2] خسر وهلك.

وهذا الإنذار الخاص لا ينافي إنذاره صلى الله عليه وعلى آله وسلم العامّ لجميع قبائل العرب، ثم إنذاره العامَّ لجميع شعوب الأمم من عرب أو عجم، فإنّ الدعوة وما اقترن بها من النِّذارة والبشارة كان ذلك على مراتب، حسب التعليمات الإلَهية النازلة عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم في القرآن الكريم.

---

(١) والمعنى: أَنّ عذاب الله تعالى هو أقرب إليكم إذا لم تُؤمنوا، وأسرع إليكم، وأشد عذاباً من جيش أعدائكم الذي يُريد أن يباغتكم.
(٢) كذا في: (تيسير الوصول).

فبدأ بإنذار عشيرته الأقربين، ثم أمره الله تعالى أن يُنذر جميع قبائل العرب: كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

وقال تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

كما أمره الله تعالى أن يدعو وينذر جميع الأمم من عرب ومن عجم:

فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ الآية.

وهذا عام لجميع الأمم: العرب والعجم؛ الذين كانوا في زمنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الدنيا، ويعم جميع الذين يأتون من بعده إلى يوم الدين: ولهذا قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ - أي: بالقرآن - ﴿وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ أي: ومن بلغه هذا القرآن في كل زمان ومكان.

ولذلك تكفل الله تعالى بحفظ هذا القرآن الكريم، وبقائه إلى يوم الدين، فلا يمكن أَنْ يَجري عليه تبديل ولا تغيير، ولا زيادة ولا نقص، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

ويلزم من حفظه سبحانه للقرآن أن يحفظ البيان عن هذا القرآن وهو السنة النبوية ـ أي: أحاديثه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فإنَّها بيان للقرآن، أنزلها تعالى عليه بالوحي النبوي، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ـ أي: السنة ـ.

وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أن نجمعه لك في صدرك. اهـ أي: على وجه محفوظ.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾.

أي: علينا أن نبين لك معاني هذا القرآن الكريم.

وقال تعالى له صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: لتبين للناس ما نزل إليهم على الوجه الذي بينه الله تعالى لك.

فحفظ الله تعالى القرآن الكريم، وحفظ بيانه وهو السنة الشريفة ـ أي: الأحاديث النبوية الشريفة المبينة للقرآن الكريم، لتقوم بذلك حجة الله تعالى على العالمين إلى يوم الدين.

جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«من بلغه القرآن فكأنما شافهته به» ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[1].

وعن محمد بن كعب القرظي في قول الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

قال: مَنْ بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وفي رواية: من بلغه القرآن كان كمن عاين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وكلّمه ـ أي: وَبلّغه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم[2].

جاء في الحديث عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «لَيبلُغنّ هذا الأمر ـ أي: الدين الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت: مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعزِّ عزيز، أو بذلِّ ذليل ـ عزاً يعز به الإسلام، ويذل الله به الكفر».

وكان تميم الداري يقول: (قد عرفت ذلك في أهل بيتي، قد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، وقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصَّغار والجزية)[3].

---

(١) رواه ابن مَرْدُويه، وأبو نعيم، والخطيب كما في: (الدر المنثور) وغيره.

(٢) رواه ابن أبي شيبة، وابن الضُّريس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وغيرهم كما في: (الدر المنثور).

(٣) قال في: (مجمع الزوائد): رواه أحمد وغيره. اهـ وترجم له: باب =

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

في هذه الآية الكريمة تهديد ووعيد شديد أيضاً لمن كذب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبما جاء به، فذكر لهم عواقب المكذبين قبلهم من الأمم لرسلهم، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم، وكيف أخذهم الله تعالى بأنواع العذاب، كما قال تعالى في بيان شدة هول تعذيبهم: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ ـ أي: كيف كان إنكاري عليهم، وإنزال عذابي بهم ـ أي: كان ذلك شديد الهول والفظاعة، فليعتبروا بمن كذب الرسل قبلهم، وكيف كان أَخْذُ الله تعالى لهم بذنوبهم.

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾.

وقد بين سبحانه وتعالى أنواعاً من عذابهم فقال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾ ـ أي: معجزين لنا ـ ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

وفي هذا تتجلى عظمة قدرة الله تعالى، وعدله، وحكمته

= تبليغ بعثته صلى الله عليه وعلى آله وسلم كل أحد.

سبحانه، وأنه الملك الحق، والحكم العدل، لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

قول الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

أولاً: يبين الله تعالى للكافرين المنكرين وجود الله تعالى، أو المشركين به: يبين لهم دليلاً قاطعاً مشهوداً بالعيان؛ يدل على وجوب حقية وجوده ووحدانيته سبحانه فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ أي: باسطات أجنحتهن في جوِّ السماء ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: يَضْمُمنَ أجنحتهن إليهنّ، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ أي: ما يمسكهن في جو السماء عن السقوط والوقوع إلا الرحمن عز وجل، بقدرته العظيمة التي يمسك بها السماوات والأرض، وكذلك ما بينهما، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ أي: يرتفعن في جو السماء حتى لا تُرى أحياناً لعلوِّها في الجوِّ.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون بالحق إذا تبيَّن لهم، ورأوا الدليل العياني فلا يجحدون ولا يعرضون ـ كما هو شأن الكافرين.

وقد وصفهم سبحانه فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾.

أي: مُسَيَّرات بأمره حيث شاء سبحانه، وفي هـذا تنبيه وتخويف للجاحـدين والكافريـن، وذلك أنّـه سبحانـه قد يُسخِّر تلك الطيور، ويجنّـدها، ويرسلها عليهم فيعذبهم بما يأمرها سبحانه بنوع من أنواع العذاب، كما فعل سبحانه في أصحاب الفيل.

وذلك أَنَّ أبرهـة الحبشي، لما قصد هدم بيت الله تعالى المعظم، وجهّز لذلك ستين ألفـاً، فخرج بهـم ومعه فيل قَويٌّ جَسِيْم جداً، وقيل معه اثنا عشر فيلاً غيره، وقيل ثمانية، والأكثر على أنه فيل واحد قَويٌّ جسيم جداً، فلما انتهوا إلى مشارف مكة المكرمة؛ برك الفيل، فضربوه وأوجعوه ليقوم فأبى، ووجَّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، وإلى الشام ففعل مثل ذلك، فوجهوه إلى مكة المكرمة فبرك، فسقوه الخمر ليذهب تمييزه فلم يؤثر ذلك.

وأرسل الله تعالى طيراً مثل الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه ـ أمثال الحمص أو العدس، لا تصيب أحداً منهم إلا هلك.

ورُوِيَ أَنَّ الطائر كان يُلقيها على رأس أحدهم فتخرج من دبره، ويتساقط لحمه، وما تخطىء واحداً منهم، فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاؤوا، وجعلوا يتساقطون بكل طريق، والطير تدركهم أينما توجهوا، وترميهم بالحجارة، وأُصيب أبرهة في جسده، فأصيب بداءٍ شديد، فجعل يتساقط لحمه، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، فكان تأثير الأحجار وفتكها في أجسادهم

أقوى وأشد من تأثير الرصاص الذي يُرمى به ـ فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وفي ذلك يقول الله تعالى جل شأنه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾.

والخطاب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

والهمزة لتقرير رؤيته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وذلك لعلمه القاطع الذي هو بمنزلة الرؤية في القوة والجزم واليقين.

وتعليق الرؤية بكيفية فعله سبحانه؛ في ذلك بيان عظم الحادثة، وشدة هولها، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة تدل على عِظَم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته، وعظمة ملكه وسلطانه، وتدل أيضاً على شرف رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فإن ذلك كما قال المحققون من الإرهاصات المتقدمة بين يدي بعثته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الدالة على صدق نبوته.

فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولد في السنة التي وقعت فيها قصة أصحاب الفيل؛ وعليه الإجماع كما نص عليه العلماء، وما خالف ذلك مردود بالأدلة، كما هو مبين في موضعه ـ في كتب الحديث والسيرة.

وفي قصة أصحاب الفيل بيان عظيم كرامة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على ربه تعالى، وعنايته سبحانه به صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتكفله سبحانه وتعالى بحفظه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وحفظ البيت المعظم الذي سيكون

قبلته في صلاته وصلوات أمته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومحجّه ومحجّ أمته، وحفظ دينه وشريعته إلى يوم الدين صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: جعل كيدهم وقصدهم هدم البيت المعظم؛ جعل ذلك ضياعاً لهم، ودماراً عليهم.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾[1] أي: جماعات متتابعة، تأتيهم من هنا وهناك، وتحيط بهم، وتلحقهم من كل الجهات.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: من طين متحجِّرٍ شديد الصلابة.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قيل: المعنى: كورق زرع وقع فيه الأكال ـ أي: صار يأكله الدود، وقيل: إن المعنى: كتبن أكلته الدواب وراثته ـ أي: صار روثاً[2].

وقد أجملت الكلام على هذه القصة هنا، لأني فصلت ذلك في كتاب: (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان).

ثانياً: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾.

وأمثال هذه الآية الكريمة، التي وصف الله تعالى بها الطير، كل

---

(١) جمع إبّاله بكسر الهمزة وتشديد الباء الموحدة كما في: (تفسير الآلوسي) وغيره، وهناك أقوال أخرى في واحد أبابيل.

(٢) انظر (تفسير) ابن كثير، والآلوسي وغيرهما.

ذلك يدلك على أنّ عالم الطير هو عالم كبير، وهو من جملة العوالم التي خلقها الله تعالى، ولها أوضاع خاصة، ولها نظامها وانتظامها؛ كما بين الله تعالى ذلك في قوله سبحانه:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

فالطيور أُمَّة لها نظامها في حياتها ومعايشها، وتناسلها، وإقامتها، وحطها وارتحالها، فلها قيادة، وقائد تنتظم تحت قيادته، وهي أنواع كثيرة متنوعة.

وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

وكلها تعلم خالقها ورازقها، وتعرف وظائفها المطالبة بها من تسبيح وصلاة لله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

فأخبر سبحانه أن جميع مَنْ في السموات والأرض، كلها تسبحه سبحانه، وأَنّ الطير وهي صافات تسبحه، وقد خصها بالذكر مع أَنّها داخلة في عموم من في السموات والأرض ـ خَصها بالذكر ليبين سبحانه أَنّها تسبح الله تعالى وهي صافات، باسطات أجنحتهن في جو السماء العالي، كما تسبحه وهي قائمة على وجه الأرض، وفي ذلك دليل على عظمة قدرة الله تعالى الذي يُمسكها، ودليل على دأبها واستمرارها الدائم على تسبيحه سبحانه، وفي هذا تنبيه

لابن آدم، وذلك بأن لا يَغفل عن تسبيحه لله تعالى؛ فإنه أحق بذلك من الطير.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ - أي: كل من المخلوقات في السموات والأرض والطير، قد علم صلاته لله تعالى[1] الذي خلقه، وتسبيحه، وذلك بخلق الله تعالى فيها العلم بكيفية صلاتها لخالقها، وصيغة تسبيحها له سبحانه.

وكيفية صلاة كل من المخلوقات وتسبيحه على حسبه.

وهذا يدل على أَنّ كل نوع من المخلوقات له كيفية صلاة، وصيغة تسبيح خاصة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من الصلوات والتسبيح وسائر أعمالهم وشؤونهم، وحركاتهم وسكناتهم.

وقد أمر الله تعالى الجبال والطير أن تأوّب - أي: تسبح مع داود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره معنى: ﴿أَوِّبِى﴾: أي: سبحي.

---

(١) وهناك قول بأن الضمير في عَلِمَ يعود إلى الله تعالى، أي: قد علم الله صلاته وتسبيحه، ولكن هذا القول يلزم منه أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ بمنزلة التكرار، فالقول الأول هو الأوجه وعليه الجمهور.

والتأويب في اللغة هو الترجيع.

فأمرت الجبال والطير أن تُرَجِّع معه بأصواتها[1].

ويدل على ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

والمعنى: أنه تعالى سخر الجبال تسبح مع داود عليه السلام، عند إشراق الشمس وآخر النهار، وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وتُرَجِّع بترجيعه.

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ ـ أي: مجموعة واقفة في الهواء.

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع، تسبح تبعاً له.

وكانت الطيور إذا مرّت بسيدنا داود على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم ـ وهو يترنّم بقراءة الزبور ـ لا تستطيع الذهاب لقوة الجاذب الذي جذبها، والحال الذي اعتراها، بل تقف في الهواء وتسبح معه مجموعة ـ وتجيبه الجبال الشامخات تُرَجِّع معه، وتسبح تبعاً له.

فعالم الطير عالم كبير، وهو أنواع كثيرة، وكل منها له أوصاف خاصة، وطباع خاصة، وكلها تعلم خالقها ورازقها بعلم قطعي، أودعه الله تعالى فيها، فهي تُصلي له وتسبحه ـ كما تقدم ـ.

روى الحافظ الطبراني بإسناده المتصل عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (تركنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أي: توفي

---

(١) انظر (تفسير) ابن كثير، والآلوسي وغيرهما.

صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وما طائر يقلِّب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً).

قال أبو ذر: وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما بقي شيء يُقرب من الجنة، ويباعد من النار إلا وقد بُيِّن لكم» ـ أي: بيّنه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فقد تناول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذكر العوالم حتى عالم الطير.

ومن هنا يعلم العاقل أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يترك ناحية من النواحي التي فيها مصالح للبشرية، وسعادة لهم: أفراداً وجماعات؛ إلا وقد بَيَّن ذلك، ودل عليه، وحذر من كل ما يعود عليهم بالشر والفساد إلى يوم الدين.

أتظن أيها العاقل أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم تناول ذكر عالم الطير، وأغفل ذكر وبيان ما فيه مصالح البشر إلى يوم القيامة؛ وأغفل ذكر ما يعود عليهم بالضرر والفساد؟!!.. كلا ثم كلا..

بل لقد بين رسول الله وخاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كل شيء فيه سعادة الإنسان، وحذر من كل شيء فيه شقاوة الإنسان، وضررٌ عليه ـ فإن رسالته صلى الله عليه وعلى آله وسلم هي عامة لجميع العالمين إلى يوم الدين، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، وعلينا معهم أبد الآبدين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

فافهم أيها العاقل، فإنك إذا فهمت همت حباً في هذا الرسول الأكرم، والحبيب الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، وعلينا معهم أجمعين ـ آمين.

وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ في خطبته يوم حجة الوداع:

«أيها الناس، إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون»؟

قالوا كلهم: نشهد يا رسول الله أنك قد بلغت، وأدَّيْت، ونصحت.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد».

نعم ونحن على ذلك من الشاهدين ـ اللهم فاكتبنا مع الشاهدين.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾.

أتى باسم الرحمن الدال على رحمته الواسعة، التي وسعت السموات والأرض؛ بل وسعت العوالم كلها: علويّها وسفلها؛ ومنها عالم الطير، ووسعت كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ الآية.

فجميع العوالم مُحاطة برحمانيته باسم الرحمن.

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

قيل للإمام مالك رضي الله عنه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟.

فأطرق الإمام رأسه طويلاً، ثم قال للسائل: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ وما أظنك أيها السائل إلا مبتدعاً ـ وأمر به فأُخرِج.

وفي رواية: قال: والكيف غير معقول ـ أي: لا تدركه العقول لعجزها عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾.

فهو سبحانه يرى كل شيء، ولا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء: دَقَّ أم عَظُم، صَغر أو كبر، كل ذلك عنده سواء.

قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: فَخُذوا حذركم، واعلموا أَنَّه يرى جميع أعمالكم الظاهرة والباطنة، القلبية والقالبية؛ فراقبوه في جميع تقلباتكم وأفعالكم، وأصلحوا أعمالكم ولا تفسدوها؛ فإنه سبحانه سوف يجمعكم ليوم لا ريب فيه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (حاسبوا[1] أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تُحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ـ أي: على الله تعالى ـ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[2]).

وكان الإمام أحمد رضي الله عنه ينشد هذين البيتين:

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقل خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعة ولا أنَّ ما يُخفى عليه يَغيب

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾.

في هذه الآية الكريمة إنكارٌ وتهديدٌ ووعيد من الله تعالى للكفار، والمعنى: أيُّ جند ينصرهم من دون الرحمن ـ أي: غير الله تعالى ـ ويدفع عنهم عذابه سبحانه؛ إذا وقع بهم ـ أي: ليس لهم من دونه من ولي، ولا واق، ولا ناصر لهم غيره سبحانه، فليخافوه، وليتقوه، وليحذروا من عذابه سبحانه، ولا يغرنهم الشيطان بأن لا عذاب هناك ولا حساب، ولا تغرنهم أموالهم ولا أولادهم.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) انظر (تفسير) ابن كثير.
(٢) وقد فصلت الكلام على العرض في كتاب: (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) وذكرت مراتب العرض الثلاثة ـ فارجع إليه.

فليس هناك مَن يدفع عذاب الله تعالى عن الكفار إذا حلّ بهم، فإنه سبحانه قال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فهو سبحانه يجنِّد ما يشاء من السموات والأرض لما يشاء، ويرسل ذلك على أعدائه سبحانه، وينصر بذلك عباده المؤمنين، ويدمر الكافرين؛ كما فعل ذلك في أصحاب الفيل، فإنه سبحانه أرسل عليهم طيراً أبابيل، هو سبحانه جنّدها وقوّاها، فصارت ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول.. كما تقدم.

وكما أنه سبحانه أرسل الريح العقيم على قوم عاد، فإنه سبحانه هو أَمَرها وجنَّدها، وأرسلها تُدمر وتُهلك وتفتك.

قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾.

فهي ريح عقيم تُهلك وتدمر، وليست من الرياح اللواقح التي يُحيي الله تعالى بها البشر والشجر والنبات، وتأتي بالمطر الذي يحيي الله به الأرض بعد موتها.

قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾.

وقد جنَّد الله تعالى أنواعاً مختلفة من مخلوقاته سبحانه، وأرسلها على قوم فرعون عذاباً لهم، وعقاباً لعَلَّهم يرجعون:

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

أما الطوفان: فهو كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ هو

وغيره ـ: كثرة الأمطار، والسيول المُغرقة، والمتلفة للزروع والثمار.

وقال بعضهم: المراد بالطوفان كثرة الموت فيهم.

وأما الجراد: فهو الحيوان المعروف، وسمي بذلك لجرده ما على وجه الأرض.

وأما القُمَّل: فهو يشمل القمل المعروف في الأجسام؛ ويشمل السوس وهو الحيوان الذي يكون في الحنطة وغيرها ـ تأكل مؤنتهم وزروعهم.

وأما الضفادع: **فكانت تملأ** بيوتهم وأفنيتهم، وأمتعتهم وآنيتهم، فلا يكشف أحدهم إناءً إلا وجد فيه ضفادع، **وتملأ مجالسهم**: فإذا أراد أحدهم أن يتكلم تشب الضفدع فتدخل في فيه، **وتملأ أواني طعامهم** فتفسده عليهم، وتطفىء نيرانهم، وإذا اضطجع أحدهم ركبته الضفادع حتى تكون فوقه أثقالاً، ولا يعجن أحدهم عجيناً إلا امتلأ منها.

وأما الدم: إذا استقوا من الأنهار والآبار ووضعوه في أوانيهم يصير دماً، ولا يستقون من نهر ولا بئر، ولا يغترفون بأيديهم من ماء إلا عاد دماً، حتى إن المرأة من آل فرعون تأتي المرأة من بني إسرائيل فتقول لها اسقيني، فتصب لها من قربتها، فتصير دماً في إناء المرأة من آل فرعون.

حتى كانت تقول للمرأة الإسرائيلية: اجعلي الماء في فيك ثم

مُجِّيه في فيَّ فتفعل ذلك؛ فيصير دماً في فم المرأة من قوم فرعون[1].

﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ ـ أي: مبينات، لا يشك عاقل أنها آيات إلَهية، ليست بسحر كما يزعمون، ومميزات بعضها عن بعض، منفصلة بالزمان؛ لعلهم يرجعون، ويؤمنون بموسى عليه السلام إيماناً صادقاً، ولا يَنقضون عهودهم معه.

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾.

قال: يتبع بعضها بعضاً، تمكث فيهم سبتاً إلى سبت، ثم ترفع عنهم شهراً، فالفاصل الزمني بين واحدة وأخرى هو شهر.

وهو المروي عن ابن عباس وغير واحد، وثمة أقوال أُخرى.

فكانوا كلما جاءتهم الواحدة من تلك الآيات تبقى فيهم أسبوعاً، فيضجون ويسألون موسى عليه السلام أَنْ يَدْعُوَ ربه أن يرفع عنهم ذلك العذاب، ويعاهدونه على الإيمان به، وكف الأذى عن بني إسرائيل، فإذا رفع العذاب عنهم نكثوا عهدهم وعادوا لما هم عليه، فيمهلهم شهراً، ثم تأتيهم الآية الثانية ـ وهكذا تتابعت تلك الآيات كما هي مذكورة في القرآن الكريم.

ومع ذلك كله فهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وكانت العقوبات تتناول قوم فرعون، ولا تتجاوزهم إلى بني

---

(١) انظر: (الدر المنثور)، (وروح المعاني)، والحافظ ابن كثير.

إسرائيل، لأن الله تعالى جنَّدها وأرسلها على قوم فرعون كما قال سبحانه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ الآية.

فهي جند من جنود الله تعالى، تُنفِّذُ أمر الله تعالى الذي جنّدها وأرسلها.

فانظر أيها العاقل إلى عظمة قدرة الله تعالى واعتبر.

فهو سبحانه كما قال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

فجميع السماوات والأرض وما فيهما، كلها مَمْلُوكة له سبحانه، وكلها جنوده، يجند ما شاء منها في الوقت الذي يشاؤه، ويرسلها حيث يشاء سبحانه وتعالى.

ومن ذلك إرساله سبحانه البعوض على نُمرود وجيوشه وجموعه.

فإنه سبحانه وتعالى أرسل عليهم جموعاً كبيرة من البعوض، بحيث لم يَروا عين الشمس، وجندها، وسَلَّطها عليهم، فأكلت لحومهم، ودماءهم، وتركتهم عظاماً بادية، ودخلت واحدة منها في مِنخر مَلِكهم ـ نمرود ـ وذلك بأمر الله تعالى لها خاصة ـ فجعلت تفتك في مُخِّه، وبقي سنين عديدة يُضرب رأسه بالمطارق من شدة ألمه ووجعه.

وصار أرحم الناس به مَن جمع يديه ثم ضرب رأسه بقوة، حتى يَخفّ شيء من الألم الشديد عنه ـ ثم أماته الله تعالى.

فَعُذِّب بذلك في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر، وذلك جزاء الظالمين الجاحدين، المعاندين، المنكرين للحق بعدما تبيّن:

بالبراهين العقلية، والمرئية، في مشاهد الأكوان: السماوية، والأرضية، والنفسية.

وهذا هو الذي أخبر الله تعالى عنه في قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ أي: وجود ربه.

وذلك أنه أنكر أن يكون هناك إلّه غيره، وما حمله على هذا الطغيان والكفر والمعاندة الشديدة إلا تجبُّره، وطول مدته في الملك، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾.

وكان طلب من الخليل عليه السلام دليلاً على وجود الرب الحق الذي يدعو إليه الخليل ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم ـ.

فقال سيدنا إبراهيم ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم ـ ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ ـ أي: الذي يتصرف في خلقه، فَيُوجد ويُعدم.

فقال نمرود: ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ ﴾ وذلك أن أُتِيَ بالرجلين قد استحقا القتل: فأمر بقتل أحدهما ـ فيقتل، وأمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل ـ فذلك إحياء وإماتة ـ ويروى أنه نفذ ذلك، وأراد بذلك

المشاغبة والمواربة في المناظرة، والتلبيس على قومه، ليوهم أنه يُحيي ويميت، وأنه المتصرِّف.

ولهذا قال له الخليل عليه السلام لما رأى منه هذه المواربة والمكابرة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

أي: إذا كنت كما تَدَّعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يَتَصرف في الوجود كلّه، فهو يتصرف في تسخير كواكبه، وتسييرها وحركاتها، فهذه الشمس تطلع بأمر الله تعالى كل يوم من المشرق؛ فإن كنت إلَهاً كما تدعي أنك تتصرف ـ وتحيي وتميت ـ فَأْتِ بها من المغرب.

فلما علم عجزه، وانقطعت دعواه، وفشلت مكابرته ـ بُهت وأُخرس، ولم يتكلم وقامت عليه الحجة.

قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

بل ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

وكانت هذه المناظرة بين الخليل عليه السلام وبين نمرود بَعد خروج إبراهيم عليه السلام من النار، ولم يكن اجتمع الخليل بنمرود إلا في ذلك اليوم، فجرت بينهما هذه المناظرة(١).

ومن جملة جنود الله تعالى، وإرسالها على أعدائه الكافرين برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

---

(١) انظر (تفسير) الحافظ ابن كثير، و(الدر المنثور)، وغيرهما.

وذلك يوم الخندق، فإنّ جميع أحزاب المشركين جمعوا جموعهم، وحشدوا جيوشهم، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بمسيرهم، أمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بحفر الخندق حول المدينة مما يلي المشرق، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه، فعمل المسلمون فيه، واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم التراب وَحَفر، وكان في حَفْره ذلك آيات تَشهد برسالته ودلائل بينات.

وجاء المشركون فنزلوا شَرقي المدينة، قريباً من أُحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي المدينة، كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومن معه من المسلمين فأسندوا ظهورهم إلى جبل سِلَع، ووجوههم إلى نحو العدوّ، والخندق بينهم وبين الأعداء، يحجب الخَيَّالة والرجالة أن تصل إليهم.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم دعا عليهم، فأرسل الله تعالى عليهم ريحاً وجنوداً من الملائكة عليهم السلام.

أما الريح وتُسمى: الصبا فكانت تفتك في المشركين فتكاً شديداً، فقلعت أوتاد الأخبية، وأطفأت نيران المشركين، وألقت الأبنية، وقلبت القدور على أفواهها، وسفّت التراب على وجوههم كلِّهم، وأعينهم ومناخرهم، ورمتهم بالحصا، وسمعوا في أرجاء معسكرهم التكبير، وقعقعة السلاح من الملائكة عليهم السلام، وألقت الملائكة في قلوبهم الرعب والخوف الشديد؛ فكان رئيس

كل قبيلة يقول: يا بني فلان إليّ إليّ ـ فيجتمعون إليه.

فيقول لهم: النجاء النجاء ـ أي: أسرعوا، واطلبوا النجاة بأي سبيل كان ـ وذلك من شدة الرعب الذي ألقاه الله تعالى في قلوبهم.

فارتحلوا هاربين في ليلتهم، وتركوا ما استثقلوه من أمتعتهم: فغنمه المسلمون؛ مع عشرين بعيراً أرسلها أبو سفيان غوناً للمشركين، وكانت مُحملة بالشعير والتمر فلقيها جماعة من المسلمين فأخذوها وانصرفوا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فتوسعوا بها، وأكلوا ونحروا منها أبعرة، وبقي منها ما بقي؛ حتى دخلوا بها المدينة المنورة بأنواره[1] صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

وكان من دعائه صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم الأحزاب على المشركين، ما رواه البخاري وغيره، واللفظ له كما في: كتاب الجهاد، عن عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله عنهما قال: دعا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم الأحزاب على المشركين فقال: «اللهم مُنزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزم الأحزاب وزلزلهم».

والمراد بالكتاب في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

---

(١) والكلام على غزوة الأحزاب وحفر الخندق ـ هو طويل واسع، وهو مذكور في التفاسير وكتب السِيَر، وإنما ذكرت هنا جانباً موجزاً للاستشهاد على بعض أنواع جنود الله تعالى، ولخصت ذلك من (تفسير الحافظ ابن كثير، و(شرح) الحافظ الإمام الزرقاني على: (المواهب). اهـ

«اللهم مُنزل الكتاب» المراد به القرآن العظيم.

قال العلامة الحافظ القسطلاني رحمه الله تعالى: لعل تخصيص هذا الوصف بهذا المقام تلويح إلى معنى الانتصار في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ وأمثال ذلك. اهـ

كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

قال الحافظ الزرقاني رحمه الله تعالى: وخص رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الدعاء عليهم بالهزيمة والزلزلة ـ أي: الرعب الشديد ـ دون الهلاك، لأن في الهزيمة سلامة نفوسهم، وقد يكون ذلك رجاء أن يتوبوا ويدخلوا في الإسلام، أو يكون من أصلابهم من يعبد الله تعالى ـ والإهلاك مُفَوِّت لهذا المقصد الصحيح. اهـ

وروى الإمام أحمد، وابن سعد عن جابر رضي الله عنه، أَنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أتى مسجد الأحزاب يوم الإثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء بين الظهر والعصر، فوضع رداءه، فقام صلى الله عليه وعلى آله وسلم فرفع يديه يَدعو عليهم ـ أي: على المشركين ـ فرأينا البِشْر في وجهه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أي: السرور والفرح بالإجابة السريعة، والنصر العزيز، وخِذلان أعدائه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وردِّهم على أعقابهم خاسئين خاسرين.

وبذلك استبشر أصحابه رضي الله عنهم، واطمأنوا وأيقنوا بهزيمة جموع المشركين قريباً.

فأرسل الله تعالى على المشركين ريحاً وجنوداً من الملائكة عليهم السلام في الليلة التي تلت ذلك ـ والحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾

الكلام في ذلك على وجهين:

الأول قوله تعالى.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾

في هذه الآية الكريمة إلزام أيضاً للمنكرين وجود الله تعالى، وللمنكرين وحدانيته سبحانه، وهم المشركون، فهو سبحانه يُلزمهم بالإقرار والاعتراف بأن الله تعالى هو الحق ـ أي: الواجب الوجود، وأنه سبحانه واحد لاشريك له.

فبين لهم أنه سبحانه إن أمسك رزقه عنهم فمن هو غير الله تعالى يرزقهم، وإمساكه سبحانه الرزق عنهم بإمساكه المطر، وإمساكه الأرض عن الإنبات، بأن يجعلها جَدباً، فإذا أمسك مطر السماء هلك الزرع والضرع، وإذا جعل الأرض جدباء لا تُنبت فليس هناك أحد يقدر على إنباتها وإخراج الزرع منها.

ولكنه سبحانه هو الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فوسعت رحمته جميع عباده ومخلوقاته، وقد تكفَّل سبحانه برزق جميع مخلوقاته، قال

تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

فقد تكفَّل سبحانه برزق الإنسان، والحيوان، والطيور، وجميع ما هنالك من النمل والنحل، فهو الإله الخالق الرازق وحده.

قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾.

أي: كذلك يحيي الله تعالى الموتى ويخرجهم من الأرض، ويجمعهم ليوم الجمع.

فالله تعالى هو الرزاق وحده، المتكفل برزق جميع خلقه، حتى النملة في مسكنها، وهو الغني المنفق على جميع خلقه، وخزائنه ملأى لا تغيضها نفقته على جميع خلقه سبحانه.

روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا ابن آدم أنفق أُنفق عليك».

قال أبو هريرة رضي الله عنه، وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة ـ أي: لا تنقصها نفقته على عباده ـ سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض: فإنه لم يُغض ما في يده، وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع».

وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

والمعنى وكم مِن دابة لا تستطيع حَمْل رزقها لضعفها، ولا تُطيق جمعه ولا تحصيله، ولا تدخر شيئًا لغد، فالله تعالى هو يرزقها، ويُقَيِّضُ ويسوق لها رزقها على ضعفها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه، حتى الذر في باطن الأرض، والطير في الهواء، والحيتان في الماء، فهو سبحانه هو الذي يرزق الكل، ويرزقكم كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

وقد نُقل عن بعض الصالحين: أنه كان تتردَّد إليه هرَّة إذا جلس للطعام، فكان يُلقي إليها شيئاً من الطعام، فما تأكله، ولكن تحمله بفمها وتذهب به، فلما كثر منها ذلك قام يوماً يتبعها إلى أين تذهب بالطعام، فرآها دخلت في خربة كانت قريبة من داره، فدخل الخربة فرأى في بعض جوانب الخربة هرةً عمياء فوضعت الطعام أمامها فأكلته، فكانت تلك الهرة تحمل الطعام وتضعه أمام الهرة العمياء فتأكله ـ فهو سبحانه يعلم كيف يسوق رزقه لمخلوقاته، لأنه المتكفل برزق جميع خلقه كما قال سبحانه في الآية: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

فهذه كفالته سبحانه برزق خلقه هو سبحانه أعلنها وسجَّلها، وكتبها في اللوح المحفوظ، وأنزلها في كتبه النازلة على رسله صلوات الله على نبينا وعليهم أجمعين، والقرآن العظيم الذي أنزله على إمام الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ ـ أي: ويرزقكم ـ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: وهو السميع المجيب

لسؤالهم وشكواهم له سبحانه، وهو العليم بحوائجهم، وكيف يسوق أرزاقهم إليهم، ولا يعلم ذلك غيره سبحانه.

وفي هذه الآية الكريمة حثٌّ للعباد على سؤاله سبحانه جميع حوائجهم، والعكوف على باب عطائه وكرمه سبحانه.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

﴿لَّجُّواْ﴾ معناه: استمروا وأصرُّوا، **والعتوُّ** هو: مجاوزة الحد في التكبر والتجبر، **والنفور** هو: شدة الإعراض والإباء.

ومعنى الآية: أنهم في الواقع قد تبين لهم الحق وعرفوه، لأنهم يشاهدون الآيات السماوية والأرضية الدالة على وجود الله تعالى، ووحدانيته، وعظمة قدرته، وسعة علمه سبحانه وحكمته، ولكنهم قوم عتاة طغاة، جبابرة معاندون، معرضون ومعارضون، فهم يُنكرون الحق ولا يعترفون، ويجحدون ويعاندون، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

فكلما بدا لهم نور الحق، والبرهان القاطع، الدال على وجوده سبحانه ووحدانيته ـ أعرضوا وجحدوا ظلماً وعلواً.

وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

فحجة الله تعالى بالغة، ولأباطيلهم دامغة، فهم أهل كبر وعناد، والعنيد هو كالحديد لا تُلينه إلاالنار قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ والعياذ بالله تعالى.

قوله تعالى:

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، يكشف عن حقيقة ما هما عليه، وشأن المثل أن يُبرز المعاني بصور المباني، ليتضح الأمر وضوحاً جلياً؛ لاخفاء فيه.

فالكافر مَثَلُه فيما هو فيه، كمثل مَنْ يَمشي مُكباً على وجهه أي: يمشي منحياً على وجهه لا مستوياً، فهو لا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهب، لا يرى أمامه، ولا يمينه، ولا شماله، ولا يأمن من العثور والسقوط، فهو حائر ضال ـ أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ منتصب القامة، معتدلاً، ناظراً أمامه ويمينه وشماله ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح بيِّن مستقيم، لا اعوجاج فيه، وهو: أي الماشي في نفسه مستقيم في مشيه عليه.

فالمؤمن يمشي على سبيل مستقيم، نيِّر واضح، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالى رسوله الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أن يُعلن لجميع العالم منهاج دعوته: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: هذه السبيل التي هي دعوته إلى الإيمان بالله تعالى، والإيمان بوحدانيته، وأنه لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: أدعوا إلى الإيمان به، وتوحيده في ذاته وصفاته وأفعاله، ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: بينة ونور ساطع، وبرهان قاطع ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ أي: وكلُّ من اتبعه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فهو على بصيرة وبينة، ونور ساطع.

قال الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

فكل من اتبع هذا الرسول الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم فهو على هدى ونور وبصيرة، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ .

وقد بين صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه ترك أمته على نور وهدى، وتبيان لكل شيء:

وروى الإمام أحمد في: (مسنده) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موعظةً ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله إنها لموعظة مودِّع فماذا تعهد إلينا؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قد تركتكم على البيضاء ، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ـ ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» الحديث.

فترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمته على مثل نور الشمس البيضاء، بيَّن كلَّ شيء، ودلَّهم على كل شيء يسعدهم وينفعهم في الدنيا والأخرة، وحذَّرهم من كل ما فيه شَرٌّ لهم في دنياهم وفي آخرتهم.

وقد روى هذا الحديث أيضاً ابن أبي عاصم في كتاب(السنة) بإسناد حسن، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، أنه سمع

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك» ذكره الحافظ المنذري في: (الترغيب).

وسيأتي ذكر روايات هذا الحديث من طرق متعددة مع تخريجها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

الكلام على هذه الآيـة الكريمة له وجوه:

الوجه الأول: في هذه الآية الكريمة تحدٍّ وإلزام أيضاً بالإقرار والاعتراف بأن الله تعالى هو الحقُّ، الواجب الوجود، الذي لا شك في وجوده، وأنه واحد لا شريك له.

فيقول سبحانه: ﴿قُلْ﴾ أي: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في دعوتك العباد إلى الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أي: هو وحده أنشأكم أي: خلقكم، وأوجدكم بعد العدم، وإذا كنتم موقنين بوجود أنفسكم؛ فيجب أن تكونوا أشدَّ يقيناً بوجود الذي أنشأكم وخلقكم، فإن العاقل إذا رأى مصنوعاً أيقن بوجود الصانع الذي صنعه، وإن لم يره بعينه، وإذا رأى بنايةً أيقن أنَّ هناك بانياً بناها، ويعلم ذلك بداهةً، وإن لم ير الباني، ولا يشكُّ في وجوده، بل يعقل ذلك بداهة، قال تعالى: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

فهذا الإنسان، وهذه السماء، وهذه الأرض، وهذه الأكوان

المحيطة بالإنسان، مَنِ الذي أوجدها؟ فإنها موجودة مشهودة بالعيان.

نعم هو الله رب العالمين، وكلها مصنوعاته قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فهو الإله الحق وهو خالق الخلق ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

والفرار إلى الله تعالى هو الإسراع في التقرب إليه سبحانه بالأعمال الصالحات، وبترك المنهيات، على جناحي الخوف والرجاء، فإن الطائر إذا خاف شيئاً فرَّ مسرعاً يخفق جناحيه حتى ينتهي إلى مأمنه.

قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: يجب على العباد أنْ يخافوه سبحانه، ويحذروا عذابه مع رجاء رحمته سبحانه.

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب، ليكون المؤمن على رَجاء وخوف، قال الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾

وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

روى الترمذي، والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من خاف أدْلج[2]، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إنَّ سِلعة الله غالية، أَلا إنّ سِلعة الله الجنة».

فالمسافر إذا نزل في أرض وأقبل عليه الليل، وخاف البيات أَدْلَج وتابع سيره حتى يصل إلى منزله الذي فيه مأمنه، وكذلك العبد الذي يخاف من عذاب الله تعالى فإنه يَجِدُّ في السير على طريق التقوى ـ فإن تقوى الله تعالى فيها الوقاية من عذاب الله تعالى وعقابه، وذلك بامتثال أوامره سبحانه، واجتناب ما نهى عنه، وبالتزام العبد وملازمته لتقوى الله تعالى؛ فإنه يصل إلى الجنة التي فيها مأمنه وسعادته.

قال الله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ اللهم اجعلنا منهم.

ثم بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن سِلعة الله هي غالية وهي: الجنة ـ فيجب على المسلم أن يبذل جهده في تقوى الله تعالى، فإنه سبحانه قال: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾.

---

(١) وقد فصلت الكلام على الخوف والرجاء في كتاب: (التقرب إلى الله تعالى) فارجع اليه ينفعك الله تعالى به.

(٢) أَدْلج: بسكون الدال مخففاً سار من أول الليل، وأما بالتشديد فمعناه سار من آخر الليل. اهـ المناوي.

وقال سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ الآيات[1].

ويرحم الله تعالى القائل:

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واحذر كماشٍ فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لاتحقرنَّ صغيرة إن الجبال من الحصى

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ جمع فؤاد وهو: القلب، وقيل: سويداء القلب، وبالقلب يعقل الإنسان الأمور، فيعرف خيرها من شرها، ويتعرف إلى ما وراء المسموعات والمُبْصَرات، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

وهذه النعم الثلاثة: **السمع، والبصر، والفؤاد**، هي من أكبر نعم الله تعالى على عباده، **فبالسمع**: يسمع آيات الله تعالى المتلوّة، النازلة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيتدبَّرها، ويعلم ما فيها من الأدلة والبراهين الدالَّة على وجود الله تعالى، ووحدانيته، وكمال أسمائه وصفاته، **وبالبصر**: يُشاهد آيات الله

---

(١) والكلام على التقوى وأنواعها مفصلاً تجده في كتاب: (التقرب إلى الله تعالى).

تعالى التكوينية المرئية، الدالة على عظمة قدرة الله تعالى الخالق، وسعة علمه، وحكمته سبحانه، ولذلك كانت المسؤولية عنها يوم القيامة كبيرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

فَيُسأل العبد يوم القيامة عن سمعه وبصره وفؤاده أين صرف ذلك، هل وجَّه سمعه وبصره وفؤاده إلى أمر أحلَّه الله تعالى، أم إلى أمر حرمه الله تعالى، فليتق العبد ربه في سمعه وبصره وفؤاده، وليعلم أن كل ما يمر عليه سمعه وبصره وفؤاده، ويتوجَّه إليه فهو مسؤول عنه، فإن كان ذلك في الخير كان له أجر، وإن كان في الشر كان عليه وزر.

روى الترمذي عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله تعالى له: ألم أجعل لك سمعا وبصراً، ومالاً وولداً، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتربع» ـ وفي رواية: «وترتع» ـ أي: تنعم بالمأكل والمشرب ـ «فكنت تظن أنك ملاقيَّ يومك هذا»؟ ـ أي: هل كنت تعتقد أنك سوف تلقاني في هذا اليوم: يوم القيامة وأسألك عما عملت؟

قال: «فيقول العبد ـ أي: الكافر ـ : لا.

فيقول الله تعالى له: اليوم أنساك[1] كما نسيتني» أي: اليوم أتركك في العذاب كما تركتَ في الدنيا الدين الذي أنزلتُه، والشريعة التي شرعتها، ولم تؤمن بلقائي هذا.

---

(١) النسيان قد يطلق على الترك كما هنا.

وروى أصحاب السنن عن شَكَل بن حميد رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فقلت: يا نبي الله علمني تعويذاً أتعوّذ به.

قال: فأخذ صلى الله عليه وآله وسلم: بيدي ثم قال: «قل: اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري، وشر لساني، وشر قلبي، وشر مَنِيِّي» قال: فحفظتها أي: وواظبَ عليها.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[1].

في هذه الآية الكريمة تنبيه من الله تعالى لعباده: أن يكثروا من شكره ما استطاعوا.

والشكر الكامل هو: صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى عليه فيما يُقربه إليه سبحانه، وبذلك ينال مقام الشاكرين.

قال الله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

والشكر قائم على ثلاثة أمور:

الأول: **الشكر القلبي**، وهو الاعتقاد الجازم بقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

الثاني: **الشكر القولي**، وذلك بالحمد لله سبحانه بأنواع المحامد، والثّناء عليه سبحانه.

---

(١) ونصب قليلاً على أنه صفة مصدر مقدر أي: شكراً قليلاً و(ما) جيء بها لتأكيد التقليل، والقلة على ظاهرها، أو بمعنى النفي؛ إن كان الخطاب للكفرة، وجرى عليه بعض المفسرين ـ انظر تفسير (روح المعاني) وغيره.

الثالث: الشكر العملي: قال الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ وذلك بالإكثار من العبادات، والأعمال الصالحة، وفعل الخيرات والمَبَرَّات.

وإن سيد الشاكرين، وإمام الشاكرين، الذي نال أعلى مقام في الشكر منفرداً به ـ هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهو سيد كل عبد شكور.

فإن محامده صلى الله عليه وآله وسلم لله تعالى، وثناءه على الله تعالى؛ ما يبلغ ذلك أحد، وأعماله وعباداته لله تعالى ما يبلغها أحد، فلقد قام الليل، وقام وأطال الركوع والسجود والقيام حتى تَوَرَّمَت قدماه صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

روى الشيخان عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: (قام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حتى تورَّمت قدماه).

وفي رواية عنها: (أن نبيَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يقوم الليل حتى تفطَّرت قدماه) أي: تشقَّقت من كثرة القيام.

وفي رواية النسائي، عن أبي هريرة رضي الله عنه: (حتى تَزْلَعَ قدماه) بزاي وعين مهملة أي: تشقق.

قال الحافظ في: (الفتح): ولا اختلاف بين هذه الروايات: إذ حصل الانتفاخ والورم، وحصل الزلع والتشقق. اهـ

وجاء في رواية (الصحيحين)، قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت له: (لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر).

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وروى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: (صليت مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذات ليلة، فافتتح البقرة فقلت: ـ أي: ظننت ـ، يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها ـ يقرأ صلى الله عليه وعلى آله وسلم مترسِّلاً إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذ)

وفي رواية النسائي: (لا يمر بآية تخويف أو تعظيم لله عز وجلَّ إلا ذكره، ثم ركع فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم» فكان ركوعه نحواً من قيامه ـ أي: قريباً في الطول من قيامه ـ ثم قال: «سمع الله لمن حمده» ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: «سبحان ربي الأعلى» فكان سجوده قريباً من قيامه صلى الله عليه وعلى آله وسلم).

وقد علَّم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمته أن يدعوا بهذا الدعاء وراء الصلوات:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «والله إني لأحبك، أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ ـ أي: لا تتركنَّ ـ في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»(١).

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم كما في: (الفتح الكبير).

وإنما أمره صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يدعُوَ بهذا الدعاء وراء الصلوات لأنه من أوقات الإجابة.

روى الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أيُّ الدعاء أسْمعُ ـ أي: أقوى إجابةً ـ؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «جوف الليل، ودبر الصلوات المكتوبات» أي: وراء الصلوات.

وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ـ فقد أدى شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدَّى شكر ليلته» رواه أبو داود.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الوجه الأول: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قل يا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، المبلغ عن الله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الله وحده لا شريك له ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم وكثَّركم، وبثكم، ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم، واختلاف ألوانكم وأشكالكم وصوركم.

جاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «إن الله تعالى خلق آدم عليه السلام من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على

قدر الأرض، منهم: الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل ـ أي: ومنهم السهل ـ والحَزْن، والخبيث، والطيب».

رواه أبو داود والترمذي كما في: (التيسير).

والحَزْن: ما غلظ من الأرض ضد السهل.

وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إقامة حجة قاطعة مشهودة مرئية، تدل على حقية وجوب وجود الله تعالى، ووحدانيته، وعظمة قدرته وسعة علمه وحكمته، وأنه سبحانه أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وأنه سبحانه لا يُعجزه شيء مهما عظم ذلك الشيء، فله القدرة التي لا نهاية لها، قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

الحشر في لغة العرب معناه: الجمع، والمراد هنا بالحشر جمع الخلائق كلهم إلى أرض الموقف، بعد بعثهم وإخراجهم من بطن الأرض أحياءً.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

وإن أول من تنشق عنه الأرض، ويبعثه الله تعالى هو إمام الأنبياء والمرسلين، الحبيب الأعظم، والرسول الأكرم سيدنا محمد صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعلى جميع إخوانه النبيين والمرسلين وآله وآلهم أجمعين، وعلينا معهم أجمعين، وقد خصه الله تعالى بأفضل أوَّليات المكارم في جميع العوالم، وقال الله تعالى له: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يتحدث بذلك، ويعلن ذلك، شكراً لله تعالى، وامتثالاً لأمره سبحانه حيث قال له: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأنا أوّل من ينشقُّ عنه القبر، وأنا أوَّل شافع وأوَّل مشفَّع».

وإنما ذكر سيادته صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم القيامة، مع أنه هو سيد ولد آدم في كل العوالم ـ ذلك لأن يوم القيامة هو يوم مجموع له الناس كلهم، فتظهر فيه سيادته لكل امرىء عياناً، بلا إنكار منكر، وفي ذلك إعلام لجميع الخلائق بأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو الشفيع الأكرم في الشدائد والكربات، لأن سيد القوم هو مرجعهم في مهامِّ الأمور.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما مِن نَبيٍّ يومئذ آدم فمن

سواه إلا تحت لوائي، وأنا أوَّل من تنشقُّ عنه الأرض ولا فخر، وأنا أوَّل شافع وأوَّل مشفَّع ولا فخر»[1].

ومعنى: «ولا فخر» أي: هو صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول ذلك شكراً لله تعالى، وتحدثاً بنعمته سبحانه، لا كبراً ولا فخراً.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنا أول من تنشقُّ عنه الأرض، ثم أبو بكر، ثم عمر، ثم آتي أهل البقيع فيُحشرون، ثم أنتظر أهل مكة حتى أُحشر بين الحرمين».

رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

فله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الأوليات في جميع الفضائل والكمالات:

روى الترمذي، والدارمي واللفظ له: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جلس ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ينتظرونه، فخرج، حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ـ فتسمَّع حديثهم ، **فإذا بعضهم يقول**: عجباً إن الله اتَّخذ من خلقه خليلاً فإبراهيم خليله، **وقال آخر**: ماذا بأعجب من ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ **وقال آخر**: فعيسى كلمة الله وروحه، **وقال آخر**: وآدم اصطفاه الله تعالى.

فخرج عليهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم فسلَّم وقال: «قد

---

(١) قال الحافظ الزرقاني: رواه الترمذي وقال: حديث صحيح، وكذا رواه ابن ماجه، والإمام أحمد.

سمعت كلامكم وعجبكم، إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى نجيُّه وهو كذلك، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك.

ألا وأنا حبيب الله تعالى ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفَّع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يُحرك بحِلَقِ الجنة ولا فخر، فيفتح الله تعالى فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله تعالى ولا فخر».

وقال الإمام الدارمي في (سننه): باب ما أكرم الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد موته صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ثم روى في هذا الباب بإسناده عن نبيه بن وهب، أن كعباً دخل على السيدة عائشة رضي الله عنها، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال كعب:

ما من يوم يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة، حتى يحفُّوا بقبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يضربون بأجنحتهم ـ أي: يتمسَّحون بأجنحتهم ـ ويُصلُّون على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، حتى إذا أمسَوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك، حتى إذا انشقَّت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يَزفُّونه» وفي لفظ: «يوقِّرونه»[1] صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

---

(١) ورواه القاضي إسماعيل في كتابه: فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقال الحافظ السخاوي في: (القول البديع) رواه =

فياأخي المسلم وأختي المسلمة: أكثرا من الصلاة على الحبيب الأكرم، سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقد جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة» رواه الترمذي وابن حبان وغيرهما.

قال العلامة المُناوي في معنى قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنَّ أولى الناس بي يوم القيامة» أي: أقربهم مني يوم القيامة، وأولاهم بشفاعتي، وأحقهم بالإفاضة من أنواع الخيرات، ودفع المكروهات «أكثرهم عليَّ صلاة» ـ أي: في الدنيا، لأن كثرة الصلاة عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم تَدل على نُصوح العقيدة، وخلوص النية، وصدق المحبة له صلى الله عليه وعلى آله وسلم. اهـ

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، حقَّ قدره ومقداره العظيم، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم، وعلينا معهم أجمعين.

يُحشر المرء مع مَن أحبَّ

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه، أنَّ رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: متى الساعة؟

= القاضي إسماعيل وابن بشكوال والبيهقي في: (الشعب)، والدارمي، وابن المبارك في: (الرقائق) اهـ.

قال: «وما أعددتَ لها»

قال: لا شيء[1] إلا أني أُحب الله ورسوله.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنت مع من أَحببتَ».

قال أنس رضي الله عنه: فما فرحنا بشيءٍ، فرحنا ـ أي: مثل فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنت مع من أحببت».

قال أنس رضي الله عنه: (فأنا أُحب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم).

قال الحافظ المنذري بعد ما أورد الحديث المتقدم: وفي رواية أن رجلاً من أهل البادية، أتى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: يا رسول الله متى الساعة قائمة؟

قال: «ويلك وما أعددتَ لها»؟

قال: ما أعددتُ لها، إلا أني أُحب الله ورسوله.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنك مع من أحببت».

قال ـ أنس رضي الله عنه ـ ونحن كذلك؟ قال: «نعم» ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً.

قال الحافظ المنذري: ورواه الترمذي ولفظه:

قال أنس رضي الله عنه: رأيت أصحاب رسول الله صلى الله

---

(١) جاء في رواية لمسلم قال الرجل: يا رسول الله ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ـ أي: من النوافل ـ ولكنني أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

عليه وعلى آله وسلم فرحوا بشيء لم أرهم فرحوا بشيء أشدَّ منه: قال رجل: يا رسول الله الرجل يحب الرجل على العمل من الخير يعمل به، ولا يعمل بمثله؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «المرء مع من أحبَّ».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: يا رسول الله كيف ترى في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم ـ أي: لم يعمل مثلهم ـ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «المرء مع من أحبَّ» رواه الشيخان كما في: (الترغيب) للمنذري.

وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: (يا رسول الله الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنت يا أبا ذر مع من أحببت».

قال: فإني أحب الله ورسوله.

قال: «فإنك مع من أحببت».

قال: فأعادها أبو ذر ـ فأعادها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم) رواه أبو داود كما في: (الترغيب).

وعن أبي قِرْصافة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «من أحبَّ قوماً حشره الله في زمرتهم»[١].

---

(١) رواه الطبراني، والضياء المقدسي كما في: (الجامع الصغير).

فما أعظم هذه البشارة للمحبين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وما أكرمها.

اللهم اجعلنا منهم بجاه حبيبك الأكرم، ورسولك المعظم صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ نعم إنها البشارة بالمعية لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ويرحم الله تعالى القائل:

إذا كنت في باب النبيِّ فلا تخف ... وإن عارضتك الجنُّ يا خِلُّ والإنس
تعـرَّف لأقـوام يـدينـون حبُّـه ... وباعد أناساً قد تخبّطهم مَسُّ
فإن محبّ الحق يأوي لأهله ... بلا ريبة والجنس يألفه الجنس

روى الطبراني في: (الصغير) و(الكبير) بإسناد جيد ـ عن أمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله تعالى وجهه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ثلاث هنَّ حقٌّ: لا يجعل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له، ولا يتولَّى الله عبداً ـ أي: في الدنيا ـ فيولِّيه غيره ـ أي: يوم القيامة ـ، ولا يحب رجل قوماً إلا حُشِر معهم» كذا في: (الترغيب) وغيره.

وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ـ نحو الحديث المتقدم، وفيه: «ولا يتولَّى الله عبداً في الدنيا فيولِّيه غيره يوم القيامة، ولا يحب رجل قوماً إلا جعله الله تعالى معهم» كذا في: (الفتح الكبير) و(الترغيب) وغيرهما.

نسأل الله تعالى أن يحببنا في الصالحين، وأن يتولانا بما تولَّى به عباده الصالحين.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وهذا مقتضى حكمته

سبحانه، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾.

فالله تعالى هو الملك الحق، منزه عن العبث، وأفعاله كلها صادرة عن حكمته وعلمه، فمنذ أهبط البشرية إلى الأرض تعهَّدهم بالهدى ـ أي: هدى البيان والدلالة، على كل ما فيه سعادة البشر وصلاحه، ونجاحه في الدنيا وفي العقبى، فأمر بأوامر، ونهى عن مناهي، وأحلَّ وحرَّم، وكل ذلك عن علمه وحكمته.

والذي خلق هو أعلم بمخلوقه، وبما يُصلحه وما يفسده قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ الآية كما تقدم.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ إرشادات وبيانات بواسطة الرسل صلوات الله تعالى على رسولنا وعليهم أجمعين ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ولذلك بَيَّن الله تعالى في مواضع من كتابه العزيز أنه سوف يُعيد الخلق كما بدأهم، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وأَنْ يجمعهم ليوم لا ريب فيه ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

ولأجل أن يأخذ الحق من الظالم للمظلوم، ومن الباغي لمن بغى عليه، ويجري الحساب والسؤال والقصاص؛ وهذا مقتضى الحكمة والعدل بلا ريب، فهو سبحانه العليم الحكيم، والحكم

العدل، والملك الحق قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والمعنى أن الحُكم بالتساوي بين المتناقضين هو حكم سيء، مردود عند أهل الحكمة المخلوقة الجزئية؛ فكيف عند حكمة أحكم الحاكمين رب العالمين، الذي لا يتناهى علمه ولا حكمته.

فكما أنه لا يتساوى ظلام الليل مع ضياء النهار، ولا يتساوى الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فلا يتساوى المسيؤون مع المحسنين قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أهل العقوك المفكرة، والقلوب النيرة.

والمعنى أنّه لا بدّ من التمييز بينهما، وذلك في يوم تحقُّ فيه

الحقائق، وتظهر فيه الدقائق، وهو يوم الفصل، قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾.

روى الإمام أحمد ومسلم والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لتؤدَّن[1] الحقوقُ إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجلحاء ـ أي: التي لا قرن لها ـ من الشاة القرناء تنطحها» كذا في: (الجامع الصغير).

وروى البخاري والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من كانت عنده مظلمة لأخيه: من عرضه أو شيء منه فلْيتحلَّله منه اليوم، مِنْ قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إنْ كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإنْ لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» كذا في: (التيسير).

فيا أيها المسلم حافظ على أعمالك الحسنة أن تصير إلى غيرك في مقابل مظالم ظلمتهم بها: من أكل مالهم، أو شتم، أو غيبة، أو نميمة، أو حقد أو حسد، أو احتقار لهم، أو سخرية بهم، أو لمز لمزتهم، أو تعيير عيَّرتهم، أو تكبرت عليهم، أو استهنت بهم.

جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خطب يوماً فقال في خطبته:

«ألا وإنّ الدنيا عَرَض حاضر، يأكل منه البرُّ والفاجر، ألاَ وإنَّ

---

(١) قال العلامة المناوي في: (فيض القدير): لتؤدَّن بالبناء للمجهول، وقوله: «الحقوق» بالرفع أقيم مقام فاعله. اهـ

الآخرة أجل صادق ويقضي فيها ملك قادر، أَلا وإنّ الخير كلَّه بحذافيره في الجنة، أَلا وإنَّ الشر كلَّه بحذافيره في النار، أَلا فاعملوا وأنتم من الله على حذر، واعلموا أَنّكم معروضون على أعمالكم: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

يُخبر الله تعالى عن الكفار المنكرين للمعاد، المتصفين بالعِناد ـ أنهم يقولون على وجه الاستهزاء والاستبعاد من شدة عتوهم، وكبرهم، وتكذيبهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ـ أي: الذي تذكرونه من الحشر الذي تقدم في الآية، والقيامة، والنار والعذاب وما هنالك ـ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ذلك ـ والخطاب منهم هو للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ ولمن معه من المؤمنين(٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الوجه الأول: أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سألوه عن تعيين وقت قيام الساعة وحشر الخلائق المذكور في الآية المتقدمة وهو قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فأمر الله تعالى نبيه

---

(١) قال في: (المشكاة): رواه الشافعي رضي الله عنه، وروى نحوه أبو نعيم في: (الحلية) عن شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً، كما في: (المشكاة) و(شرح المواهب).

(٢) وجواب الشرط محذوف: أي: إن كنتم صادقين فيما تخبرون عنه من الحشر فبينوا لنا وقته، وعيِّنوا زمن وقوعه.

صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يُجيبهم على ذلك بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إن العلم بتعيين وقت قيام الساعة هذا عند الله تعالى وحده، لا يعلم ذلك غيره، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

فالعلم بتعيين وقتها المحدَّد لها هو عند الله، ومرده إليه سبحانه، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ﴾ وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ الآية، ولكنه سبحانه أخبر عن اقترابها فقال سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾.

نزلت هذه الآية الكريمة في مكة المكرمة، حين سأل المشركون رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يريهم آية تدل على صدق نبوته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإذا أراهم ذلك آمنوا به فأجابهم إلى ذلك، فمنهم مَن آمن، وكثير منهم أعرض وأنكر وجحد، وادعى أنه سحر مستمر.

جاء في: (الصحيحين) وغيرهما عن أنس رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يريَهم آية، فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حِراء بينهما ـ أي: لتباعدهما عن بعضهما ـ.

وجاء في رواية: فقال لهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اشهدوا».

وفي رواية لأصحاب السنن: انشق القمر على عهد رسول الله

صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة.

فقال رجل: انتظروا ما يأتيكم به السُفَّار ـ أي: المسافرون القادمون فإنهم كانوا يركبون بالليل ـ فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فجاء السفار فأخبروهم بذلك ـ أي: أخبرهم السفار بأنهم رأوا ذلك في تلك الليلة، وعاينوا القمر قد انشق نصفين.

وفي رواية لأبي نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن صناديد المشركين وعُتاتهم ـ وذكر أسماءهم ـ جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقالوا له: إن كنت صادقاً فشُقَّ لنا هذا القمر.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن فعلت ذلك تؤمنوا»؟

قالوا كلهم: نعم.

وكانت تلك الليلة: ليلة البدر.

فسأل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ربَّه عزّ وجلَّ أن يُعطيه ما سألوه، فصار القمر نصفين متباعِدَين، وجعل صلى الله عليه وعلى آله وسلم ينادي بهم: «اشهدوا».

وقد شاهد ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعاين ذلك جمع كبير من كفار قريش، لأنهم هم الذين سألوا ذلك، وتداعوا إلى الاجتماع؛ ليعاينوا ذلك، وأعطوا العهد على

الإيمان بذلك إذا رأوا ما اقترحوه ـ وهو انشقاق القمر ليلة البدر على مَشهد من الناس.

وقد أخبر الله تعالى عن قصة انشقاق القمر وأنها آية معجزة، تشهد بصدق رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأخبر عن موقف العُتاة والطغاة من الكفار أمام هذه المعجزة الكبرى ـ فقال سبحانه: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا۟ ﴾ ـ أي: وكذبوا بالحق لما جاءهم به صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ وقد رأوا برهانه القاطع ونوره الساطع.

﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾.

وإن في آية انشقاق القمر براهين وأدلةً لمن تفكر وتدبر واعتبر:

أولاً: إنَّ آية انشقاق القمر فيها دليل وبرهان على حقية وجود الله تعالى الواجب الوجود، وعلى عظمة قدرته سبحانه، فهذا الانشقاق الطارىء على القمر، ثم عودته إلى تمامه وما كان عليه من أكبر الأدلة المرئية على أن هناك إلَهاً حقاً ألا وهو ربُّ العالمين، الملك المتصرف في مخلوقاته، الموصوف بصفات الكمال التي لا نهاية لها من: العلم، والحكمة، والإرادة، والقدرة، إلى ما وراء ذلك.

ثانياً: في آية انشقاق القمر برهان ساطع، ودليل قاطع على أنَّ سيدنا محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أيَّده الله تعالى بانشقاق القمر، فهي معجزة له، شاهدة بصدق نبوَّته ورسالته

صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وفيها إعلان للعالم كله أنَّ بيِّنات صدق نبوته ورسالته هي ظاهرة كل الظهور، ومنها انشقاق القمر الساطع نوره على العالم، فالقمر يشهد أَنْ لا إلَه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وانشقاقه دليل وشاهد على أنَّه لا إلَه إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ قَرن سبحانه وتعالى معجزة انشقاق القمر باقتراب الساعة، وفي هذا دليل على أنَّ الساعة هي حق، وأنَّ الله تعالى قادر على إقامتها، وعلى إقامة القيامة، وتخريب العالم كلِّه، فإنَّ انشقاق القمر دليل على أنَّه ليس بقديم لا أول لوجوده، وليس بباقٍ، بل مآله إلى الفناء، بدليل انشقاقه، فحيث جرىٰ عليه الانصداع والانشقاق. فهو قابل للفناء والخراب، وهكذا جميع الكواكب: كبيرها وصغيرها، فهي مثل كوكب القمر ليست بقديمة الوجود، بل هي مخلوقة بعد العدم، وليست بباقية بل مآلها إلى التساقط والفناء، وكذا الأرض والسماء وجميع ما هنالك.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ ـ أي: انشقت ـ ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ ـ أي: تساقطت ـ ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ـ أي: فجرها الله على بعضها ـ ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ بُعث: مَنْ فيها وأثيرت ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

وفي هذا كله ردٌّ على القائلين بقدم وجود العالم أزلاً، وبقائه أبداً، بل هو مخلوق بعد العدم، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ـ أي: حفيظ ورقيب، يدير أمور مخلوقاته، ويرزقهم، ويكلأهم بالليل والنهار، ولا يخفى عليه شيء من أمورهم.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ يخبر سبحانه عن اقتراب الساعة، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةًۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ والمعنى: فهل ينتظرون بعد ذكر البينات والحجج القاطعة، الدالة على حقية قيام الساعة؛ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة وهم في غفلة عنها ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ ﴾ أي: علاماتها وأماراتها ومن ذلك انشقاق القمر، فإن ذلك من علاماتها قال تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾.

ومن ذلك بعثة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإنها من أشراط الساعة[1] كما قال الحسن البصري رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ ﴾ قال: بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أشراط الساعة.

روى الشيخان عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بإصبعيه السبابة والتي تليها[2].

---

(١) الأشراط جمع شَرَط بفتحتين وهو العلامة.
(٢) كذا في: (تيسير الوصول).

وعن المستورد بن شداد الفهري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «بُعثت في نفس الساعة، فسبقتها كما سبقت هذه لهذه» ـ مشيراً لأصبعيه السبابة والوسطى رواه الترمذي[1].

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن قِلَّة ما بقي من مُدة الدنيا بالنسبة لطول الزمان الذي مضى منها، وذلك في بعض خطبه صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوماً صلاة العصر، ثم قام خطيباً: فلم يدعْ شيئاً إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به ثم ذكر ـ أبو سعيد رضي الله عنه ـ الحديث إلى أن قال ـ أبو سعيد ـ: وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي من النهار شيء ـ فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ألا إنَّه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه» قال في: (التيسير): رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وفي هذا دليل على طول الزمان، وملايين الملايين من السنين التي مرت على الدنيا منذ خلقت، وأن الباقي منها هو كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه».

---

(١) كما في: (التيسير) وقد ترجم صاحب: (التيسير) لهذين الحديثين فقال: الفصل الخامس في قرب مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الساعة اهـ.

والمراد فيما مضى منها أي: الدنيا منذ خلقها الله تعالى لا بالنسبة لخلق آدم عليه السلام، فقد مرَّ على خلقها دهور وأزمنة طويلة لا يعلمها إلا الله تعالى..

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن أشراط الساعة، وأبان عن ذلك، وأخبر عما هو كائن بعده إلى يوم القيامة، وقد بَوَّب المحدثون في كتبهم أبواباً لأحاديث أشراط الساعة وصنف كثير من العلماء فيها كتباً.

الوجه الثاني: من الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ في هذه الآية يأمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يَردَّ العلم بتعيين وقت الساعة إلى الله تعالى، وأن يقول للناس: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وقد جاء وصفه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأنه النذير المبين ـ جاء هذا في مواضع متعددة من القرآن الكريم، يصفه الله تعالى بأنه نذير مبين.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾.

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم النذير، والإنذار هو: التخويف الشديد من شيء مخيف شديد جداً، فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم جاء ينذر الناس من عذاب الله الشديد كما قال تعالى:

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

فكان أعداؤه الكفرة يَصفونه صلى الله عليه وعلى آله وسلم تارة بأنه ساحر، وتارة بأنه مسحور، وتارة بأنه شاعر، وتارة بأنه مجنون، وهذا كله كلام باطل متناقض، يُبطل بعضه بعضاً، فساحر ومسحور لا يكونان، وشاعر ومجنون متناقضان، وقد أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يقيم عليهم حجة وبرهاناً قاطعاً؛ يقطع دابر أقوالهم الباطلة فقال سبحانه وتعالى:

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: إنما أُذكركم وآمركم بواحدة وهي: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ أي: الذي تقرُّون بأنه سبحانه هو الذي خلقكم ـ وذلك لأنهم كانوا يعلمون أن الله هو الذي خلقهم، وخلق السموات والأرض، ولكنهم يُنكرون رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويكذبونه وما جاء به من أمر الساعة وغيرها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: تصرف عقولهم.

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

ومعنى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ أي: تقوموا قيام متفكر ومتبصِّر، ومتدبِّر، خالصاً لله عز وجل، الذي لا تنكرونه، متجرِّدين عن أهوائكم، وعصبيتكم الجاهلية، وتقاليدكم العمياء.

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ فيسأل بعضكم بعضاً هل بمحمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من جنون، فينصح بعضكم بعضاً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمر محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فينظر الرجل منكم ويفكر وحده في أمر هذا

الرسول الكريم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويسأل غيره من الناس عن شأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم إن أشكل عليه، ويشترك مع غيره في التفكر والتبصر والبحث والتدبر.

فتكون النتيجة قطعاً بلا شك ولا ريب أنه ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: ولا سحر، ولا كهانة، وليس بشاعر ولا ساحر، ولا كاذب، بل هو حقاً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الصادق الأمين، باعترافكم وشهادتكم له بأنه الصادق الأمين، فإنه صاحبكم ـ أي: الذي تربَّى بينكم، ونشأ فيكم، حتى بلغ الأربعين، ولم تعثروا له على كذبة، ولا خيانة، ولا ولا، بل كلكم كنتم تقرون له بأنه الصادق الأمين، ذو العفَّة والحصانة، والصدق والأمانة، ومن ثَمَّ كنتم تتحاكمون إليه في أموركم ومهامكم[1]، فلما بلغ الأربعين سَنة، وأرسله الله تعالى: صرتم تكذبونه، وتجحدون بما جاءكم به من آيات الله تعالى؛ وأنتم تعلمون أنه الصادق الأمين، ولذلك قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ ـ من الأكاذيب، وقولهم: إنك ساحر أو شاعر وغير ذلك ـ ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ والجحود هو: الإنكار بعد العلم بحقية الشيء وصدقه، فهم يعلمون أنَّ ما جاء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو من عند الله، وأنه رسول الله، ولكنهم يجحدون وينكرون ولا يعترفون، ولا يقرون بذلك، وينسبونه

---

(١) وقد ذكرت عدة من الشواهد على ذلك في كتاب: (شمائله الحميدة صلى الله عليه وآله وسلم) فارجع إليه.

للكذب: كبراً وعناداً، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

ونظير ذلك قوله تعالى في قوم فرعون: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

في هذه الآية إفحام للمنكرين، وإلزام لهم بالاعتراف والإقرار بأن سيدنا محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حقاً، وأن كل من تفكَّر وتبصَّر وعقل وتدبَّر يشهد أنَّ سيدنا محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قطعاً، لا يمكن أنْ يكون ما جاء به من باب السحر، ولا من باب الشِّعر، ولا من باب الفطانة، ولا الحصافة، ولا من باب العبقرية، فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليس بساحر ولا شاعر، ولا عبقري كعباقرة الرجال، وإنما هو نبي الله تعالى، ورسوله للعالمين، ختم الله تعالى به النبوات والرسالات، وربَّاه الله تعالى منذ صغره بعنايته، ورعاه برعايته، وتولاَّه بتوليته سبحانه، وآواه بإيوائه:

قال تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا[1] فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

---

(١) ليس بذلك ضلال المعصية، فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما قال = الله تعالى فيه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ أي: بل هو على الهدى =

وقال الله تعالى له: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾.

وقال الله تعالى لحبيبه الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم محفوف بالعناية الإلٰهية، والرعاية الربانية، على مرتبة خصه الله تعالى بها لم ينلها غيره، ولذلك خاطبه بالخصوص فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ الآيات.

وقال له: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ الآية.

وقال له: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ كل ذلك بخطاب خاص.

وإن كلَّ عاقل إذا فكَّر في أمور سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وصفاته وقضاياه، وفي خَلْقه وخُلُقه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وفيما وراء ذلك؛ يشهد حقاً أنه رسول الله حقاً صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقيناً، بلا شك ولا ريب.

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: وكانوا يقولون: هو صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما وصفه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه:

أميـن مصطفـى للخيـر يـدعـو   كضـوء البـدر زايلـه الظـلام

وروى الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كأنَّ

والرشاد، وقد بينت ذلك مفصلاً في كتاب: (شمائله الحميدة صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فارجع إليه.

الشمس تجري في وجهه) صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وروى الترمذي، والبيهقي عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: قلت للرُبيِّع بنت معوذ رضي الله عنها: صفي لنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فقالت: (يا بني: لو رأيته لرأيتَ الشمس طالعة) صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وفي ذلك يقول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

لو لم تكن فيه آيات مبيِّنة كانت بديهته تأتيك بالخبر

أي: بأنه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قال العلامة الشيخ محمد بن قاسم جَسُّوس رحمه الله تعالى في: (شرحه على الشمائل الشريفة) للإمام الترمذي قال: وما أحسن قول حسَّان رضي الله عنه في وصفه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، لما قدم على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ورجع إلى قومه ـ أي: وكانوا من المشركين، فقالوا له: صف لنا ما رأيت ـ، وبذلوا له مالاً على أن يهجو النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، بما يناسب بُغضهم فيه.

فقال رضي الله عنه:

لما نظرتُ إلى أنواره سطعتْ وضعتُ من خيفتي كفِّي على بصري
خوفاً على بصري من حسن صورته فلستُ أنظره إلاَّ على قدر
الأنوار[1] من نوره في نوره غَرقت والوجه مثل طلوع الشمس والقمر

---

(١) بدرج الهمزة للوزن.

روح من النور في جسم من القمر   كَحلَّة نُسجتْ في الأنجم الزهر

فقالوا: ما هذا؟

فقال: هذا الذي رأيتُ، وعارٌ على الرجل أن يصف الكذب. اهـ أي: عار على الرجل أن يصف وصفاً كذباً مخالفاً للواقع.

ويرحم الله تعالى القائل في مدحه صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

بَهَرت بالحسن أهل الحسن فانبهروا   حتى كأنهمُ في الحيِّ ما ظهروا

وصرتَ قطب جمال فاستمَدَّ سَنا   من وجهك النيران الشمسُ والقمر

صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً، وعلينا معهم أجمعين، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم.

الوجه الثالث: في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الإنذار هو: التخويف والتحذير من أمر خطير مخيف، ولا ريب أن أعظم المخاوف والمتالف والمهالك ـ هو عذاب الله تعالى، فإنه شديد كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

وقد تقدم في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» لبطون قريش حتى اجتمعوا.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أنَّ

خيلاً بالوادي ـ أي: جانب الصفا ـ تريد أن تُغير عليكم ـ أي: تباغتكم بالهجوم عليكم ـ أكنتمُ مُصدقيَّ»؟

قالوا ـ أي: كلهم ـ: نعم ما جرَّبنا عليك إلاّ صدقاً.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» الحديث رواه الشيخان والترمذي.

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم النذير المبين، الذي بَيَّن كل شيء فيه خير للعباد، وحذَّر من كل شر، وما من شيء يُقربهم من عذاب الله تعالى إلاّ بينه؛ وحذَّر منه، وما من شيء يقربهم إلى الجنة وما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة إلا بيّنه لهم؛ وحثهم عليه، وهداهم إليه، وأمرهم بالتمسك، ونصح، ووعظ، وذكَّر، وأنذر.

جاء في الحديث عن جابر رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه، كأنَّه مُنذر جيش يقول: صَبَّحكم وَمَسَّاكم).

ويقول: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين» ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: «أمَّا بعد: فإن خير الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هديُ محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

ثم يقول: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ـ أي: وبكل مؤمنة كما جاء في حديث آخر ـ من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك دَيناً ـ أي:

مات وعليه دين عجز عن وفائه ـ أو ضَياعاً ـ أي: أطفالاً وعيالاً فقراء ـ فإليَّ وعليَّ»[1].

أي: فهو يقوم بذلك كله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويتكفل بذلك كله، لأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو أَولى بالمؤمنين من أنفسهم كما وصفه الله تعالى بذلك، أرأف بهم، وأرحم بهم، وأبرُّ بهم من أنفسهم، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ﴾ الآية.

وكان يعلن ذلك في مواقف متعددة صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ما من مؤمن إلاّ وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ـ اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ الآية ـ فأيُّما مؤمن ترك مالاً فلترثه عصبته مَن كانوا، وإن ترك دَيناً أو ضَياعاً فليأتني فأنا مولاه» كذا في: (التيسير).

ولذلك يجب عليهم أن يكون صلى الله عليه وعلى آله وسلم أحبَّ إليهم من أنفسم، وقد ذكرت الأدلة على وجوب ذلك في مواضع من كتبي فارجع إلى أبحاث المحبة.

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم النذير المُبيِّنُ لكل شيء، وقد بين ما يقرب من الجنة، وما يقرب من عذاب النار:

روى الحاكم وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه مسلم، وابن ماجه وغيرهما. اهـ

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ليس من عمل يقرِّب من الجنة إلاّ وقد أمرتكم به، ولا عمل يقرِّب من النار، إلاّ وقد نهيتكم عنه، فلا يستبطئنَّ أحدكم رزقه، فإن جبريل ألقى في رُوعي[1] أنَّ أحداً منكم لا يَخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، فاتقوا الله أيها الناس وأجملوا في الطلب، فإن استبْطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله تعالى» ـ أي: بأن يتعاطى أسباباً محرمة لجلب الرزق ـ.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فإن الله تعالى لا يُنال فضله بمعصيته».

وفي رواية البزار: «ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية، فإن الله لا ينال ما عنده ـ أي: من الرزق الحلال ـ إلا بطاعته».

وفي الحديث: «إنه لا يَرْبُو ـ أي: ينمو ـ لحم نبت من سُحت ـ أي: حرام ـ إلا كانت النار أولى به».

فلا يجوز سلوك الطرق المحرمة لكسب الرزق، فإن الجسم الذي يتغذى بالحرام النار أولى به.

روى ابن ماجه واللفظ له، والحاكم عن جابر رضي الله عنه

---

(١) هذا نوع من الوحي وهو الإلقاء في رُوعه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو بضم الراء، قال في: (النهاية): نفث في روعي أي: في نفسي وفي خَلَدي. اهـ والخَلَد: القلب، وقال في: (الدر المنثور): يقال وقع ذلك في خلدي أي: روعي وقلبي كذا في الصحاح. اهـ فالمراد بالروع في الحديث القلب.

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا أيها الناس: اتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها؛ وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خُذوا ما حَلَّ ودعوا ـ أي: اتركوا ـ ما حَرُم».

فعلى المسلم أن يسعى في أسباب الرزق من طريق حلال، ويتباعد عن مسالك جمع المال الحرام وأكل أموال الناس بغير حق، فإن الله تعالى هو المحاسب لعباده والمجازي لهم.

روى الإمام أحمد بإسناد حسن، عن عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «يُحشر العباد يوم القيامة ـ أو قال يَحشر الله الناس يوم القيامة ـ عُراة غُرلاً بُهماً».

قال: قلنا: وما بُهماً؟

قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه مَنْ بَعُد كما يسمعه من قرب، أنا الدَّيان ـ أي: المحاسب ـ أنا الملك، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق؛ حتى أقصَّه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق؛ حتى أقصَّه منه ـ أي: أقتص منه ـ حتى اللطمة».

قال: قلنا: كيف؟ وإننا نأتي عُراة غرلاً بُهما ـ أي: ليس معنا شيء ـ.

قال: «بالحسنات والسيئات».

ومعنى غرلاً: أي غير مختونين، فتحشر جميع أجزاء الجسم.

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

فقد بين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم جميع ما فيه صلاح أمور الدنيا والآخرة، وجميع ما فيه السعادة والفلاح لجميع العالم، وأنذر وحذَّر مما يعود عليهم بالشر والفساد إلى يوم القيامة؛ على مختلف الأجيال، ومرِّ العصور، ولذلك بيَّن وأخبر عمَّا هو كائن إلى يوم القيامة.

روى مسلم عن عَمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال: (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوماً الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلَّى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس ـ فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة، فأعلمُنا أحفظنا).

فانظر أيها العاقل ما أعظم هذا الفتح الذي فتحه الله تعالى على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وما أكثر هذه العلوم التي علمه الله تعالى إياها، وما أعظم هذا المدد الإلٓهي الذي أمدَّه الله تعالى به، فقام يوماً كاملاً يخطب ما يقف عن خِطابه إلا لصلاة الظهر، ثم العصر، وانظر في هذا الإكرام الذي أكرم الله تعالى به أصحابه تكريماً له صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فأقاموا طيلة اليوم في مواضعهم في المسجد، وهم يُصغون إليه، ويأخذون عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، لم يصبهم جوع ولا عطش ولا ما وراء ذلك.

وهذا من جملة أعلام نبوته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبينات رسالته، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه أخبر عما هو كائن إلى يوم الدين.

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمته بالتمسك بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

فعن الإمام مالك رحمه الله: أنه بلغه أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم» كما في: (الموطأ).

وفي هذا دليل على ملازمة السنة للكتاب، ولا يجوز فصل السنة عن الكتاب؛ لأنها بيان له، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أن نجمع هذا القرآن في صدرك، ونقرئك إياه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ - أي: علينا أن نبينه لك، ثم أنت يا رسول تبين للناس ما نُزِّل إليهم.

فقد بين الله تعالى القرآن العظيم لرسوله الكريم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأمره أن يبين ذلك للناس، وهذا البيان ملازم للقرآن.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي السنة النبوية - فهما متلازمان.

وفي قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «تركت فيكم أمرين»

دليل على حفظ الكتاب والسنة أيضاً، وبقائهما إلى يوم الدين لأنهما الحجة على العالمين، فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، فرسالته باقية إلى يوم الدين.

ويرحم الله تعالى القائل في مدحه صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً:

إنّ قلباً أنتَ ساكنه ... غير محتاج إلى السرج
ومريضاً أنتَ عائده ... قد أتاه الله بالفرج
وَجْهك المأمول حجتنا ... يوم يأتي الناس بالحجج
شَرعك الوضَّاء منهجنا ... خير منهاج لمنتهج

صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعلينا معهم أجمعين: آمين.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾.

يخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن حال الكفار بعدما يحشرهم الله تعالى، ويُساقون إلى عذاب جهنم، ويرون العذاب الذي كانوا في الدنيا يستعجلون به: استهزاء وسخرية، فهنالك تَسودُّ وجوههم، وتغشاهم الكآبة والذلَّة، والفزع الشديد.

وهذا معنى قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿ زُلْفَةً ﴾ أي: قريباً منهم ﴿ سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي: اسودَّت، وعلتها الكآبة، وغشيتها الظلمة، وإنما جيء بصيغة الفعل الماضي في قوله تعالى فلما: ﴿ رَأَوْهُ ﴾ وقوله: ﴿ سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ جيء بصيغة الماضي مع أنه سيأتي عليهم، وذلك لتحقق وقوعه لا محالة، وتأكده كما

قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ ولتصوير الحالة التي سيصيرون إليها، فكأنهم عاينوا ذلك وشاهدوه، فهل من مدّكر بعد ذلك، أو معتبر، أو متبصِّر، أو مفكر قبل أن يقع ذلك؟

﴿وَقِيلَ﴾ أي: توبيخاً لهم وتقريعاً ﴿هَٰذَا﴾ الذي تشاهدونه وترونه هو العذاب ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: كنتم في الدنيا تطلبونه، وتستعجلون به: استهزاء وسخرية، والمعنى: أنكم به تدَّعون أنه: لا بعث، ولا حشر، ولا عذاب، ولا جنة ولا نار[1].

وقوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية في هذا وصف وجوه الكفار يوم القيامة، كما قال تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وقال تعالى في الكفار أيضاً: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ[2] ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾.

قوله تعالى:

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

كان الكفار يودُّون ويتمنون هلاك رسول الله صلى الله عليه

---

(١) فالمعنى الأول مبني على تدَّعون من الدعاء على وَزن تفتعلون، والباء صلة الفعل، وعلى المعنى الثاني: هو من الدَّعوى أي: تَدَّعون أنَّه لا بعث ولا حشر ولا عذاب: انظر (روح المعاني) وغيره.

(٢) أي: يعلوها سواد، وما أقبح الغبار والسواد إذا اجتمعا ـ نعوذ بالله العظيم من ذلك كله.

وعلى آله وسلم ومن معه، **إما بموتهم**: قال تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ أي: مات، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ أي: مات، **وإما بالتغلب عليهم** وتمكنهم منهم ليقضوا عليهم، فأنزل الله تعالى رداً عليهم، وجواباً على هذا المحال الذي يتمنونه؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ أي: على فرض وقوع المُحَال الذي تتمنونه وهو تغلبكم علينا، وتمكنكم منا فيميتنا الله تعالى، فالمراد بالهلاك هنا الموت.

﴿أَوۡ رَحِمَنَا﴾ بالنصر عليكم، والتمكن منكم، ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ والمعنى: أنّه لا مجير لكم من عذاب النار، لأنكم كفار، وقد حقَّت كلمة العذاب على الكافرين، فما ينفعكم ولا يجيركم من عذاب الله تعالى إلا الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن الله تعالى أَوجب وحتَّم العذاب على الكافرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

والمعنى فآمنوا هو خير لكم، ودَعُوا الأمانيَّ الكاذبة، فإن الله تعالى هو حافظ لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعاصمه، ومؤيِّده، وناصر له، وللمؤمنين لا محالة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

فيوم القيامة هو يوم يقوم الأشهاد ـ جمع شهيد بمعنى: شاهد، وقيل: جمع شاهد ـ وهذا يدل على أنَّ الشهداء الذين يشهدون على

العباد يوم القيامة هم أصناف متعددة، فهناك شهادة الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، وشهادة الملائكة عليهم السلام، وشهادة الجوارح، وشهادة العباد بعضهم على بعض، وشهادة الأرض، وما عليها من: مدر وحجر وشجر؛ وكلٌّ من هؤلاء يُؤدي شهادته في الوقت المناسب يوم القيامة، كما فصَّلتُ ذلك في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها)، فهناك تجد التفصيل مع الأدلة من الكتاب والسنة.

وإذا علمتَ أيها العاقل أن عليك شهداء سوف يؤدون شهادتهم عليك، فأصلح أعمالك، وسدِّد أقوالك، وحسِّن أخلاقك، وأدِّ حقوق الله تعالى التي أوجبها عليك، وحقوق خلقه سبحانه، من قبل أن يأتي عليك ذلك اليوم: يوم يقوم الأشهاد ـ الذي تُحقُّ فيه الحقائق، وتظهر فيه الدقائق ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ أي: يوم القيامة، تُبلى السرائر فيه ـ أي: تظهر وتبدو، ويصير السرُّ علانية، والمكنون مشهوراً ومشهوداً.

روى الترمذي وصححه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها»؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هو أن تشهد على كل عبدٍ وأَمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمِل يوم كذا وكذا ـ كذا وكذا، فهذه أخبارها»[1].

---

(١) كذا في: (تيسير الوصول).

وجاء في الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أوصني.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «عليك بتقوى الله تعالى ما استطعتَ، واذكر الله تعالى عند كل حجر وشجر ـ أي: حتى يشهد لك ـ وما عملتَ من سوء فأحدِث له توبة: السرُّ بالسرِّ، والعلانية بالعلانية»(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ﴾ ـ أي: يخفى ـ. ﴿عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الوجه الأول: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: هو الله ربنا الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، كما قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فعمَّ برحمته خلقه من الملأ الأعلى والأدنى، والإنس والجن، والحيوان والطير، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ وعمَّت المؤمنين والكفار، فهو سبحانه الرحمن، يمدُّ الكلَّ بالإيجاد والإمداد، والهواء والماء والغذاء، ويعطيهم جميع ما يتطلَّبه

---

(١) رواه الطبراني بإسناد حسن كما في: (الترغيب).

وجودهم، وحياتهم، وبقاؤهم، فآثار اسم الرحمن ظاهرة في جميع الأكوان، وهي مشهودة بالعيان، قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

فحق محتَّم على جميع عباده أن يُؤمنوا به ويعبدوه وحده، فإنه لا شريك له قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ﴾.

وقد ردَّ الله تعالى على الكفار والمنكرين لوجود الله، ووحدانيته، ووبَّخهم فقال: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ ـ أي: الذي أشهدهم رحمته في ذاتهم وذرَّاتهم وذرياتهم، وفي ليلهم ونهارهم، ونومهم، وجميع أحوالهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: فكيف تكفرون به وتجحدون نعمه.

ولذلك ردَّ الله تعالى عليهم فقال: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أي: وهذا أمر عجيب، فأين عقولهم يصرفونها، يكفرون بالرحمن وهم على مشهد لرحمته المحيطة بهم، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: وهذا هو الحق المبين الذي يشهد به العيان والبرهان، وماذا بعد الحق إلاَّ الضلال.

فالله تعالى هو الرحمن، عَمَّتْ رحمته جميع العوالم وسائر الأكوان.

---

(١) وقد فصلت الكلام على اسم الرحمن في كتاب: (حول تفسير سورة الفاتحة) فارجع إليه.

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لما قضى الله الخلق» وعند مسلم: «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» رواه الشيخان والترمذي.

وعند البخاري رحمه الله في رواية أخرى: «إن رحمتي غلبت غضبي».

وعند الشيخين في رواية أخرى: «سبقت غضبي» كذا في: (تيسير الوصول).

ومن أعظم الأسباب التي تستنزل رحمة رب الأرباب ـ رحمة العباد بعضهم لبعض:

جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شُجْنَةٌ من الرحمن: من وصلها وصله الله تعالى، ومن قطعها قطعه الله تعالى» رواه أبو داود والترمذي واللفظ كما في: (التيسير).

وروى الشيخان عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «الرحم متعلِّقة بالعرش تقول: مَن وصلني وصله الله تعالى، ومَن قطعني قطعه الله تعالى» كذا في: (الترغيب).

فصلة الرحم واجبة، وفي وصلها خير كبير، وفي قطعها شر كبير، كما يدل على ذلك الأحاديث التالية:

روى الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم ـ أي: القرابة الرحمية ـ فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة.

قال سبحانه: نعم ـ أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟

قالت ـ الرحم ـ: بلى.

قال: فذاك لكِ».

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾» كذا في: (الترهيب) للمنذري.

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «الرحم حَجَنَة متمسِّكة بالعرش، تَكَلَّم ـ أي: تتكلَّم ـ بلسان ذلق: اللهم صِلْ من وصلني، واقطع من قطعني.

فيقول الله تبارك وتعالى: أنا الرحمن الرحيم، وإني شققت للرحم من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن بتكها بتكتُه».

قال الحافظ المنذري: رواه البزار بإسناد حسن.

قال: والحَجَنَة بفتح المهملة والجيم وتخفيف النون هي: صنارة المغزل، وهي الحديدة العقفاء التي يُعلق بها الخيط ثم يفتل الغزل، وقوله: «من بتكها بتكته» أي: من قطعها قطعته. اهـ

وأفضل أنواع صلة الرحم أن تصل مَنْ قطعك:

روى البخاري وغيره، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما،

عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها».

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فأخذت بيده صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا عقبة: صِلْ من قطعك، وأَعطِ مَن حرمك، وأعرض عَمَّن ظلمك».

وفي رواية: «واعف عمن ظلمك» قال في: (الترغيب): رواه أحمد، والحاكم، وزاد ـ أي: في روايته للحديث عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«ألا ومن أراد أن يُمدَّ في عمره، ويُبسط في رزقه: فليصل رحمه».

وروى ابن ماجه، عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أسرعُ الخير ثواباً: البِرُّ، وصلة الرحم، وأسرع الشر عقوبةً: البغي ـ أي: الظلم ـ وقطيعة الرحم».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «إن أعمال بني آدم تُعرض كل خميس ليلة الجمعة، فلا يُقبل عمل قاطع رحم».

قال الحافظ المنذري: رواه أحمد ورواته ثقات.

فانظر يا أخي المسلم ويا أختي المسلمة في هذا الثواب العظيم، المرتب على صلة الرحم، وإن الله تعالى هو سبحانه يصل

من وصل رحمه، وانظر في هذا العقاب الجسيم المرتب على قطيعة الرحم، وإن الله تعالى هو يقطع من قطع رحمه، فبادر إلى صلة أرحامك ولو قطعوك.

وقد ذكرتُ في أول كتابي هذا جانباً من فضائل صلة الرحم وثوابها؛ وقد ذُكر بعض ما تقدم للتذكير والتأكيد.

روى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «من أحب أن يُبسَط له في رزقه، وأن يُنسأ[1] له في أثره فليصل رحمه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «من سرَّه أن يُبسط له في رزقه، وأن يُنسأ له في أَثرِه فليصل رحمه».

قال الحافظ المنذري: رواه البخاري والترمذي ولفظه:

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «تعلَّموا مِنْ أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإنَّ صلة الرحم: محبة في الأهل، مثراة ـ أي: مكثرة ـ في المال، منسأة في الأثَر».

وقال الترمذي: حديث غريب، ومعنى: منسأة في الأثر يعني به الزيادة في العمر ـ انتهى كلام الترمذي.

قال المنذري: ورواه الطبراني من حديث العلاء بن خارجة

---

(١) قال العلامة المناوي: هو بضم فسكون ثم همزة أي: يؤخر ومنه النسيئة «في أثره» محركاً أي: في بقية عمره: سمي أثراً لأنه يتبع العمر. اهـ وضبطه الحافظ المنذري: بضم الياء، وتشديد السين المهملة مهموزاً أي: يؤخر له في أجله اهـ.

كلفظ الترمذي بإسناد لا بأس به. اهـ

وعن أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «من سرَّه أن يُمَدَّ له في عمره، ويوسَّع له في رزقه، ويُدفع عنه مِيتة السوء: فليتق الله، وليصلْ رحمه».

قال في: (الترغيب): رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في: (زوائده)، والبزار بإسناد جيد، والحاكم. اهـ

وروى أبو يعلى بإسناده: عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم سمعه يقول: «إنَّ الصدقة وصلة الرحم يزيد الله تعالى بهما العمر، ويدفع بهما ميتة السوء، ويدفع بهما المكروه والمحذور» كذا في: (الترغيب).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: (أوصاني خليلي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بخصال من الخير:

أوصاني: أن لا أنظر إلى من هو فوقي ـ أي: في المال ـ وأن أنظر إلى من هو دوني، **وأوصاني**: بحب المساكين، والدنوِّ منهم، **وأوصاني**: أن أصل رحمي، وإن أدْبَرتْ ـ وإن قطعه أرحامه ـ **وأوصاني**: أن لا أخاف في الله تعالى لومة لائم، **وأوصاني**: أن أقول الحق وإن كان مُرَّاً، **وأوصاني**: أن أُكثر من: لا حول ولا قوة إلا بالله: فإنها كنز من كنوز الجنة).

قال في: (الترغيب): رواه الطبراني، وابن حبان في: (صحيحه) واللفظ له.

وروى الترمذي وصححه، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه

قال: أوَّل ما قدم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم المدينة انجفل الناس إليه ـ أي: أسرعوا إليه ـ فكنت فيمن جاءه، فلما تأمّلتُ وجهه واستبنته ـ أي: تحققته وتبينته ـ عَرفت أنَّ وجهه ليس بوجه كذاب ـ أي: بل هو وجه إمام المرسلين وخاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قال عبد الله بن سلام: فكان أول ما سمعتُ من كلامه أن قال: «أيها الناس: أفشُوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام[1]، وصَلُّوا بالليل والناس نيام: تدخلوا الجنة بسلام».

ويرحم الله تعالى القائل:

فيا أيها الحيران في ظلمة الدُّجى ... ومنَ خاف أن يلقاه بغي من العِدا

تعالَ إليه تَلق من نور وجهه ... دليلاً ومِنْ كفَّيه بحراً من الندى

صلى الله تعالى عليه وآله وسلم

ويرحم الله تعالى القائل:

إلى بابك العالي مددتُ يد الرجا ... ومن جاء ذاك الباب لا يختشي الردَى

سألتكَ يا ألله مستشفعاً بمن ضيا ... وجهه الوضاء يبرق في الدجا

فهب لِيَ رضواناً وحَسِّن عواقبي ... فأنت كريم لا تردُّ من التجا

وصلِّ إلّهي كل آنٍ ولمحةٍ ... على خير رُسْل الله هدْياً ومنهجا

صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وعلينا معهم أجمعين

---

(١) قال العلامة المناوي رحمه الله تعالى: وصلة الرحم تختلف باختلاف حال الواصل، فتارة تكون: بالإحسان إلى الرحم ومساعدته بالمال أو بالجاه، وتارة تكون: بالسلام والزيارة ونحو ذلك. اهـ

وإذا كان الإنسان غنياً ورحمه فقير فيجب عليه أن يُواصله بالمال، ولا يكفي السلام أو الزيارة.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: فهو حسبنا وكافينا وناصرنا، فإنه سبحانه الرحمن الذي هو أرحم بعباده من أنفسهم، فحق عليهم أن يتوكلوا عليه، ويكلوا أمورهم إليه.

وقد أعلن سبحانه كفايته وكفالته لمن تَوكَّل عليه، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾.

والتوكل على الله تعالى هو أن تَكِلَ الأُمور إلى الله تعالى، معتمداً عليه، ومع ذلك تتعاطى الأسباب الشرعية التي أباحها الله تعالى مستعيناً به، ولا منافاة بين التوكل على الله تعالى وتعاطي الأسباب المباحة شرعاً.

فإن الله تعالى أمر المؤمنين بالتوكل عليه فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ومع ذلك أمرهم بتعاطي الأسباب المستطاعة فقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أي: اسعوا في أسباب الرزق ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: فإن الله تعالى هو الرزاق الذي يرزقكم، ولستم أنتم برازقي أنفسكم.

وقد جاء في الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لو أنكم تتوكلون على الله تعالى حقَّ توكله: لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصاً

ـ أي: جياعاً ـ وتروح بطاناً»[1] ـ أي: ترجع وقد شبعت وامتلأت بطونها، فأثبت التوكل لها، وأثبت لها السعي والعمل وهو الغدوُّ لرزقها.

وروى ابن حبان في: (صحيحه) عن عمرو بن أمية الضمري قال: قال رجل للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أُرسل ناقتي وأتوكل ـ أي: أتركها مطلقة بلا قيد وأتوكل على الله تعالى.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اعقلها وتوكَّل» أي: شد ركبة ناقتك مع ذراعها بحبل وتوكَّل.

ذكر ذلك العلامة المناوي في: (شرحه) وقال: إسناده صحيح.

وقال الزين العراقي رواه ابن خزيمة، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد بلفظ: «قيِّدها وتوكَّل» اهـ.

فالتوكل على الله تعالى لا يُنافي تعاطي الأسباب، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ الآية.

هذا وإن إمام المتوكلين على الله تعالى، وأقواهم وأكملهم توكلاً على الله تعالى ـ هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الذي قال الله تعالى له: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

وقال له: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾.

وقد سمَّاه الله تعالى المتوكل لقوة توكله، وأكملية توكله على

---

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، ورواه الإمام أحمد وغيره.

الله تعالى في جميع أموره صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعلينا أجمعين.

روى الإمام البخاري في صحيحه، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في التوراة فقال: أَجَلْ، إنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن:

«يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين[1]، أنتَ عبدي ورسولي، سمَّيتكَ المتوكِّل، ليس بفظٍ ولا غليظ، ولا صخَّاب[2] بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يَقبضه الله تعالى حتى يقيم المِلَّة العوجاء[3] بأن يقولوا: لا إلَه إلا الله، ويفتح به: أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً».

أي: قلوباً مغلقة ومظلمة، فيفتحها بنور الإيمان الذي جاء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

فسمَّاه الله تعالى المتوكل صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لقوة توكله على الله تعالى في جميع أموره، وفي جميع مواقفه مع أعدائه

---

(١) المراد هنا بالأميين ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هذا عند المحققين.

(٢) الصَخب والسخب: الصياح واضطراب الأصوات للخصام.

(٣) أي: المشركة والكافرة.

الذين يؤذونه ويعارضونه، كما قال سبحانه له: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

وكما قال الله تعالى له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

وكما قال سبحانه: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾.

وقال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)﴾.

فقد وصفه الله تعالى في التوراة ببعض صفته في القرآن الكريم كما تقدم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وقال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)﴾.

وفي هذه الآية الكريمة وأمثالها يخاطب الله تعالى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بوصف النبوة ـ تكريماً له صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومشيراً إلى رفعة قدره بأنه خاتم النبيين، وصاحب النبوة الجامعة، كما أنه أول من نبَّأه الله تعالى، فهو فاتح النبوة وخاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا ـ أي: أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: يا رسول الله: متى وَجَبَتْ لك النبوة؟

قال: «وآدم بين الروح والجسد» قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح، قال: وفي الباب عن ميسرة الفجر. اهـ

وأخرج الإمام أحمد في: (مسنده) عن ميسرة الفجر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله متى كنت نبياً؟

قال: «وآدم بين الروح والجسد».

وأخرجه الإمام أحمد من وجه آخر بلفظ: متى جُعلتَ نبيًّاً؟

قال: «وآدم بين الروح والجسد».

ورواه البخاري في: (تاريخه الكبير)، ورواه أبو نعيم في: (الحلية)، ورواه البغوي، وابن السنكن، والحاكم وصححه وأقرَّه الذهبي، وقال في: (الإصابة): سنده قويٌّ اهـ كما في: (شرح المواهب) وغيره.

وروى الإمام أحمد، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «إنِّي عند الله تعالى لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته».

وروى أبو نعيم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله: متى جعلتَ نبياً؟

قال: «وآدم بين الروح والجسد» كذا في: (المواهب وشرحها).

فهذه الأحاديث دليل علي أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: نبأه الله تعالى قبل جميع الأنبياء في عالم الأرواح، كما أنَّه صلى الله

عليه وعلى آله وسلم ختم الله به النبيين، فلا نبي ولا رسول بعده في عالم الأشباح.

قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي: أرسلناك رسالة عامة إلى جميع العالمين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ الآية ـ أي: وأنذر كل مَنْ بلغه هذا القرآن إلى يوم الدين.

وقد بَيَّنَ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما خصه الله تعالى من عموم رسالته، وخصوص رسالات مَنْ قبله.

روى الشيخان وأصحاب السنن عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أُعطيت خمساً لم يُعطهنَّ أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود(١)، وأُحلَّت لي الغنائم؛ ولم تحلَّ لأحد قبلي،

---

(١) قال ابن الأثير في: (جامع الأصول): أراد بالأحمر والأسود: جميع العالم، فالأسود معروف وهم: الحبوش والزنوج وغيرهم، والأحمر =

وجُعلت لي الأرض طيبةً وطهوراً ومسجداً؛ فأيُّما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرتُ بالرعب على العدوِّ بين يدي مسيرة شهر، وأُعطيت الشفاعة».

وفي رواية لمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «فُضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ: أُعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأُحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة، وختم بي النبيُّون».

ويدخل في عموم الخلق عالم الجن.

قال الحافظ في: (الفتح): وثبت التصريح بذلك في حديث: «وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الإنس والجن» فيما أخرجه البزار. اهـ

وقد ذكرت الحديث بتمامه في كتاب: (الشهادتين) وفصلت الكلام على بعثته إلى الجن، كما فصلت الكلام على ذلك في كتاب: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) وفيه: بحث حول عالم الجن، وكيف بلَّغهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الدعوة.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي: شاهداً لأمته المتبعين له صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالعدالة والتزكية، حتى تُقبل شهادتهم على الأمم قبلهم بأن رُسلهم قد بلَّغتهم رسالات

= هو الأبيض، والعرب تسمي الأبيض أحمر. اهـ يعني أحياناً عند مقابلته بالأسود.

ربهم، وقد بين الله تعالى موقف شهادته صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأمته المتبعين له فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ـ أي: خياراً عدولاً ـ ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ الآية.

روى البخاري، وأصحاب السنن، والإمام أحمد واللفظ له: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يُدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلّغت؟

فيقول: نعم.

فيُدعىٰ قومه فيقال لهم: هل بلّغكم؟

فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد.

فيقال لنوح: مَنْ يشهد لك ـ أي: بأنك قد بلّغتَ ـ.

فيقول: محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأمته».

قال: «فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ـ قال: والوسط العدل ـ فتدعون فتشهدون له ـ أي: لنوح ـ بالبلاغ ثم أشهد عليكم» أي: أشهد عليكم بالعدالة، وأُزكيكم.

وعدِّيَتِ الشهادة بعلى لأنها متضمنة معنى الحكم.

وهكذا تشهد هذه الأمة المحمدية المتبعة له صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ تشهد لجميع الرسل أنهم قد بلّغوا رسالات ربهم، وأدّوا واجبهم على أكمل الوجوه، ونصحوا أُممهم، وذلك حين تُنكر الأُمم الكافرة تبليغ رسلهم.

قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ولا شك أن الله تعالى هو يَعلم أنَّ الرسل قد بلَّغوا رسالات الله تعالى على أكمل الوجوه، ولكن في هذا السؤال والإتيان بالجواب ـ إقامة الحجة على المنكرين، والمكذبين للمرسلين، وإعلان للملأ الكبير ولجميع العالمين أنه لا عذر لمعتذر، ولا حجة لمنكر، لأن الرسالات بلغتها الرسل، وأقامت الحجج والبراهين على حقيتها وصدقها.

ومن ثمَّ لما خطب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم حجة الوداع ـ في ذلك الجمع العظيم، والحفل الكبير، نبَّه الناس فقال: «يا أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون»؟

فقالوا كلهم: نشهد يا رسول الله: أنك قد بلَّغتَ، وأدَّيت ونصحتَ.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اللهم اشهد، اللهم اشهد» ورفع أصبعه إلى السماء، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

هذا وإنّ موقف شهادة هذه الأمة المحمدية المتبعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على الأُمم قبلها، وشهادته عليها بالعدالة والتزكية ـ حقاً إنّ هذا الموقفَ كريم شريف، ومنصب عالٍ منيف ـ جعلنا الله تعالى منهم، ولذلك يقفون في مكان عالٍ مشرف على جميع الخلائق.

كما روى ابن مَرْدويه، وابن أبي حاتم، عن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «أنا وأمتي يوم القيامة على كَومٍ مشرفين على الخلائق، وما مِنَ الناس أحدٌ إلاَّ

وَدَّ ـ أي: أحبَّ ـ أنه منا، وما مِن نبي كذبه قومه إلاَّ ونحن نشهد أنه قد بلَّغ رسالة ربه عز وجلَّ».

ولما كان هذا المنصب شريفاً منيفاً، كان حقيقاً أن يُدعى به، ويُسأل من الله تعالى نيله.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية الكريمة: أي: فاكتبنا مع سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأمته، وهم الشاهدون الذين يشهدون لنبيِّهم أنه قد بلَّغ، ويشهدون للرسل أنهم قد بلَّغوا[1].

وقد استندتْ شهادة هذه الأمة المتبعة على أخبار رسولها صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن ربه عز وجل، الذي: أنزل عليه القرآن الكريم، وأخبره فيه أنَّ نوحاً عليه السلام وسائر الرسل قد بلَّغوا رسالات ربهم، وهذا الخبر أقوى في الإيمان من رؤية العيان.

كما بَيَّنه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، والبيهقي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يجيء النبي ـ أي: من الأنبياء السابقين ـ ومعه الرجلان؛ وأكثر من ذلك، فيُدعى قومه فيقال لهم: هل بلَّغكم هذا؟ ـ أي: نبيكم ـ

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: رواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصحح إسناده. اهـ

فيقولون: لا، فيقال له: هل بَلَّغْتَ قومك؟ فيقول: نعم.

فيقال له: مَنْ يشهد لك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأمته.

فيقال لهم: ـ أي: لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ هل بلَّغ قومه؟

فيقولون: نعم.

فيقال لها: ـ أي: لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وما علمكم؟

فيقولون: جاءنا نبينا ـ أي: سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فأخبرنا أن الرسل قد بلَّغوا.

فذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾».

وهذا كما قال الله تعالى مخاطباً للأمة المحمدية صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

فقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي: بأموالكم وأنفسكم وبألسنتكم، بإقامة الحجة والبرهان على المنكرين كما قال سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ ـ أي: بالقرآن وحججه ـ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ فإن حُجج القرآن هي بالغة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾.

وقال تعالى: ﴿ حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ أي: يا أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الله تعالى هو اختاركم؛ واصطفاكم على سائر الأمم، وفضلكم، وقد شرفكم وخصكم بأكرم الرسل، وأكمل الشرائع.

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء قد يَشق عليكم إلا جعل لكم الله له فرجاً ومخرجاً، فالمريض إذا لم يستطع القيام في الصلاة فإنه يصلي قاعداً وهكذا.

فإن الله تعالى لا يُريد فيما شرع لكم أن يُحرجكم، أو يُضيق عليكم، وإنما شرع لكم الشريعة، فإنها تشتمل على أوامر إلّهية أوجبها عليكم فيها سعادتكم وصلاحكم، ونجاحكم وفلاحكم في الدنيا والآخرة، وفيها المناهي التي نهاكم عنها، لأن فيها فسادكم، وفيها مضار كبرى تعود عليكم، فإنه سبحانه هو أعلم بما فيه صلاحكم ونجاحكم، وهو أعلم بما فيه الفساد والضرر عليكم، لأنه هو الذي خلقكم، والخالق أعلم بمخلوقه.

قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾.

فالله تعالى أعلم بما يصلح الإنسان وبما يفسده، فكل ما أمر الله تعالى به ففيه الصلاح والسعادة والكمال، وكل ما نهى عنه فهو عكس ذلك، قال تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ أي: فيما شرع لكم، ﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ - أي: من الذنوب والعيوب والمفاسد، فنهاكم عما نهاكم ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: فيما أمركم به، لتكونوا أخياراً سعداء في الدنيا والآخرة، صالحين مفلحين، أهلاً لأن تكونوا من المقربين الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾.

اللهم اجعلنا منهم فضلاً منك ونعمة، يا ذا الجلال والإكرام.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فالله تعالى شرع الشريعة وضمَّنها أحكاماً صادرةً عن علمه وحكمته سبحانه وتعالى، كما قال سبحانه في صفة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وما جاء به: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ ـ أي: عظموه ـ ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

اللهم اجعلنا منهم بجاهه عندك صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً أبد الآبدين.

قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: الزموا ملة أبيكم إبراهيم ـ أي: العقيدة التوحيدية الإيمانية، وهي التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ الآية.

وفي هذا بيان للملة الحنيفية، فالحنيف هو المقبل على الله تعالى بكليته: توحيداً، وإيماناً، وعبادة، مائلاً عن الشرك، وهذا معنى ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

فيلزم من تمام الإقبال على الله تعالى يلزم منه: الميل عن الشرك به سبحانه.

وقد أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

والمراد بالنُّسك في هذه الآية جميع أعمال الطاعات والقربات، يقال: نسك فلان فهو ناسك ـ أي: عابد.

روى مسلم في: (صحيحه) عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي، ونسكي، ومحياي، ومماتي؛ لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين[1].

اللهم أنت الملك لا إلَه إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك: ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً؛ إنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يَهدي لأحسنها إلاّ أنت،

---

(١) هذا له صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولكن إذا أتىٰ به المصلي يقول: وأنا من المسلمين.

واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلاّ أنت، لبّيكَ وسَعْديكَ، والخير في يديك، وليس الشر إليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك».

قوله تعالى في الآية المتقدمة: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ﴾ ـ أي: يا أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: هو الله تبارك وتعالى اجتباكم، وهو سبحانه سماكم المسلمين، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: في الكتب المتقدمة النازلة على الرسل، وفي كتاب الذكر الأول، كما قال ابن عباس وغيره ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ يعني: القرآن الكريم، ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: على الناس قبلكم بأن رُسلهم قد بلغتهم رسالات ربهم ـ كما تقدم.

روى الشيخان عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوماً، فصلى على أهل أُحُد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّي فَرَط[1] لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله أنظر إلى حوضي الآن، وإني أُعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها» أي: الدنيا وأموالها، وحطامها، فتشغلكم عن الاستعداد للآخرة.

وليعلم المسلم أن أمامه حساباً وجزاءً، والمحاسِب والمُجازي هو الله تعالى:

---

(١) الفرط هو: السابق المتقدم على القوم.

روى أبو نعيم، والديلمي[١] عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «البرُّ لا يَبلى، والذنب لا يُنسى، والدَّيان لا يموت، اعمل ما شئتَ كما تدين تُدان».

فعمل البر لا ينقطع ثوابه، ولا يضيع، بل هو محفوظ عند الله تعالى.

و«الذنب لا ينسى» فعلى المسلم أن يبادر إلى التوبة من ذنوبه.

و«الديَّان» أي: المجازي والمحاسب هو الله تعالى لا يموت «كما تدين تدان»[٢].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ الآية.

فقوله تعالى: ﴿شَٰهِدٗا﴾ هذا يشمل أيضاً شهادته صلى الله عليه وعلى آله وسلم على مَن آمن من أُمته بالإيمان، وعلى من كفر منهم بالكفر، كما قال الله تعالى:

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ[٣] بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾.

---

(١) ورواه عبد الرزاق في: (الجامع) عن أبي قلابة مرسلاً كما في: (الجامع الصغير) رامزاً لحسنه، ورواه عن أبي قلابة أيضاً: البيهقي في: (الزهد) وفي: (الأسماء والصفات) كما في: (فيض القدير) ملخصاً.

(٢) يقال دِنْته بما صنع: أي: جزيته.

(٣) قال الحافظ ابن كثير: أي: انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف، وما يحلُّ بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ اهـ.

يُخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن هول يوم القيامة، وشدة أمره، وكيف الحال يوم القيامة حين يجيء الله تعالى مِنْ كل أُمة بشهيد يشهد عليها، وهو رسولها المبعوث فيها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ الآية.

روى البخاري، والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (قال لي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اقرأ عليَّ القرآن».

قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزل؟

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «نعم - فإني أحب أن أسمعه من غيري».

قال ابن مسعود: فقرأت سورة النساء، حتى انتهيتُ إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ الآية.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان) أي: تدمعان.

فالمشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ هم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

و﴿شَهِيدًا﴾ قال العلامة النسفي: أي: شاهداً على مَن آمنَ بالإيمان، وعلى من كفر بالكفر، وعلى من نافق بالنفاق. اهـ

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

والمعنى: قل يا رسول الله هو الله ربنا الرحمن، آمنا به، فإنَّه

الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، وآثار رحمته؛ ومشاهد رحمانيته ظاهرة في جميع الأكوان، فهو وحده الإلّه الحق الذي يَجب أن يُعبدَ ويُتوكَّل عليه، هذا هو الحق والنور المبين، وأما أنتم أيها الكافرون والمشركون، فستعلمون من هو في ضلال مبين، وفي هذا تهديد ووعيد، وتوبيخ لهم شديد، ليتعظوا ويرجعوا عما هم فيه من الضلال المبين؛ ومَنْ أضلُّ ممن يعبد صنماً صنعه بيده، وسمَّاه إلّهاً ـ كذباً وباطلاً.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: اذكروا أسماءهم الحقيقية المعبرة عن حقيقتهم فإنها حجر، أو حديد، أو نحاس، فأسماؤهم الحقيقية هي: حجر أو حديد ونحاس، ولكن أنتم سميتموها آلهة كذباً وافتراء كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ﴾.

فكان الناس قبل بعثة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في جاهلية جهلاء، وظلمة ظلماء، وضلالة عمياء، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ﴾ ـ أي: وإنه كانوا ـ ﴿مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ظاهر.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم المنَّة الكبرى، والنعمة العظمىٰ.

فجاء صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالنور المبين ليطرد ظلمة الضلال المبين، فَيخرج الناسِ من الظلمات إلى النور:

قال الله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

وقد وصفه الله تعالى بأنه سراج منير:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

فوصفه بأنه سراج، كما وصف الشمس الطالعة في السماء، وما ذاك إلا لقوة النور الذي جاء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وجلائه وبهائه، وظهوره وعمومه، فكما أنَّ الشمس السمائية عَمَّت بضيائها نواحي الأرض، فالشمس المحمدية عمت بأنوارها ما بلغه الليل والنهار، كما روى الإمام أحمد عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «ليبلغنَّ هذا الأمر ـ أي: الذي جاء به ـ ما بلغ الليل والنهار».

ولكن ذكر سبحانه الفرق الكبير بين الشمسين: الشمس المحمدية والشمس السمائية:

قال الله تعالى في الشمس السمائية: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ وقال في الشمس المحمدية: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

فإن شمس السماء هي وهَّاجة، فهي قد تضرُّ بوهجها، وإنما

ينتفع منها الناس بنسبة محدودة، ويستغنون عنها مدة مديدة من الزمن، فإذا غربت أقبل الليل الذي جعله الله تعالى سكناً وراحة ورحمة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله تعالى على نعمه التي لا تحصى، ومنها: أنه جعل لكم الليل لتسكنوا فيه، وجعل لكم النهار لتبتغوا من فضله، فتسعون في أسباب المعيشة وتتعاطون أسباب الرزق.

وأما الشمس المحمدية فقد وصفها الله تعالى بأنها السراج المنير، قال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ ومن المعلوم بَداهة أن النور لا يَستغني عنه أحد؛ لا في الليل ولا في النهار.

فسيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو السراج المنير، المنَوِّر للعوالم كلها، الذي لا يُستغنى عنه لا في الليل ولا في النهار، نوَّر الأرواح والقلوب، والعقول والمدارك، ففتح الله تعالى به أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً مغلقة، مظلمة، كما تقدم في صفته في التوراة صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وكما أن الأبصار العينية لا ينتفع صاحبها بها إلا إذا مشت على نورٍ خارجي يُضيء لها، وكذلك العقول البشرية لا تَنفع صاحبها إلاّ إذا مَشَت على نور الشمس المحمدية، وبذلك يهتدي العاقل لما فيه سعادة الدنيا والآخرة، وصلاحهما وفلاحهما، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فالأبصار العينية هي في حاجة لنور الشمس السمائية، وأما البصائر القلبية، والمدارك العقلية فهي في أشد الحاجة إلى نور الشمس المحمدية صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قال الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ ـ أي: عظموه ـ ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: لا غيرهم.

فلا فلاح ولا نجاح، ولا سعادة إلا باتباعه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن المراد بالبرهان هو النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقال الحافظ الزرقاني: روى ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال: هو سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قال: وجزم به ابن عطية، والنسفي. اهـ

والبرهان هو الحجة القاطعة النيِّرة الواضحة، التي تُعطي اليقين التام.

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم حُجة الله تعالى على جميع خلقه، وهو حجة نيرة واضحة لكثرة ما معه من الآيات والمعجزات: النفسية، والآفاقية، والسماوية، والأرضية، والعلمية، والإخبارات الغيبية عما: مضى، وما هو آت، إلى

ما وراء ذلك من الآيات والمعجزات، وكلها تشهد بصدقه وحَقِّيَّةِ ما جاء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ أي بَيِّن بنفسه في ثبوت حَقِّيَّتِهِ، وأنه كلام رب العالمين، وليس من كلام المخلوقات؛ وذلك بسبب أنواع إعجازه، كما أنه مبين لغيره، فهو مبين لحقِّيَّة الحق، وبطلان الباطل.

فالقرآن هو نور مبين ظاهر بنفسه، إنه القرآن النازل من عند الله تعالى، **ومظهر لغيره**: يُخرج الناس من الضلال المبين إلى النور المبين، ومن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وكما أن الله تعالى وصف رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأنه برهان ـ وصفه بأنه نور: قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾.

فهذا النور هو سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قال العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾: نور عظيم، وهو نور الأنوار والنبي المختار صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قال: وإلى هذا ذهب قتادة، واختاره الزجاج. اهـ

قلت: وإليه ذهب أكثر المفسرين ـ وهو الحق.

وأما الكتاب المبين فهو القرآن العظيم، وسماه كتاباً لأنه جامع لكل شيء، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ ومادة الكَتْب تدل على الجمع، ومنه كتيبة الجيش.

فالقرآن العظيم هو الكتاب الجامع لكل شيء، وهو تبيان لكل شيء، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

والمعنى: قد جاءكم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بآيات قرآنية، أنزلها الله تعالى، هي بصائر جمع بصيرة، والبصيرة للقلب كالبصر للعين، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ وذلك بالاتباع، والسير على ما جاء به القرآن الكريم، فإنَّه نور يُبصر القلوب والعقول التي في القلوب، ويكشف لها عن الحق، دون التباس ولا ارتياب، فهو يمشي على بصيرة كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

اللهم اجعلنا من المتبعين له صلى الله عليه وعلى آله وسلم بجاهه عندك.

فالمتبعون له صلى الله عليه وعلى آله وسلم هم سائرون وراءه، لأنه إمامهم فهو أَمامهم، هؤلاء هم على بصيرة في كل العوالم، وقد أشرقت عليهم أنواره التي جاء بها صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فاستنارت قلوبهم، وعقولهم، ومداركهم، وحواسُّهم،

ووجوههم؛ كل واحد منهم على حسب اتباعه ـ وهذا النور هو ملازم لهم في جميع العوالم التي سيمرُّون عليها، يَسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، مصاحباً لهم لا يفارقهم: لا في عالم القبر، ولا في عالم الحشر، ولا في سيرهم على الجسر ـ أي: الصراط ـ ولا في سائر العوالم الآتية.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

فالمؤمنون به صلى الله عليه وعلى آله وسلم هم معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولا يُخْزَون، ونورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ـ أي: يحيط بهم من جميع جوانبهم ـ يدعون بقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ أي: حتى نجتاز الصراط، وندخل الجنة بسلام ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

وإنما دعوا بهذا كما قال الحسن البصري ومجاهد والضحاك وغيرهم(١): هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفىء. اهـ.

فلا يسلم إلا المؤمن الصادق، وأما المنافق الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر فَيهلك مع الهالكين.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

---

(١) انظر: (تفسير) الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى.

اللهم اجعلنا منهم بجاه حبيبك الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فالمؤمنون الصادقون يَسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم لا يَطفأ أبداً قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنَّ أوَّل زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يَلونهم على أشدِّ كوكب دُريٍّ في السماء إضاءة: لا يبولون ولا يتغوَّطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الأُلُوَّة ـ الألنجوج: عود الطيب ـ، أزواجهم الحور العين، على خُلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم: ستون ذراعاً في السماء».

قال في: (التيسير): رواه الشيخان، والترمذي.

قال: والأُلوَّة: الألنجوج من أسماء العود الذي يتبخَّر به. اهـ

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أوَّلُ زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة، ثم هم بعد ذلك منازل ـ أي: ذوو منازل ومراتب مختلفة في النورانية ـ لا يتغوَّطون، ولا يبولون، ولا يمتخطون، ولا يبزقون، أمشاطهم الذهب، ومجامرهم الأُلُوّة، ورشحهم المسك، أخلاقهم على خُلُق رجل واحد، على طول أبيهم آدم ستون ذراعاً».

وروى مسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ليدخلنَّ الجنة من أمتي سبعون ألفاً، أو سبعمائة ألف ـ لا يدري الراوي أبو حازم أيهما قال ـ متماسكون، آخذ[1] بعضهم بعضاً، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، على صورة القمر ليلة البدر».

وقد جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه بيان صفة هؤلاء السبعين ألفاً:

روى مسلم عن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب».

قالوا: مَنْ هم يا رسول الله؟

قال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيَّرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون».

هذا وإن تلك البدور الساطعة، والكواكب الدرية اللامعة، وهي أول زمرة يدخلون الجنة، والتي تليها فمن بعدهم إنما يستمدُّون أنوارهم من الشمس المحمدية، فإن شمس تلك الأقمار والكواكب

---

(١) قال الإمام النووي رضي الله عنه: كذا في معظم الأصول: «متماسكون» بالواو، و«آخذ» بالرفع، ووقع في بعضها: «متماسكين» بالياء، و«آخذاً» بالنصب، وكلاهما صحيح، قال: ومعنى: «متماسكين» ممسك بعضهم بيد بعض، ويدخلون معترضين صفًّا واحداً، بعضهم بجنب بعض، وهذا تصريح بعظم سعة باب الجنة ـ نسأل الله تعالى رضاه والجنة لنا ولأحبابنا ولسائر المسلمين آمين. اهـ.

ومن بعدهم ـ شمسهم التي تشرق نورها عليهم هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بنص قوله تعالى في وصفه لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

فاعتبر أيها العاقل وتدبَّر، ولا تُكَذِّب بآيات الله تعالى وتتنكَّر، فقد قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

فلا تكن أصمَّ ولا أبكم، ولا أعمى القلب، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

وإياك وأن تقول: إنّ هذاالكلام المتقدم من باب ضرب المثال، أو نوع الخيال، فإنما يذكر الله تعالى الحق، ويخبر عن الحقيقة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾.

فوصف سبحانه الشمس الفلكية بأنها سراج وهَّاج؛ فذاك حق وحقيقة، ووصف سبحانه الشمس المحمدية بأنه سراج منير صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ فذلك حق وحقيقة، فلا تتلاعب بالحقائق القرآنية.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾.

فالقرآن العظيم هو الذي يبين الحق، ويكشف عن الحقيقة، والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾.

في هذه الآية الكريمة بشارة عظيمة للذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وما أكرم هذه البشارة وما أعظمها وما أفضلها.

نعم إنَّ فيها المعية لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فهم لا يُخزون وقد أشرقت أنوار رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عليهم؛ بسبب إيمانهم به، واتباعهم له، فصار نُورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم - وكيف لا يكون ذلك وقد استناروا بنور السراج المنير لجميع العوالم، الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

وقد جاء صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشريعة نيِّرة جليّة: عقيدةً، وعبادةً، ومعاملةً، وأخلاقاً، وآداباً، وتأديةً للحقوق والواجبات والمسؤوليات، ليس فيها التباس، ولا ارتياب، ولا تحيُّر، ولا اضطراب، بل بيضاء نقيَّة كالشمس كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم، في الحديث الذي رواه أبو يعلى في: (مسنده) عن خالد بن عرفطة في حديث طويل وفيه: فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«يا أيها الناس إني قد أُوتيت جوامع الكلم، وخواتيمه،

واختصر لي اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية، فلا تتهوّكوا ولا يغرنكم المتهوّكون».

والتهوّك هو: التحيُّر، يقال تهوّك إذا تحيَّر.

فهذه الشريعة المحمدية صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا التباس فيها، ولا تحير، ولا شك، ولا وهْم، كلُّها حقائق وبصائر، مبصِّرة لكل عاقل، كما قال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي: متى أبصروا نور الحق آمنوا، وأيقنوا ولم يعاندوا، ولم يتحيَّروا ولم يعارضوا، ميلاً منهم إلى أهواء فاسدة، وآراء ضالة، فإنه لا يزيغ عما جاء به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلا هالك، كما تقدم في الحديث عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «لقد تركتكم على مثل البيضاء: ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك» ـ أي: لا يميل عنها إلا هالك ـ رواه ابن أبي عاصم في كتاب: (السنة) بإسناد حسن.

وروى ابن ماجه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ونحن نذكر الفقر ونتخوَّفه.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الفقر تخافون، والذي نفسي بيده لتُصبنَّ عليكم الدنيا صَبّاً، حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغةً إلاَّ هِيَه.

وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء».

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (صدق والله رسول الله صلى الله

عليه وعلى آله وسلم: تركنا والله على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء).

فالواجب على العاقل اتّبَاعُ ما جاء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هَواهُ تبعاً لما جِئْتُ به» الحديثِ كما تقدم.

وقد حَذَّر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمته من شر الدنيا، وفتنة كثرة المال، وذلك بالانهماك فيها والتوسع الكبير فيها، الشاغل للمسلم عن القيام بأوامر الشريعة، والميل كل الميل إلى الدنيا وحطامها، والانشغال بها عن الآخرة، بل قد تُوصله إلى نسيان الآخرة ـ وهذا خطره على المسلم كبير، وشره مستطير، فليتمسَّك المسلم بالشريعة ولا تغرنَّه الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾.

فالمؤمن الكامل لا تغره الدنيا، ولا كثرة حطامها، وإنّ أكبر همِّه هو الآخرة، وما أعد الله تعالى فيها لعباده الصالحين.

وقد جاء في دعائه صلى الله عليه وعلى آله وسلم آخر المجلس: «ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا».

وروى الترمذي وغيره، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**من كانت الآخرة** همَّه ـ أي: همه الأكبر ـ جعل الله تعالى غناه في قلبه، وجَمع عليه شَمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، **ومن كانت الدنيا** همه ـ أي: همه الأكبر ـ جعل الله تعالى فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأته

من الدنيا إلاّ ما قُدِّر له ـ فلا يمسي إلا فقيراً، ولا يصبح إلا فقيراً.

وما أقبل عبد على الله تعالى بقلبه: إلا جعل الله تعالى قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالودِّ والرحمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع» كذا في: (التيسير) وغيره.

وقد تقدم ذكر هذا الحديث وغيره من الأحاديث النبوية التي فيها تحذير من التهالك على الدنيا، والحرص الشديد على كثرة المال وجمعه، ومنعه حقوقه؛ والانشغال بذلك عن الاستعداد للآخرة.

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

في هذه الآية الكريمة إبطال وتكذيب لتمنيات الكفار، فإنهم كانوا يتمنون التغلب على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والمؤمنين معه، فيهلكون ـ أي: يموتون كما تقدم ـ فقال الله تعالى مخاطباً رسوله الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿قُلْ﴾ أي: يا رسول الله ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: هو الله الرحمن ربنا ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: إنه هو وحده ربنا وإلٓهنا، لأن آيات ربوبيته مشهودة في جميع الأكوان، ومشاهد رحمانيته مرئية بالعيان، في: الأرض والسماء، والماء والهواء، والطعام والغذاء، وفي عالم الطير، وعالم الإنسان، وعالم الحيوان، وما وراء ذلك.

أي: وهذا مما يوجب على كلِ عاقل أن يُؤمن به سبحانه، ويتوكل عليه فـ ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في جميع أمورنا، وفي نصرنا

عليكم معشر الكفار؛ وإن كنتم أكثر عدداً وعدَّة، فهو يرحمنا بالنصر عليكم.

وقد تكفل سبحانه بالنصر لمن آمن به: قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإنه سبحانه هو مولى المؤمنين فهو نعم المولى ونعم النصير قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

فقد تكفل سبحانه وتعالى بنصر المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين ـ والله تعالى لا يخلف وعده، ولا يَنقض عهده.

وقد تقدم حديث الصحيحين عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال:

«أُعطيت خَمْساً لم يعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر» الحديث.

وفي رواية للترمذي «ونصرت بالرعب مسيرة شهر يُقذف في قلوب أعدائي» الحديث[1].

وقد تكفل الله تعالى للمؤمنين بالنصر على أعدائهم، وأوجب ذلك على نفسه.

فقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) كذا في: (تفسير) ابن كثير.

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.

ومعنى نصر الله تعالى هو نصر دين الله تعالى الذي جاء به سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ومن المعلوم الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة ـ أن الجهاد أنواع:

جهاد بالسيف والسِّنان، وجهاد بما جاء به القرآن من الحجة والبرهان، **وجهاد بالجَنَان** أي: القلب وهو جهاد العبد نفسه في الله تعالى.

فأما جهاد السيف والسنان ـ أو غيرهما من أنواع السلاح ـ فهذا جهاد الكفار الذين يؤذون المسلمين، ويبغون عليهم، ويسعون في إفساد أمورهم، وتشتيت شملهم.

وأما الجهاد بما جاء به القرآن من الحجة والبرهان فهذا كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ ـ أي: بالقرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ فسماه جِهاداً كبيراً، وهذا يحتاج إلى قوة إيمان بالله تعالى، وإخلاص في نصرة دين الله تعالى، فَإِنَّ سيف حجة القرآن قاطع، وإنَّ برهانه ساطع، ولولا أنَّ الأمرَ كذلك ما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يجاهد به الكفار؛ على مختلف مِللهم ونحلهم، واتجاهاتهم وشبهاتهم، وضلالاتهم.

وهل يتصور العاقل أنّ الله تعالى يُعطي رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم سيفاً مثلوماً غير قاطع؛ ثم يأمره أن يجاهد به جميع الكفار والمنكرين؟ على كثرتهم وأنواع كفرهم.

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل لما أمره سبحانه أن يجاهد الكفار بالقرآن: علمنا يقيناً أَنَّ حججه التي جاء بها محكمة قاطعة، مُفحمة لجميع أولئك الكفرة والمنكرين، والمعاندين والملحدين، وأنَّ القرآن هو الحقُّ الذي يَعلو ولا يعلى عليه، وأنَّه حجة الله تعالى على جميع الأمم والعباد إلى يوم المعاد[1].

قال الله تعالى آمراً لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يقول: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: إلى يوم القيامة.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

فقد تكفل سبحانه أن يحفظ هذا القرآن الكريم إلى يوم الدين، حجةً على العالمين، وفيه تحدٍّ لمن تُحدثه نفسه بتغييره أو تبديله، أو زيادة فيه، أو نقص منه.

وأما جهاد النفس فهو كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي، وابن حبان، عن فَضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «المجاهد من جاهد نفسه في الله تعالى» وقد رمز في: (الجامع الصغير) لصحته.

ومعنى جهاد النفس في الله تعالى: هو أن يجاهد العبد نفسه بحملها على فعل ما فيه مرضاة الله تعالى من العبادات والطاعات، وعلى تجنب فعل المنهيات والمحرمات التي حرمها الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ

---

(١) انظر تفاصيل ذلك كله في كتاب: (هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان) مع الأدلة والشواهد.

هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ فلا يَتَّبِعُ الهوى لأنه الذي يحمل النفس على ما فيه المخالفة لأوامر شريعة الله تعالى، بل الواجب على العبد أن يحمل نفسه على طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكل ما فيه رضى الله تعالى ورضى رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ حتى يصير هوى النفس تبعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما جاء في الحديث، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[1].

وبذلك يكون الهوى تابعاً للهدي المحمدي، وللحق الذي جاء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لا متبوعاً في ميله إلى المعاصي والمناهي، والمخالفات، والتكذيب بالحق الذي جاء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال تعالى في الكفار: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ أي: وكذبوا بالحق بعدما تبين لهم، واتبعوا أهواءهم المخالفة للحق.

وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

---

(١) قال الإمام النووي: حديث حسن صحيح رويناه في كتاب: (الحجة) بإسناد صحيح. اهـ

فقد حذر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من إتباع النفس هواها، بل الواجب على العاقل أن يكون هواه تابعاً لما جاء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ كما تقدم في الحديث.

وروى الترمذي، والإمام أحمد عن شداد بن أوس رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعدالموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني»[1].

وفي رواية العسكري: «والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني».

فالكيِّس: أي: العاقل الفَطِن المتبصِّر في الأمور هو: من دان نفسه أي: حاسبها وجعلها مُطيعة ومنقادة لأوامر الله تعالى، لأن سعادتها في ذلك.

وقد كان الأشياخ العارفون يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به، وما يعملونه، ويقيدونه في دفتر، فإذا كان بعد العِشاء حاسبوا نفوسهم، وأحضروا دفترهم، ونظروا فيما صدر منهم من: قول وعمل، وقابلوا كلاً بما يستحقه! إن استحق استغفاراً استغفروا، أو التوبة تابوا، أو شكراً شكروا ـ ثم ينامون[2].

فهذا شأن الكيس الفطن، بأن يُحاسب نفسه، ويعمل لما بعد

---

(١) وقد رمز الحافظ السيوطي لصحته، وعزاه أيضاً إلى ابن ماجه، والحاكم.
(٢) كما ذكر ذلك أئمة العارفين نفعنا الله تعالى بهم.

الموت قبل نزوله، ليكون على نور من ربه، وسرور من قربه.

والعاجز: أي: المقصر في الأمور - ورواه العسكري بلفظ: «الفاجر» بالفاء - هو من أَتْبَعَ نفسه هواها، فلم يكفها عن الشهوات، ولم يمنعها عن المحرمات، وتمنى على الله الأماني: جمع أُمنية، فهو مسترسل في تقصيره في طاعة ربه، ومستمر في اتباع شهوات نفسه، لا يستعد للآخرة، ولا يعتذر، ولا يرجع عن غيِّهِ، وعما هو فيه من المخالفات، متبعاً لهوى نفسه، ويتمنى على الله العفو والمغفرة؛ مع الإصرار؛ وترك التوبة والاستغفار.

وقد قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ - أي: كبيرة - ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ - أي: بارتكاب صغيرة - ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ - أي: يعلمون أنهم إذا تابوا تاب الله عليهم - ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

فمجاهدة العبد نفسه في الله تعالى - كما تقدم في الحديث الشريف - هو أمر واجب على المسلم، وذلك بأن يَحْمِلَها على طاعة الله تعالى وتقواه، وذلك بامتثال أوامره سبحانه، واجتناب ما نهى عنه، متحققاً بما قاله الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.

وهذا النوع من الجهاد داخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يهديهم الله تعالى طرق الأعمال الصالحة، والأقوال الطيبة، والمعارف الإلهية المقربة

إليه سبحانه، فيزدادون إيماناً مع إيمانهم، وحباً وقرباً على وجه الترقي الدائم ـ ونسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، بجاه حبيبه الأكرم، ورسوله المعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، وعلينا معهم أجمعين.

وكما نبَّه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم المسلم، إلى وجوب التحقق بمقام جهاد النفس، كذلك نبَّه إلى: وجوب التحقق بمقام المسلم الكامل، والمؤمن الصادق، والمهاجر الوفيِّ:

أما المسلم فهو كما يلي:

روى الترمذي، والإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أَمِنَهُ الناس على دمائهم وأموالهم».

ورواه الحاكم بزيادة وهي: «والمجاهد مَنْ جاهد نفسه في طاعة الله تعالى، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»[1].

وروى الشيخان، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «المسلم مَنْ سَلِمَ المسلمون[2] من لسانه ويده».

---

(١) انظر: (فيض القدير).

(٢) أي: وغيرهم من أهل الذمة ـ فالتقييد غالبي، كالتعبير بجمع المذكر، فإن المراد من سلم المسلمون والمسلمات من لسانه ويده، وإنما اقتصر على ذكر المسلمين لأن المسلمات تبع لهم في الحكم.

قال العلامة المناوي رحمه الله تعالى: فإيذاء المسلم من نقصان الإسلام.

قال: **والإيذاء ضربان** أي: إيذاء المسلم نوعان:

ضرب ظاهر بالجوارح، كأخذ المال بنحو سرقة أو نهب ـ أي: ونحو ذلك من كل ما فيه إيذاء ظاهر.

قال: **وضرب** ـ أي: **نوع** ـ **باطن**: كالحسد، والغلِّ، والبغض، والحقد، والكبر، وسوء الظن، والقسوة ونحو ذلك ـ أي: كالغلظة، والاحتقار، والغش، والخديعة، والمكر ـ قال: فكل ذلك مضرٌّ بالمسلم ومؤذٍ له، وقد أمر الشارع بكف النوعين من الإيذاء ـ وقد هلك بذلك خلق كثير. اهـ

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «المسلم أخو المسلم».

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إياكم والظنَّ فإنّ الظن أكذب الحديث، ولا تجسَّسوا، ولا تحسَّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى.

المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره.

بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم.

كل المسلم على المسلم حرام: ماله ودمه وعرضه.

إنَّ الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

التقوى ههنا، التقوى ههنا، التقوى ههنا»، ويشير صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى صدره صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

«ألا لا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث».

قال في: (التيسير): أخرجه الستة إلاّ النسائي، وهذا لفظ مسلم. اهـ

فقد بين النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما يجب على المسلم أن يَتّصف به، وما يجب عليه من الحقوق التي يجب أن يؤديها ـ وبذلك يكون مسلماً كاملاً.

وأما المؤمن الصادق:

فهو كما تقدم في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم».

وعن فَضالةِ بن عبيد رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب».

رواه الترمذي وحسنه، وابن ماجه(١).

المؤمن مرآة المؤمن:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «المؤمن مِرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن:

---

(١) انظر: (فيض القدير).

يكفُّ عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه» رواه البخاري في: (الأدب المفرد)[1].

قال العلامة المناوي **في معنى: «يكف عليه ضيعته»**: أي: يجمع عليه معيشته، ويضمها له، وضيعة الرجل ما مِنْهُ معاشه، **ومعنى: «يحوطه مِن ورائه»** أي: يحفظه ويصونه، ويذبُّ عنه، ويدفع عنه من يغتابه أو يُلحق به ضرراً، ويعامله بالإحسان ـ بقدر الطاقة ـ والشفقة، والنصيحة، وغير ذلك.

وقال في معنى: «المؤمن مرآة المؤمن» قال: فأنت مرآة لأخيك يُبصر حاله فيك، وهو مرآة لك تبصر حالك فيه. اهـ

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الدين النصيحة».

قلنا: لمن يا رسول الله؟

قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولأئمة المسلمين وعامَّتهم.

المسلم أخو المسلم: لا يخذله، ولا يكذبه، ولا يظلمه.

إنَّ أحدكم مرآة أخيه، فإن رأى به أذىً فليمطه عنه»[2] أي: يزيله عنه.

---

(١) وقال الزين العراقي: إسناده حسن كما في: (فيض القدير).
(٢) قال في: (التيسير): زواه الترمذي.

ومن صفات المؤمن:

حبُّ المؤمنِ لأخيه ما يحبه لنفسه من الإيمان لا من الامتنان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

رواه الشيخان وغيرهما.

وفي رواية للنسائي: «حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير».

ومن صفات المؤمنين:

التحابب بين المؤمنين من الإيمان، ولا يدخلون الجنة حتى يتحابُّوا:

روى مسلم، والترمذي وأبو داود، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أَلَاَ أَدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم»[1].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم، وتعاطفهم: مثل الجسد: إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

---

(١) كما في: (التيسير).

قال في: (التيسير): رواه الشيخان. اهـ

وجاء في رواية: «ترى المؤمنين في توادِّهم» الحديث.

وروى الإمام أحمد، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه، أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن أفضل الإيمان؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنْ تحبَّ لله، وتبغض لله» - أي: أن تُبغض ما يكرهه الله تعالى وهو ما نهى عنه، تفعل ذلك لأجل الله تعالى - «وتُعمل لسانك في ذكر الله تعالى».

فقال الرجل: وماذا يا رسول الله؟.

قال: «وأن تُحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك».

لا يؤمن من لا يأمن جاره شرَّه وأذاه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن».

قيل: من يا رسول الله؟

قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه».

قال في: (الترهيب): رواه أحمد، والبخاري ومسلم.

وزاد أحمد: قالوا: يا رسول الله وما بوائقه؟ قال: «شَرُّه».

قال وفي رواية لمسلم: «لا يدخل الجنة مَنْ لا يأمن جاره بوائقه».

وعن أبي شُريح الكعبي رضي الله عنه قال: قال رسول الله

صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن».

قيل: يا رسول الله: لقد خاب وخسر مَنْ هذا؟

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من لا يأمن جاره بوائقه».

قالوا: وما بوائقه؟ قال: «شرُّه».

قال في: (الترهيب): رواه البخاري.

قال: والبوائق جمع بائقة، وهي الشر وغائلته. اهـ

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله: إن فلانة تكثر من صلاتها، وصدقتها وصيامها ـ أي: على وجه النافلة ـ غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هي في النار».

فقال الرجل: يا رسول الله: فإنَّ فلانة يُذكر من قلة صيامها، وصلاتها ـ أي: على وجه النافلة ـ وأنها تتصدق بالأثوار مِن الأقطِ، ولا تؤذي جيرانها؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هي في الجنة».

رواه الإمام أحمد، والبزار، وابن حبان في: (صحيحه)، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وقال الحافظ المنذري: ورواه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح أيضاً ولفظه:

قالوا: يا رسول الله: فلانة تصوم النهار ـ أي: متنفلة ـ وتقوم الليل، وتؤذي جيرانها؟

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هي في النار».

قالوا: يا رسول الله: فلانة تُصلي المكتوبات ـ أي: الفرائض وما عندها كثرة نوافل ـ وتصدَّق ـ أي: ولكنها تتصدق ـ بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هي في الجنة».

قال: **والأثوار** بالمثلثة جمع: ثور وهي: قطعة من الأقِط.

والأقِط بفتح الهمزة وكسر القاف وبضمها أيضاً، وبكسر الهمزة والقاف معاً وبفتحهما هو: شيء يُتخذ من مَخيض اللبن الغنمي. اهـ

أي: نوع طعام يُتخذ من حليب الغنم، وهو طعام لذيذ والمعنى: أنها تتصدق بهذا الطعام تَصنعه ولا تؤذي جيرانها ـ أي: بل تحسن إليهم.

ومن هنا تعلم عظم شَرِّ أذى الجار، وعظم خير الإحسان إلى الجار، وأن أذى الجار يضرُّ بالعمل الصالح.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أول خصمين يوم القيامة جاران».

أي: جاران متخاصمان متنازعان، فيقضي الله تعالى بينهما بالحق، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي: ويحكم الله تعالى بينكم.

روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير بن العوام رضي الله عنهما قال: (لما نزلت هذه السورة على رسول الله صلى

الله عليه وعلى آله وسلم ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: أي رسول الله ـ يا رسول الله ـ: أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «نعم؛ ليكرّرنَّ عليكم حتى يودَّى إلى كل ذي حق حقه».

فقال الزبير رضي الله عنه: والله إن الأمر لشديد)[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ـ أي: فلا يُنقص من حسنات المحسن، ولا يزاد في سيئات المسيء ـ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

يعني: أنه سبحانه هو العليم بأفعال عباده، وأعمالهم كلها، فلا يحتاج إلى كتابةٍ في كتاب، ولا شهادة من شهداء، وإنما الكتاب والشهداء هما لإقامة الحجة على العباد، وإزالة أعذارهم، ليكونوا على يقين بأنه سبحانه الحكَمُ العدل، وقضاؤه هو الفصل، لا يُعذب أحداً حتى يقيم عليه الحجة، ولا يُبقي له عذراً صحيحاً يعتذر به، فهنالك يعترف المذنبون بذنوبهم، ويعترفون بأنهم ظلموا أنفسهم بسبب: كبرهم، وإعراضهم عن قبول الحق الذي بَيَّنَتْه لهم رسلهم صلوات الله تعالى على رسولنا وعليهم أجمعين، وحينئذ يحكم العبد المذنب على نفسه بأنه مذنب يستحق العقاب.

---

(١) كذا في: (تفسير) الحافظ ابن كثير، وروى الترمذي نحوه وصححه كما في: (التيسير).

ومما يدل على أنَّ الإحسان إلى الجار هو أمر عظيم: إيمانيٌّ وليس بامتناني:

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من يأخذ عني هذه الكلمات فيعمل بهن، أو يُعلِّم مَنْ يعمل بهن»؟

فقال أبو هريرة رضي الله عنه: قلت: أنا يا رسول الله.

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بيدي فعدَّ خمساً فقال:

«اتق المحارم: تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله تعالى لك: تكن أغنى الناس، وأحسِن إلى جارك: تكن مؤمناً، وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك: تكن مسلماً، ولا تُكثر الضحك: فإنَّ كثرة الضحك تميت القلب».

رواه الترمذي والبزار، والبيهقي كما في: (الترغيب).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم: خياركم لأهله».

رواه الترمذي وأبو داود.

ورويا عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة مِنْ خُلق حسن، وإنَّ الله تعالى لَيُبغض الفاحش البذيء».

ذكرى

من هذه الأحاديث الشريفة التي تقدمت: تعلم أيها الأخ المسلم والمسلمة: أن هناك حقوقاً بين المسلمين يجب عليهم أن يرعوها حقَّ رعايتها، فإنها من الدين الذي جاءنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم به، ولها اعتبار كبير في الإيمان، فإنها حقوق إيمانية وإسلامية، وليست تَعَطُّفِيَّة ولا امتنانية.

ولذلك يجب على المسلم أَنْ يعلم: أنه سوف يَسأله الله تعالى عنها؛ يوم يلقى العبد ربه سبحانه، فإنها من جملة أمور الدين التي بينها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبلغها للأمة جمعاء.

وقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، وفيه قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ولَيَلقيَنَّ اللهَ أحدكم يوم يلقاه: ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، فليقولنَّ: ألم أَبْعث إليك رسولاً فَبَلَّغك؟ فيقول العبد: بلى».

أي: فما عملت فيما بلغك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ولذلك أعلن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في حجة الوداع، بعدما بَيَّن وفصَّل، وحذَّر وأنذر ـ أعلن لأمته وأعلمهم

بأنهم سوف يَسألهم الله تعالى عما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ومن جملة ما جاء في خطبته في حجة الوداع: ما رواه الشيخان وأبو داود:

عن أبي بكرة نُفيع بن الحارث الثقفي رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال:

«إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض: السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذين بين جُمادى وشعبان.

أيُّ شهر هذا»؟

قلنا: الله ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنّه سيسميه بغير اسمه.

فقال: «أليس ذا الحجة»؟

قلنا: بلى.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أيُّ بلد هذا»؟

قلنا: الله ورسوله أعلم.

فسكت: حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أليس البلدة الحرام»؟

قلنا: بلى.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فأيُّ يوم هذا»؟

قلنا: الله ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.

فقال: «أليس يوم النحر»؟

قلنا: بلى.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فإنَّ: دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة: يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم».

ثم قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ألا لِيُبلِّغ الشاهد الغائب، فلعلَّ بعض مَن يُبلَّغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه».

ثم قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَلا هل بلَّغتُ، أَلا هل بلَّغتُ، ألا هل بلغت» ثلاثاً؟.

قلنا: نعم.

قال: «اللهم اشهد».

وروى الطبراني في: (الكبير) أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه قال: «يا أيها الناس أنصتوا؛ فإنكم لعلكم لا تروني بعد عامكم هذا» ثم ذكر الحديث كما في: (مجمع الزوائد) وغيره.

وقد شَهِدت له صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمته بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، وقد استنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبته يوم حجة الوداع كما جاء في: (صحيح) مسلم:

عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال في خطبته يومئذ ـ أي: يوم حجة الوداع ـ.

«أيها الناس إنّكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون»؟

قالوا: نشهد أنك قد بلَّغتَ، وأدَّيت، ونصحتَ.

فجعل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول: «اللهم هل بلَّغتُ»[1].

ونحن نشهد يا رسول الله ويا حبيب الله تعالى: أنك قد بلَّغت، وأديت، ونصحتَ.

وجزى الله عنا نبينا سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما هو أهله.

اللهم: فاكتبنا مع الشاهدين، فقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الرسالة على أكمل الوجوه، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، نصيحة عامَّة من جميع: الوجوه، والحيثيات، والاعتبارات؛ إلى يوم الدين.

---

(١) وقد تقدم ذكر هذا الحديث، وتقدم الكلام على موقف سؤال الأمم الذين أُرسل إليهم، وسؤال المرسلين إليهم، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾.

الكلام على الآية الكريمة له وجوه:

الوجه الأول: ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للكفار والمشركين بالله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني إن أصبح ماؤكم الذي به غذاؤكم، وحياتكم، وحياة زرعكم وضرعكم؛ وجميع ما هنالك ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: ذاهباً في الأرض لا تصلون إليه بأيِّ سبب، لعجزكم عن ذلك.

قال العلامة القرطبي: يقال: غار الماء يَغور غوراً أي نَضُب، بمعنى: ذهب في الأرض قال: والغور أي: في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ هو الغائر، وُصف بالمصدر للمبالغة، كما تقول: رجل عدل أي: عادل، ورضى أي: راض. اهـ

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: فمن هو غير الله تعالى يَقدر على أن يأتيكم بماء معين، إذاً لا بدَّ لهم أن يُقرُّوا ويعترفوا، ويؤمنوا أنه لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، أنزل الله تعالى عليه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم، مع أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم نشأ أمياً، فلما بلغ صلى الله عليه وعلى آله وسلم الأربعين: أرسله تعالى وأوحى إليه، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم، فليفكروا وليعقلوا: يَتبيَّن لهم قطعاً أن سيدنا محمداً رسول الله حقاً كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقد أنزل الله تعالى عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كتاباً جامعاً، معجزاً، يتحدَّى به العالم كله.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ في هذه الآية برهان ساطع، ودليل قاطع، وحجة قائمة على كل كافر: من مشرك أو منكر لوجود الله تعالى ووحدانيته، كما أن في هذه الآية الكريمة إلزاماً لجميع المخلوقات بالاعتراف بأنهم فقراء إلى الله تعالى في جميع أمورهم، وفي طعامهم وشرابهم، وهوائهم ومائهم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾.

أي: أنزلنا لكم من السماء ماءً عذباً تشربون منه، وتسقون ضرعكم وزرعكم، وما هنالك ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي: حافظين له من أن يغور ويذهب في الأرض، بل الله تعالى وحده هو الذي يُنزله ويحفظه عليكم، ويجعله معيناً في ينابيع الأرض.

ولو شاء سبحانه لأغاره، وذهب به، ولكن من رحمته بعباده أنزله وجعله عَذباً، وحفظه في العيون، والآبار، والأنهار؛ وغير ذلك، ليبقى لهم فيشربون، ويَسقون أنعامهم، وزروعهم وثمارهم.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾.

فهو سبحانه يَذكر نِعَمَهُ على عباده التي لا تُعد ولا تحصى، ويُذكرهم ليعلموا أن الله تعالى هو حقٌّ أي: واجب الوجود، وهو

رب العالمين وحده لا شريك له، آياته مشهودة، ونعمه ممدودة وغير معدودة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعل سبحانه الماء إذا نزل من السحاب يسكن في الأرض، وجعل في الأرض قابلية له، فيشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى وغير ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: ولو شاء سبحانه إذا أنزل الماء في الأرض لو شاء أن يُغَوِّر الماء إلى مدى لا يصلون إليه ولا ينتفعون به لَفَعَلَ؛ ولو شاء أن يُذهب به إلى السباخ والبراري والقفار لَفَعَلَ، كما أنه سبحانه لو شاء لجعله أُجاجاً لا يُنتفع به لشرب ولا سقيا لَفَعَلَ، كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ - أي: السحب - ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

فهو الله سبحانه وتعالى ربُّ العالمين، الرحمن الرحيم، يُنزل الماء من السحاب عذباً فراتاً، فيسكنه في الأرض، ويَسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون، ويُجري الأنهار، وتُسقى بها الزروع والأشجار، وتشرب منه العباد ويغتسلون، ويتطهرون ويتنظفون، وتسقى به دوابهم وأنعامهم - فلله الحمد الذي لا يُحد ولا يستقصى، وله الثناء الذي لا يُعدُّ ولا يحصى، وله الشكر الجزيل على نعمه كلها ما علمنا منها وما لم نعلم.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فاستغفروه يغفر لكم ذنوبكم، وتقصيركم في شكركم على نعمه التي لا تحصى؛ فإنَّه غفور رحيم، ومغفرته أوسع من ذنوبكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾[1] الله رب العالمين.

قال العلامة الكبير الخطيب الشربيني في تفسيره عند هذه الآية الكريمة قال: ويُستحب أن يَقول القارىء عقب: ﴿مَّعِينٍۭ﴾ الله رب العالمين كما في الحديث. اهـ

وفي تفسير: (فتح البيان): قال المحلي: ويستحب أن يقول القارىء عقب: ﴿مَّعِينٍۭ﴾ الله رب العالمين كما ورد في الحديث. اهـ

قال العلامة الخطيب رحمه الله تعالى في: (تفسيره) قال: وتُلِيَتْ هذه الآية عند بعض المتجبرين فقال: نأتي بالفؤوس

---

(١) أي: جار كثير، فهو مَأْخوذ من معن الماء إذا كثر وجرى، ففعيل بمعنى الفاعل: أي: كثير جار، ويُحتمل أنه بمعنى: ظاهر سهل المأخذ، لوصول الأيدي إليه، ففعيل بمعنى المفعول من: عين ـ أي: فهو معَايَن، قريب التناول. اهـ ملخصاً من: (روح المعاني)، و(تفسير القرطبي وغيرهما.

قال العلامة القرطبي: وعن ابن عباس رضي الله عنها أيضاً أنَّ المعنى: فمن يأتيكم بماء عذب والله أعلم. اهـ

والمعاول، فذهب ماء عينيه وعمي ـ نعوذ بالله من الجراءة على الله تعالى، وعلى آياته سبحانه. اهـ

وقد نقل ذلك أيضاً في تفسير: (فتح البيان)، وتفسير: (روح المعاني) وغيرهما من التفاسير.

فليحذر الإنسان كل الحذر أن يتخذ آيات الله تعالى هزواً، أو يسلك مسالك العبث فيها أو الهزل.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾.

روى الإمام الترمذي، عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «أما إنها ستكون فتنة».

قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «كتاب الله تعالى: فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكم ما بينكم.

هو الفصل ليس بالهزل.

مَنْ تركه من جبّار قصمه الله تعالى، ومن ابتغى الهُدى في غيره أَضلَّه الله تعالى.

وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.

وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع

منه العلماء، ولا يَخلَق على كثرة الردِّ[1]، ولا تَنقضي عجائبه.

وهو الذي لم تنته الجنُّ إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾.

مَنْ قال به صدق، ومن عمل به أُجِر، ومَن حكم به عَدل، ومن دَعى إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم» كذا في: (تيسير الوصول).

فالقرآن الكريم هو الفصل وليس بالهزل، فخذ كتاب الله تعالى بقوة، ولا تهجره، ولا تتهاون به، ولا بما جاء فيه.

التحذير الشديد
من مسالك الهزل أو الاستهزاء أو الاستهانة
فيما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم

روى الإمام الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى ونفعنا الله تعالى به، عن الرواة الثقات الحفاظ، عن أبي يحيى: زكريا بن يحيى الساجي رحمه الله تعالى قال:

كنا نمشي في أزقّة البصرة إلى - باب - بعض المحدثين، فأسرعتُ المشي، وكان مع رجل منهم ماجن في دينه فقال: ارفعوا

---

(١) والمعنى: أن مِنْ إعجاز هذا القرآن الكريم: أنه لا يُمَلُّ منه على كثرة ترديده، ولا يُسأم منه على كثرة إعادته وتكريره، بل هو دائماً له حلاوة جديدة، وطلاوة مزيدة، على تعاقب الدهور والآباد، ولذلك يقال للقارىء في الجنة: «اقرأ وارق» الحديث.

أرجلكم عن أجنحة الملائكة، لا تكسروها، كالمستهزىء ـ أي: كالمستهزىء بحديث: «وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع».

قال: فما زال ـ أي: الرجل الماجن ـ في موضعه، حتى جفَّتْ رجلاه وسقط. اهـ ـ أي: أُقعِد وما عاد يستطيع أن يمشي طول حياته.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: وقال الحافظ عبد الحافظ: إسناد هذه الحكاية كالوجد، أو كرأي العين ـ أي: لقوة ثبوتها ـ لأن رواتها أعلام أئمة. اهـ

ثم قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: وبالإسناد إلى المقدسي، وأورد سنده، إلى الإمام أبي داود السجستاني قال: كان في أصحاب الحديث رجل خليع، إلى أن سمع بحديث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع».

فجعل في عقبيه ـ أي: في نعلي رجليه ـ مسامير حديد، وقال: أريد أن أطأ أجنحة الملائكة ـ فأصابه أَكَلَةٌ في رجليه.

ثم قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: وذكر الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي رحمه الله تعالى ـ في كتابه: (شرح صحيح) مسلم ـ ذكر ـ هذه الحكاية ـ أي: المتقدمة ـ وفيها: وشُلَّتْ رجلاه ويداه وسائر أعضائه ـ والعياذ بالله تعالى.

قال: وقرأت في بعض الحكايات: أن بعض المبتدعة حين

سمع قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمسْ يده في الإناء حتى يغسلها، فإنه لا يدري أين باتتْ يده».

فقال ذلك المبتدع ـ على سبيل التهكم ـ: أنا أدري أين باتتْ يدي: في الفراش ـ فأصبح وقد أدخل يده في دبره إلى ذراعه.

قال التيمي رحمه الله تعالى: فليتّقِ المرء الاستخفاف بالسُنن، ومواضع التوقيف ـ فانظر كيف وصل إليهما شؤم فعلهما. اهـ

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: قُلت ومعنى هذا الحديث ـ أي: المتقدم ـ ما قاله الإمام الشافعي رضي الله عنه، وغيره من العلماء رضي الله تعالى عنهم:

إن النائم تطوف يده في نومه على بدنه، فلا يأمن أنَّها مرَّت على نجاسة: من دم بشرة، أو قملة، أو بُرغوث، أو على محل الاستنجاء، وما أشبه ذلك، والله تعالى أعلم. اهـ كلام الإمام النووي حول الحديث المتقدم.

ثم قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: قلت: ومن هذا المعنى ـ أي: ما جاء في عقوبة المستهزئين ـ ما وُجد في زماننا هذا ـ أي زمان الإمام النووي رضي الله عنه ـ وتواترتْ به الأخبار وثبت عند القضاة:

أن رجلاً بقرية ببلاد بُصرى في أوائل سنة خمس وستين وستمائة، كان شاباً سيء الاعتقاد في أهل الخير، وله ابن يعتقد فيهم، فجاء ابنه يوماً من عند شيخ صالح، ومعه مسواك.

فقال: ما أعطاك شيخك ـ مستهزئاً ـ

قال: هذا المسواك.

فأخذه منه وأدخله في دبره ـ احتقاراً له ـ فبقي الرجل مدةً، ثم وَلَد ذلك الرجل[1] الذي أدخل المسواك في دبره ـ جَرواً قريب الشبه بالسمكة فقتله.

ثم مات الرجل في الحال أو بعد يومين ـ أي: من ولادته الجرو ـ عافانا الله الكريم من بلائه، ووفقنا الله تعالى لتنزيه السنن، وتعظيم شعائره. آمين. اهـ كلام الإمام النووي رضي الله تعالى عنه كما هو في كتابه (بستان العارفين).

وإليك لفظ الحديث المتقدم: «وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضىً لطالب العلم» أُوردُه بتمامه.

روى أبو داود واللفظ له، والترمذي، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «من سلك طريقاً يطلب به علماً سَلك الله به طريقاً من طرق الجنة.

وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضىً لطالب العلم.

وإن العالم لَيستغفر له: من في السماوات، ومن في الأرض، والحيتانُ في جوف الماء.

وإنَّ فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً

---

(١) أي: خرج من دبره جروٌ.

ولا درهماً، ولكن ورَّثوا العلم، فمَنْ أخذه أخذ بحظ وافر» كذا في: (التيسير).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ثلاث لا يَستخف بهم إلاّ منافق: ذو الشيبة في الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط» رواه الطبراني في: (الكبير)[1].

وروى الإمام أحمد والحاكم عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ليس منا: من لم يجلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»[2].

وروى الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنَّ الله وملائكته، وأهل السموات وأهل الأرض، حتى النملة في جُحرها، وحتى الحوت: لَيُصلُّون على مُعَلِّمِ الناس الخير».

قال في: (الترغيب): رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

قال: ورواه البزار مختصراً، قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر».

---

(١) كذا في: (الترهيب) وقد ذكره الحافظ السيوطي في: (الجامع الصغير) رامزاً لحسنه.

(٢) رمز الحافظ السيوطي لحسنه، وقال العلامة المناوي: قال الهيثمي: سنده حسن. اهـ

وروى البيهقي وغيره، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يُبعث العالم والعابد.

فيقال للعابد: أُدخل الجنة.

ويُقال للعالم: أُثبت حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم»[1].

وعن زرٍّ بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسَّال المُراديَّ رضي الله عنه قال: ما جاء بك؟

قلت: أنْبُطُ العلمَ ـ أي: أطلبه وأستخرجه ـ.

قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «ما من خارج يخرج من بيته في طلب العلم: إلا وَضعت له الملائكة أجنحتها رضاً بما يصنع».

قال الحافظ المنذري: رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه واللفظ له، وابن حبان في: (صحيحه)، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. اهـ

وروى الإمام مسلم وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

«من نفَّس عن مؤمن كربةً من كُرب الدنيا: نفَّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة.

ومن ستر مسلماً: ستره الله في الدنيا والآخرة.

وَمَنْ يسَّر على مُعسِر: يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة.

---

(١) كذا في: (الترغيب) وأورد عن الأصبهاني نحوه.

والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

وَمَن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً: سهَّل الله تعالى له به طريقاً إلى الجنة.

وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله تعالى، ويتدارسونه بينهم: إلاَّ حفَّتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده ـ ومن أبطأ به عمله لم يُسرِع به نسبه».

الدعاء بالعلم النافع والزيادة منه

روى الترمذي وابن ماجه[1] وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يقول: «اللهم انفعني بما علَّمتني[2]، وعلِّمني ما ينفعني، وزدني علماً.

الحمد لله على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار» أي: في الدنيا والآخرة.

التعوذ من علم لا ينفع

روى مسلم وغيره، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «اللهم إني أعوذ بك: من علم لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دَعوةٍ لا يستجاب لها».

---

(١) كذا في: (الجامع الصغير) رامزاً لحسنه.

(٢) أي: بالعمل بمقتضاه، خالصاً لوجهك الكريم. اهـ كما في: (شرح المناوي.

ورواه الترمذي والنسائي ولفظه:

«اللهم إني أعوذ بك: من قلب لا يخشع، ومن دُعاء لا يُسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع - أعوذ بك من هؤلاء الأربع».

وفي هذه الأحاديث النبوية هدى وإرشادات وتوجيهات لأمته صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقد كان يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أما بعد فإنّ خير الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهَدْيِ هَدْيُ محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» الحديث - يقول ذلك في أول خطبته صلى الله عليه وعلى آله وسلم(١).

يُسْأَلُ العبد يوم القيامة عن علمه ماذا عمل به

عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل: عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من

---

(١) كذا في: (جامع الأصول)، مَعْزواً لمسلم، والنسائي، قال: وفي رواية النسائي: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في خطبته: يحمد الله تعالى ويثني عليه بما هو أهله، ثم يقول: «من يهد الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادي له.
إن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» الحديث انظر: (جامع الأصول).

أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه».

رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

ورواه البيهقي وغيره، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ما تُزال قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله: من أين اكتسبه؛ وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه» كذا في: (الترغيب).

دعاؤه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمن يبلغ أحاديثه للناس

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «نضَّر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سمعه، فربَّ مبلَّغ أَوْعى مِنْ سامع».

رواه أبو داود والترمذي، وابن حبان وصححه، إلا أنه قال: «رحم الله امرءاً» الحديث.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، كما في: (الترغيب).

قال: و«نضَّر» هو بتشديد الضاد المعجمة وتخفيفها حكاه الخطابي، ومعناه: الدعاء بالنَّضارة، وهي النعمة والبهجة والحسن، فيكون تقديره: حَجَّلَهُ وزيَّنه ـ وقيل غير ذلك. اهـ

قال عبد الله: نعم هي النضارة: الحسن والجمال، والنورانية

في الدارين: في الدنيا والآخرة، فيكونون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾.

ومن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

ومن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

اللهم اجعلنا منهم بجاه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عندك يا أرحم الراحمين.

هذا وقد تمَّ جمع هذا الكتاب، بفضل الله تعالى وتوفيقه ـ في العشرين من شهر ذي الحجة سنة ١٤١٧ هجرية.

وإني لأرجو الله تعالى أن ينفعني به، وأن ينفع به عباد الله تعالى، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مُبتغياً بذلك فضلاً من الله تعالى ورضواناً، بجاه حبيبه الأكرم، ورسوله المعظم، إمام الأنبياء والمرسلين، وخاتمهم، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم، وعلى آله وآلهم، وعلينا معهم أجمعين.

كما وإنِّي أسأل الله العظيم، رب العرش العظيم، أن يُوفقنا لاتباع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الأعمال، والأقوال، والأخلاق، والأحوال، وأن يُفيض علينا من بركاته، وأنواره صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأن يجعلنا من المبلِّغين عنه: بصدق وأمانة وإخلاص، على الوجه الذي يَرضاه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم.

اللهم صل على سيدنا محمد رسولك الأكرم، وحبيبك المعظم، وعلى آله، وأصحابه، وأزواجه، وذريته، وعلينا، وعلى والدينا، وعلى مشايخنا، وإخواننا، وكل من له حق علينا، وعلى المسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، وسلم تسليماً، في كل لمحة ونفس: عدد خلقك، ورضاء نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك، كلما ذكرك وذكره الذاكرون، وكلما غفل عن ذكرك وذكره الغافلون ـ آمين والحمد لله رب العالمين.



المحتوى

والحمد لله رب العالمين، وصلى على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون، وكلما غفل عن ذكره الغافلون، صلاة وسلاماً دائمين إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

* * *

كتب فضيلة الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه

* حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .
* حول تفسير سورة الحجرات .
* حول تفسير سورة ﴿قٓ﴾ .
* حول تفسير سورة الملك .
* حول تفسير سورة الإنسان .
* حول تفسير سورة العلق .
* حول تفسير سورة الكوثر .
* حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
* تلاوة القرآن المجيد: فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .
* شهادة لا إلـه إلا الله محمد رسول الله ﷺ ـ فضائها ـ معانيها ـ مطالبها.
* سيدنا محمد رسول الله ﷺ: خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة .
* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية .
* التقرب إلى الله تعالى: فضله ـ طريقه ـ مراتبه .
* الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها .
* الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها .
* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.

* الدعاء: فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
* حول ترجمة الشيخ الإمام محمد نجيب سراج الدين الحسيني .
* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
* الإيمان بالملائكة عليهم السلام ـ ومعه بحث حول عالم الجن .
* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار .
* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
* أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .
* مناسك الحج ـ ومعه أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .
* الصيام: آدابه ـ مطالبه ـ فوائده ـ فضائله .

* * * *

من آثار الشيخ الإمام رحمه الله تعالى (المطبوعة)

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم الجزء الأول والثاني.
* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم .
* محاضرات حول الإسراء والمعراج: آثاره ـ فضائله ـ أسراره.
* محاضرات حول هجرة رسول الله ﷺ.

* * * *

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح
حلب : أقيول أمام جامع أسامة بن زيد رضي الله عنه
هاتف : ٣٢١٧٣٠٠ ـ ٣٢٢٤٩٠٠